مقعد أخير في قاعة إيوارت

مي خالد

رواية

مقعد أخير في قاعة إيوارت

دار شرقيات للنشر والتوزيع

مقعد أخير في قاعة إيوارت
رواية
مي خالد

الطبعة الأولى ٢٠٠٥
© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات ٢٠٠٥

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨
sharq_ca@yahoo.com

تصميم الغلاف: هبة حلمي

رقم الإيداع ٢٠٧٩٣/ ٢٠٠٤
الترقيم الدولي: ٣-١٧٨-٣٨٣-٩٧٧ ISBN

مي خالد

مقعد أخير في قاعة إيوارت

رواية

دار شرقيات

صغيرة ع الحب

صفوف السيارات المختنقة فى الإشارة الطويلة والملتفة حول الميدان كتل معدنية متذمرة. تكاد أصوات ابواقها تثقب أذنيها.

على جانبى الطريق الموازى لجامع عمر مكرم تصطف قوات الأمن المركزى كأشرطة سوداء تليق بالحدث الحزين. تصادم سيارتى أجرة – على الرغم من الركود المرورى– يغلف المكان بجلبة صوتية مطعمة بالسباب واللعنات .

"لك باع فى سوء تقدير الأمور، لذا لم تبالى بأن تخوضى بسيارتك فى وسط المدينة فى ساعة كهذه. فيه حد عاقل ينزل التحرير بعربيته يوم جنازة سعاد حسنى؟ "

سيارتها قفص حديدى يحيط بها ويتركها فى مواجهة عجز يومى صغير. الصهد يغمر الزوايا الأربع للكتلة المعدنية الراقدة فى وسط الطريق. طبقات الأقمشة الصناعية على جسدها تعمق الإحساس بتلك الظهيرة الصيفية.

ليس أمامها الآن سوى ممارسة لعبتها القديمة فى لحظات الاغتراب واللاحيلة. آلة الزمن الخاصة بها دوما طوع يديها. تمسك بكل المفاتيح الخاصة بالنغمات التى تستجلب المشاعر المختزنة والعبق المميز للفترات. لن تسافر بعيداً إلى الطفولة سوى فى ممارستها للعبة.. لأنها فى هذه اللحظة تحديدا تودع قطعة ثمينة من طفولتها.

قلبك يغلفه حزن عميق لا تستطيعين البوح به في محيطك الجديد. يقولون ممثلة وماتت .. الموضوع مش مستاهل ده كله!

نقطة مضيئة انطفأت بداخلك، فمن سيواريها الثرى بعد نهاية مأساوية كانت تمثل لك رمز الانتقال من عالم الحدوتة الأسطورى المتخيل إلى دنيا جديدة من الشخصيات الحقيقية الملونة، تتحرك أمامك بأضعاف حجمك على شاشات العرض.

" صغيرة ع الحب"، إنبهارك الأول بالصورة والصوت المجسم. حدقتا عينيك المفتوحتين. أنفاسك اللاهثة وشرح أمك للأحداث همسا فى أذنك. ذهابك لسينما روكسى التى ستعتبر قبلة محببة الأحد الأول من كل شهر ، واستبدالك بحكاياتها كل حواديتك السابقة.

الفرق بينها الآن وبينها فيما مضى أن الطفلة "منار" أو "مونى" حين كانت تلعب لعبة الفرار من اللحظة، لم يكن لديها قديم تجتره أو مستقبل قادم يمكنها التطلع إليه. ومنذ أن رأت رقبة عروستها "أمل" مكسورة ومدلاة على صدرها وعجزها عن البوح باسم قاتلها من الأطفال الذين كانوا عندها اليوم السابق، صارت تمقت عجز الدمى وظلت تراها كجثث مخيفة. حتى أفلام ومجلات الكارتون التى تسعد الصغار مثلها لم تعد تسليها، لأنها ببساطة لم تهضم فكرة أن الحيوانات تتكلم وترتدى الملابس وتركب المواصلات. لذا وجدت متعتها فى أن تكون دمية نفسها، أن تغزل الحكايات الشيقة التى لا تطولها الأيدى العابثة. تصنع حاضرا آخر تفر فيه إلى شخصيات وأفاق غريبة عنها. وتتجول فى تفصيلاتها بحرية وإتقان أدى إلى انبهار الكبار، حتى أن والدتها ارتعبت من أن تكون مريضة بازدواج الشخصية وثارت ثائرتها على كل من يعاونها مثل أبيها وأخيها وأعمامها الذين كانوا ينادونها بأسماء الشخصيات المتخيلة، وربما تعطفت عليهم

بأدوار مساعدة – كانوا يفرحون بها كثيراً وجعلوا اللعبة أكثر إثارة. أما قلق والدتها وعرقلتها لمسيرة اللعبة فكان يزعجها بشدة لأنها تعرف كيف تفصل بين "مونى" الأصلية وبين شخصيات اللعبة ولا يمتعها سوى هذا الإحساس بالابتكار والخلق. فها هى ذى على مدار سنوات عمرها تنتقل من "فانتا وماريكا" أختيها الأجنبيتين إلى شخصية الأستاذ الذى يتصدر مكانا ومكانة خلف منصة وهمية يحاكم جزءاً من الخادمات ويدافع كمحام عن النصف الآخر واللاتى يتركن أعمالهن المنزلية مشدوهات باللعبة ويتعرضن للسباب، لكنها تنبرى للدفاع عنهن وتحصل لهن على البراءة. ثم مدام سميرة الأرملة اللعوب التى ترتزق من كافيتريا تديرها فى إيطاليا وتغازل الأب والعم وتحاول "تلزيق" ابنتها ميرفت طالبة الطب للعم الأصغر. كل هذا وهى لا تزال فى الثامنة من عمرها. تعيش هى وعائلتها كل تلك الأوهام اللذيذة، إلى أن رأت أنها قد كبرت وآن الأوان لأن تصير أما لأفراد قبيلتها بعدما انضم إليها أزواج وزوجات العمات والأعمام. هى ذات الثلاثة عشرة عاما تنجح فى أن ترضخ رجالا ونساء ناضجين كأبناء لها. تجعلهم يتهتهون ويتلعثمون كالصغار. يرتكبون الحماقات ويتفوهون بألفاظ غير مهذبة فتعاقبهم وتمنحهم أسماء غرائبية يفرحون بها وربما ظلوا يستخدمونها حتى بعدما فقدت اهتمامها باللعبة! ربما كانوا هم أيضاً فى احتياج إلى لحظات فرار من الواقع يسرقونها ويتعللون بأنهم فقط يلاعبونها.

لن يشكل الهروب من اللحظة عبئاً نفسياً عليها، فهى لم تعد طفلة. وراءها ماض طويل يمكنها اجتراره ولديها موهبة مدربة على النبش والتخيل. هى الآن حبيسة المكان ذاته الذى لم تعرف بوجوده إلا حينما بلغت الثامنة عشرة من عمرها. إلا إنه منذ ذلك الحين ظل قابعاً فى داخلها.

لكن ألن تكون اللعبة سقيمة بين جدران أبنية تعليمية؟! ربما ولكنها لن تكون أكثر لزوجة من حالة الاختناق التى تحاصرها فى تلك اللحظات.

هيا ارحلى إلى زمن أعجبك. مارسى لعبتك القديمة المحببة. حركى الشخصيات واعبثى بالأحداث. احذفى وأضيفى. جملى وقبحى فربما تخففت من ثقل اللحظة.

الآن تغيم الرؤية ويتحول الصخب إلى أصوات متداخلة تختفى شيئاً فشيئاً حتى تذوب تماماً ولا يتصدر رأسها سوى أصوات تلك السنوات الأربع ... البعيدة.

❖❖❖

الحجالة

حين تمر بميدان التحرير يتضاءل أمامها كل ما هو دون هذا المبنى/ الصرح الذى يسكنها تماما. مجمع التحرير، حديقة الميدان، مقهى أسترا سابقا الذى تحول إلى دكاكين أطعمة أمريكية براقة لكى يليق بمبناها، شارع قصر العينى بكل ما يحتويه من بنايات ذات أهمية فى إدارة شئون الوطن .. تلك المعالم جميعها تستمد وجودها من كونها تجاور معبدها – هيكلها الذى ترفض أن تعترف لنفسها أنها لم تعد منتمية إليه منذ أكثر من خمسة عشر عاما، بل كلما جرفتها الأعوام بعيدا عنه كلما ازدادت تشبثا به وافتخارا بانتمائها إليه. ذلك المبنى الإسلامى الطراز والذى يقف شامخا فى قلب المدينة منذ عشرينيات القرن الماضى لتتعاقب عليه حقب شكلت التاريخ الحديث لبلدها، ها هو يتباهى بكل ما تحمله العمارة الإسلامية من ثراء وخبرات بشرية، يرفرف عليه العلم الأمريكى جنبا إلى جنب مع علم بلدها، لكنها أبدا لم تلتفت إلى هذا العلم أو ذلك. فقط جملة واحدة هى التى كانت ولازالت تسحرها وكأنها تحتوى كل ما أفرزه شعراء ورسامو وعازفو العالم .. "الجامعة الأمريكية بالقاهرة" تتصدر واجهته وتعلوها: The American University in Cairo وتستقران على خلفية لشريط مزخرف يطلى كل عام ويجدد مع المبنى ناصع البياض فيظل فى حالة شباب وبهاء دائمين.

وعلى الرغم من القشعريرة التى صارت تصيبها- كلما ظهر ممثل للسياسة الأمريكية على شاشات التلفاز بعد أن سقطت وريقات التوت فإنها ترفض أن يكون مبناها على قائمة ممتلكات تلك الامبراطورية المستبدة.

ترى هل وقعت فى غرامه لأنه يشبهك، أم لأنه كان يتنبأ بما صار إليه حالك؟ فها أنت تلفين رأسك بحجاب وتطيلين الأكمام فيعطى نصفك العلوى انطباعا إسلاميا تماما. أما من يتمشى ببصره قليلا إلى نصفك السفلى ويلحظ سروالك الضيق أو تنورتك الجينز ذات الشراشيب والرقع المضافة عمدا، سيدرك ذلك الانقسام الذى يعتريك، وربما قرأ تلك الأحرف اللاتينية التى تجول فى رأسك وتزورك فى أحلامك وتغلبك حتى وأنت تبثين ربك شكرك ونجواك وتوقنين بأنه سيتقبلها منك على طريقتك العفوية الخاصة.

لم يكن الحلم الأمريكي يداعب خيالها، فهى تضرب بجذورها فى هذه الأرض. تحالف كل مدرسى الموسيقى الذين تعاقبوا عليها على أن يجعلوا نغمات وكلمات سيد درويش تتمكن من وجدانها كما يجرى الدم فى العروق. وبحصولها على الشهادة الابتدائية كانت قد حصلت على شهادة فخرية غير مكتوبة "مصرية حتى النخاع – تحفظ عن ظهر قلب "قوم يا مصرى" و"حب الوطن فرض علية" و"يا عزيز عينى"، وتستشيط غضبا إن اخطأ أحدهم فى مذهب أو أصدر نشازا ما.

حتى زمن النكسة الذى أتى على الكثيرين من مثقفى وطنها، حينما يتراءى لها، لا يمثل سوى شريط من الذكريات الجميلة ــ فها هى لا تزال فى الرابعة من عمرها، لا تفهم ما يذاع فى نشرات الأخبار ــ فقط تحفظ الأغنيات الحماسية المسكرة التى تذاع بعدها. تتجول فى حرية هى وأخوها فى شقق جيرانَ عمارة جدتها بعدما انتقلت هى والأسرة كلها إلى حى حدائق القبة الذى يبعد قليلاً عن مصر الجديدة ــ حى المطارات والمرسي الأول لصواريخ العدو إذا ما استهدف القاهرة. وذلك اللون الأزرق الذى يعتم زجاج النوافذ. فإنها كانت تعشقه وكانت تراقب الاختلاف فى الدرجات اللونية من الكحلى إلى الأزرق

الفاتح بين بنايتهم وبنايات المعارف والأصدقاء. حتى بعد انقضاء المعارك ظلت تراقب تقشره على مدار السنوات الست إلى أن اختفى تماماً.

وأسرتها الصغيرة ظلت مرفوعة الرأس فيما يخص الوطن ، لأن أفرادها كانوا يرون النكسة نتيجة منطقية لسياسة عبد الناصر التى لم يتعاطفوا معها منذ البداية.

لماذا إذن تريد الإلقاء بنفسها فى داخل هذا المكان الأعجمى المجهول؟ هل ساهم والدها وخالها فى تكوين ذلك الانطباع غير المحبب عن الجامعات الوطنية؟

❖

تحبين إعطاء كل ذى حق حقه. تصابين بالغثيان من مكالمات المعارف الذين يظهرون فقط على أعتاب امتحانات آخر العام وتمقتين تلك الوريقات المتناثرة بجوار الهاتف والمدون عليها أسماء طلبة غرباء يلتمسون توصيات يحصلون بعدها على الدرجات النهائية فى الاختبارات الشفهية لمجرد إنتمائهم لأحد من معارف والدك أو خالك الأساتذة بالجامعات الوطنية. تضعين نفسك مكان "نزهة" إبنة عايدة الشغالة التى تعمل بالبيوت مع والدتها منذ كانت فى السابعة والتحقت أخيراً بكلية العلوم .. أو "أنور" إبن "عبيد" البواب الذى يظل طوال الليل ساهراً يحاول فك طلاسم المسائل الهندسية المطولة بكليته الصعبة، ثم ترينهم فى ذيل القائمة ينتظرون مع آلاف العاطلين لأنهم ليسوا من أصحاب المعارف العليا والحاصلين على التميز.

التميز هو إذن مربط الفرس والمحرك الأول لحياتك – فها هى والدتك توسعك ضرباً إن تعثرت فى شطر من المحفوظات أو جمعت رقمين بدلاً من ضربهما وتوبخك إن جاء

ترتيبك الثانية وتضربين لتتقى أكثر الفساتين أناقة وتعنفين لتقصى شعرك على أحدث الموضات وتزجرين لأنك ترفضين أن تستعرضى قدراتك على الغناء والتقليد أمام الضيوف وتنهرين لو غالبك النعاس والبيت ممتلئ بالزائرين. أنت مطالبة دائما بأن تكونى الأفضل والأميز. أن تكونى منارا إسما وفعلا. أصبحت كمهر صغير مجبر دوما على الجرى فى سباق للخيول فصرت تجرين وتجرين حتى أدمنت التربع على القمم.

الغريب أن هشام أخاها لم يكن مطالباً بنصف ما هى مطالبة به، ربما لأنه حدد مصيره من البداية – أن يلعب على المراكز المتوسطة. أبدا لم يكن له ترتيب على الفصل فأراح رأسه وأراح الآخرين من ترقب ترتيبه فى الشهادة الشهرية.

"يا بنتى الشاطرين دول مش طبيعيين، بدليل إنهم عازلينهم ف فصل لوحدهم زى المجانين" هكذا كان يغيظها هشام. فى العام الوحيد الذى حصل فيه على الترتيب الخامس أقامت والدتها له حفلا دعت إليه أفراد العائلة والجيران. لكنها أبدا لم ينتبها ذلك الإحساس بالتفرقة الذى يجعلها تنقم على جنسها، فلقد أدخلها أبواها تلك المدرسة المختلطة عمدا لأنهما أراداها "خالية من العقد". وبدورها صارت تتعاطف مع الجنس الآخر لأنهم الأخف ظلا والأكثر جرأة على مشاكسة المدرسين والأقل لزوجة فى التعامل. ورغم سخافات هشام المنزلية فإنه هناك نوعا من الرضا الداخلى لانتماء كل منهما للآخر داخل أسوار المدرسة. فهشام يكبرها بعام واحد لكنها منذ أن كانت فى الصف الثالث الابتدائى وهى تنظر لـ "بتوع سنة رابعة" على أنهم آلهة عملاقة. تزايد هذا الإحساس بفعل الموروث الشعبى للمدرسين الذين كلما تخطوا عتبة الفصل يبدأون فى إلقاء قصائد التمجيد والتحسر على طلبة العام الماضى. وهشام على الرغم من إنه الأكبر، فإنه يستغل علاقتها الحميمة بالمدرسين لتفوقها وشعبيتها العريضة وكثيرا ما

يقدم نفسه على أنه شقيق منار وهبى "اللى جابت أعلى نمرة فى العربى" أو "اللى كانت بترقص الحجالة فى حفلة إمبارح". وحين تم ضبطه وهو يفرق أوراق الكوتشينة فى آخر الفصل أو حين ارتدى بالطو "التدبير" الأبيض وانتحل شخصية طبيب المدرسة بعيادة الدور الأول، لم ينقذه من الفصل سوى استعطافها للوكيلة أن "تلم الموضوع" ولا تصعده إلى ولى الأمر.

أنت إذن تشعرين بقيمتك وتعتزين بأنك أنت، لذا عندما شببت "خالية من العقد" كما أرادا لك. صار صوتك أعلى قليلاً من قريباتك وتتحدثين بمعدل أسرع . ولأنك معجبة بطرائف وطرائق الجنس الآخر فإنك تلقين النكات مثلهم ولا تحبين النميمة والخصام كالبنات. تعشقين الأغنيات الصاخبة وتتعلمين أحدث الخطوات الراقصة لِتتباهي بها فى أعياد ميلاد أصدقائك ولا تشعرين أنك تفعلين شيئا خطأ – لذا صنفتك والدتك بأنك قليلة الأدب، مقارنة ببنات الأقارب والجيران اللاتى لا يُسمع لهن صوت ولا يمزحن مع الصبيان!

كانت تكظم الغيظ لا لنيل الثواب كما تفعل الآن، لكن لأنها لم تكن لتسمح لنفسها بأن تفشى أسرارهن التى تعرفها جيدا. فهذه تواعد ابن الجيران الراسب ويمسك يدها، وتلك تقبل صاحب أخيها، والأخرى تسرق السجائر من صندوق الموسيقى الخشبى الذى على طاولة الصالون. أما أكثرهن أدبا فكانت تلك التى كلما رأتها، دار بينهما الحوار نفسه:

– بتعملوا إيه مع الصبيان فى المدرسة؟

– ولا حاجة.

– "أُمال سمعنا إنهم لقوا ولد وبنت مع بعض فى الحمام فى مدرستكو

– لأ طبعاً مفيش حاجة كدة

ثم تطلق تنهيدة عميقة وتستطرد "يا بختكو معاكو صبيان!"

بدأت تختنقين بتلك المقارنات العبثية وخشيت على نفسك أن تخفضى الصوت وتغضى الطرف مثلهن ثم تلعبين فى الخفاء. لذا أحببت الانتماء إلى مكان لا يتضخم فيه إحساسك بأنك من صنف والآخر من صنف مخيف أو مثير، وحينما تظهرين ما تبطنين ، لا تصنفين كـ "قليلة أدب"!

هل كان لرواية "أنا حرة" والتي اختزلها الفيلم وظلم كثيرا من فصولها دور غير مباشر في انجذابك للجامعة الأمريكية؟

ربما..!

❖❖❖

تقاتل فى جبهتين دفعة واحدة. والدها لا يستسيغ فكرة أن تخوض قطته المدللة معارك المواصلات لتذهب إلى جامعة نائية، هى فى النهاية لا تختلف كثيرا عن كلية الألسن التى ضمنها لها مكتب التنسيق وتقع على مرمى حجر من بيتهم. وهو الذى كان يتصدر الشرفة لحظة أن يسمع رنين جرس المدرسة فيشير لها كشرطى مرور أن تعبر شارعهم الجانبى الهادئ، الذى يفصل بين باب مدرستها وباب دارهم. يتمنى لها قفصا ذهبيا مفروشا بالحرير الأملس، يمسك بمفتاحه الفضى فارس ينعمها ويضمن لها البقاء بجانبه.

جبهتها الثانية هى تلك الأسئلة الغامضة التى ستطرح عليها على مدار أيام أربعة والمسماة باختبار "ميشيجان" والذى عليها المرور منه، حاملة ستة وثمانين درجة مئوية هى مهر دخولها جامعتها/الحلم.

تبعثر أمامها كل كتب اللغة الإنجليزية التى تضمها مكتبتها. تقلب أوراقها فى عشوائية هيستيرية .. لا تدرى علام تحديدا تركز. أين زملاؤها الذين قرروا المضى فى طريقها نفسه؟ لا أحد يرد على هاتفها. تلاشوا تماما!

المنزل خاو إلا منها ومن هشام الذى يغوص فى نوم نهارى ممتد طوال الأجازة الصيفية. عيناها ممتقعتان من أثر دموعها التى كانت تملأ وديانا وتفيض منذ ظهور نتيجة الثانوية العامة، فوالدها بموقفه الرافض لحلمها الأكبر متمسك، رغم أن

قلبه يعتصر ألماً لحالها. يرن جرس البيت. تفاجأ بآدم فى مواجهتها. يناولها استمارة الالتحاق بالجامعة التى لم يتطوع أحد سواه بإحضارها لها.

قلبك يكاد يقفز فرحاً فوقها. لديك حدس بأنها جواز مرورك إلى حلمك. تنتبهين لهيئتك الشاحبة التى ما كنت تحبين أن يشاهدك عليها. تهذبين قصتك وتنفشين جانبى شعرك بسرعة وعصبية.

تحتاج لبضع دقائق لملء الإستمارة وآدم يرفض الدخول. أخته تنتظره فى سيارتها ليذهبا فوراً إلى جروبى لأخذ جدتهما حيث اجتماعها الأسبوعى المقدس بصديقاتها الإنجليزيات.

يغمرك فرح طفولى أبله بأن أخته تمتلك سيارة وهى لا تزال فى الجامعة. ربما عقدت صلة بين دخولك لتلك الجامعة وجلوسك خلف عجلة قيادة. تلقين عليه سؤالاً خارجاً تماماً عن السياق.

– هى لون عربية رانيا إيه؟!

– أزرق .

سيرفض هشام أيضاً أن ينتفض من فراشه خصيصاً ليرجو آدم أن ينتظر بالداخل، فهو يتخذ منه موقفاً لا مبالياً ومستخفاً. لذا تضطر أن تركن الورقة على حائط السلم وتبدأ فى ملء بياناتها على عجل. تكره الحُلة (السالوبيت) الجينز التى يرتديها آدم والتى صدمتها لحظة أن وقعت عليها عيناها. إلا أنها فى غمرة الفرحة بالاستمارة آثرت تأجيل تعليقها. تمرر له انطباعها بأسلوب مغلف لكنه كان قاطعاً وتلغرافياً فى رده:

– تروق لى وأعجبت كل من رأينها!

تعطين دائماً للآخر مساحة لمصادرة أحكامك تحرجاً أو جُبناً أو حرصاً على عدم حفر فجوات. فأنت من أنصار نظرية أن اختلاف الرأى يفسد بعض الود. تبتلعين كلماتك قبل أن تؤدى المسألة إلى مزيد من تباعد لست بحاجة إليه الآن.

كان الغموض قد بدأ يلف رابطتهما بظلال قاتمة، رغم أن آدم قد أفاض لها من فترة بأن ما طرأ على روحه من تغير، يعود إلى كثرة تردد ثروت شريك والدته على البيت، ثم إعلانه أخيراً رغبته بالزواج منها وحينما رفعت حاجبيها متسائلة عن الضرر فى ذلك، باح لها بأن ثروت هو زوج صديقتها الوحيدة الحقيقية "ملك".

فى ألف ليلة وليلة، لعبت شهرزاد دور الراوية .. جعلت شهريار يمسك بأنفاسه انبهاراً بالحدوتة الممتدة أبدا – خوفا على رأسها من سيف "مسرور". أما فى حدوتتك أنت، كنت شهرزاد عصرية تتسع حدقتاك وتبتلعين ريقك إزدهاشا من سلسلة حكايات آدم. وكلما أدرك شهريار الصباح تتوقف الحدوتة عند جزئية صادمة ومثيرة. لكن نظراً لأنك عصرية، فأنت شهرزاد صامتة. ترتدين وجها حياديا على اعتبار أنها أمور يومية عادية. الفرق بين النسخة الأصلية ونسختكما العصرية الممسوخة هو أن الحكاءة قد فازت بعمرها وقلب شهريارها لجمال ما روته. أما هنا فقد أدى تراكم روايات الحاكى وسلبية المستمعة أن يسل "مسرور" سيفه أسرع ويغمده فى صُلب الحدوتة.

كانت قد شردت قليلاً وآدم يقص عليها كيف ترفض والدته هذه الزيجة خاصة وأن "ملك" هى الوحيدة التى استمرت على اتصال يومى بها بعدما اختفت كل الأخريات من حياتها خوفاً على أزواجهن من جميلة مثلها. كما أنها لا تريد أن تصبح مثل صديقتها "دورا" التى أقامت علاقة مع زوج صديقتها "نانسى"، فطلقت "نانسى" زوجها وتزوجت زوج "دورا" للانتقام منها.

"دورا" هى مدرستهما ، هى وآدم ، وبفضل تلك الحدوتة المعقدة التى رواها لها، صارت تفهم سر ازدهار مسز دورا يوم الخميس من كل أسبوع وذهابها لمصفف الشعر وتجدد طلاء أظافرها ودخولها الحصة الأولى تسبقها عبارة The sun is shining today "الشمس ساطعة اليوم"، حتى فى أيام الشتاء القارسة، فهو اليوم الوحيد الذى تتفضل فيه "نانسى" بأن تمنحها زوجها "محمود" لتتركها للحسرة والألم باقى أيام الأسبوع.

ورغم كل تلك المبررات العقلانية، فإن آدم يشعر أن الطوفان قادم لا محالة وسيصير ثروت الرجل الأول فى البيت ومنازعه فى قلب أمه.

قصة مدينتين

الفصل الأخير من رائعة تشارلز ديكنز "قصة مدينتين" هو أول عمل أدبى يستجلب دموعها. كانت ترى تطابقا بينها وبين البطلة "لوسى مانيت" فى علاقتها الشفيفة بوالدها د."مانيت". لكن من جعل دموعها تفضحها حقا وهى تجلس بين زملائها فى منتصف الفصل هو "سيدنى كارتون"، ذلك الشخص الهامشى الفاشل الذى تحقق فقط عندما قرر أن يموت فداء لخطيب حبيبته "لوسى مانيت" لكى تنعم هى بحبها مع آخر. تماما مثلما تبكى بحرقة مع تقلصات وجه نجيب الريحانى كلما عرضت أغنية عاشق الروح وتود أن تضمه بقوة وتمسح على رأسه وتهمس له : "لا تبك. أنا أحبك جدا".

هكذا كنت دائماً، فمن ينزوون فى الأركان يتمتعون بقدرة هائلة على اجتذابك. يلتقطونك مثلما تشد حدوة المغناطيس الإبر المعدنية. إلا إنك يوم وقعت عيناك على "آدم" لم تكونى ذلك الكتف الحنون . كنتِ أنت من تريدين جدارا تستندين إليه حتى وإن كان هشا. تماما مثلما ساند ذلك المنبوذ الخاسر "سيدنى كارتون" حبيبته فى قصة مدينتين. لكنك لم تكونى تعلمين إنك ستتحولين بعد فترة إلى "ليدى ماكبث" فى مسرحية شكسبير، التى استخدمت زوجها لتحقق السطوة ففقدت راحة البال وخسرت كل شىء.

لما قررت الالتحاق بالقسم الأدبى لولعها باللغات والتاريخ وأيضا لقصورها الفطرى عن حل المعضلات الحسابية وعدم انسجامها مع الفيزياء والكيمياء، صفق لها الجميع. والدتها

لأنها تريد لها حياة دراسية وثيرة، لا تقف عائقاً فى سبيل النهاية السعيدة التى تحلم بها لها. ووالدها لأنه لم يكن ليرغب فى أن يطأطئ الرأس على أبواب أساتذة الاختبارات الشفهية فى كليته العملية لتحصل على ما هو ليس من حقها واكتفى بتأدية تلك الخدمة للآخرين متضرراً ولكن كصاحب يد عليا. أما هشام فكان يرغب فى أن يلقى بشباكه على أى من بنات "أدبى".

ليس دائماً ما يتوق العصفور للخروج من القفص خاصة وإن كان الحبس اختيارياً. قفصك هو Class A ولعنة الصحبة الضخمة (الشلة) التى ستظل تلازمك حتى فترات متأخرة من حياتك وربما تمنعك من إقامة علاقات فردية سوية. ظللت حبيسة هذا الوهم الجميل لإحد عشر عاماً والآن عليك أن تدخلى مرغمة أولى دوائر الغربة.

Class A هو فصل المتفوقين – الثمانية والثلاثون طالباً وطالبة أنفسهم من الحضانة وحتى الصف الأول الثانوى. يعيشون حالة خاصة من الألفة والاكتفاء الذاتى والإنعزالية عن باقى تلاميذ الصف نفسه ، الذين يتقلبون عشوائياً كل عام على الفصول الأخرى. و يكونون مجتمعاً عريضاً متعارفاً –يُكنّ بعض الحقد على فصلها Class A وهى يسكنها إحساس شديد بالتعالى المغلف بالخوف تجاههم ؛ التعالى مصدره تقييمها للبشر على أساس درجاتهم العلمية كما أنشأتها والدتها إلا أن هشام كان مستثنى من تلك النظرية ، والخوف لأنه بالنسبة لها عالم خرافى تستغرب أشكال وخلفيات أفراده وستضطر للاندماج معهم فى القسم الأدبى.

لكنها قدراتك المحدودة التى حالت دون التحاقك بالقسم العلمى لتظلى مع رفاق عمرك الذين هم مستنسخات منك. هم وعائلاتهم الصغيرة المترابطة. " أنكل حسين " طبيب كوالدك، " أنكل مصطفى " مهندس كعمك ، أو ضابط أو محام. ليس هناك آباء ينتمون إلى وظائف مبهمة يطلقون عليها مجازاً "رجل

أعمال"، فيما عدا "إيهاب بباوى" الذى كان يسكن فى فيلا ويحضر للمدرسة بسيارة فارهة ويقدم نفسه – يوم التعارف بالمدرسين أول كل عام – بصوت منخفض قائلاً : " والدى رجل أعمال". الأمهات يشبهن والدتك فى الهيئة والسلوكيات فيما عدا والدة "سها الشناوي". كلهن تقدميات إلتزمن بإنجاب طفل أو اثنين على الأكثر، جميعهن أرضعنكم لبناصناعيا واصطحبنكم بشكل منتظم إلى المسارح والمتاحف والسينما. تربطك بعائلاتهم علاقات دفيئة وحميمة ، تعرفين خالاتهم وعماتهم. فأعياد الميلاد أيام مقدسة يحترمها الفصل كله، فيما عدا " سها الشناوي " التى تحضر أعياد ميلاد البنات فقط مع أن كل الأولاد يحضرونها أيضا. مازال صندوق ذكرياتك ممتلئا بكروت الدعوات الملونة والتى حفرت تفاصيلها الصغيرة فى ذاكرتك. تجلسون ككتلة بشرية متماسكة أثناء الفسحة وأهداكم ذكاؤكم إلى نظرية تخفيف العقوبة مع تشتت المسئولية، فصار شغبكم من النوع الجماعى المنظم الذى تفلتون فيه بفعلاتكم مهما كانت فداحتها.

لن تنسى ذلك اليوم الذى أحضر فيه "أشرف" النشوق ووزعه على الفصل كله فى حصة الفيزياء التى لا يستلطفون مدرسها – فتحول الفصل إلى معطسة كبرى، لم يملك حيالها المدرس سوى إيقاف الشرح ظناً منه إنها عدوى الأنفلونزا – وسعدت هى بذلك الفوز الذى نالوه على تعاونهم على الإثم والعدوان. على عكس تلاميذ الفصول الأخرى الذين يفرطون فى كرامتهم حين يعتمدون فى شغبهم على إطالة الألسن والاحتكاك المباشر بالمدرس ، فيشاهدون فى مواقف لا يحسدون عليها على باب الناظرة وخارج الفصول.

لم يساعدها اليوم الأول بثانية أدبى على تغيير فكرتها الجاهزة عن أولئك الزملاء الجدد المفروضين عليها.

مدام "أحلام" مدرسة اللغة الفرنسية تدخل الفصل. تكتب عبارة بسيطة عن أداة الشرط "Si". تشرحها باستفاضة وتمكن تحسد عليهما ثم تطرح سؤالاً تحسبه "مونى" مزحة لتخفيف جو الشرح الجامد "فى حد مش فاهم؟" لم يطرح مثل هذا السؤال أبداً فى Class A. تبتسم مجاملة مدام "أحلام" حيث تجلس فى الصف الأول فى مواجهتها مباشرة، لكن علامات الجدية التى تكسو وجه المعلمة لا تعكس أية نية للممازحة. تستدير "مونى" لتختبر ردود أفعال باقى الطلبة ، المفاجأة هى كم الأيادى المرفوعة طالبة الإعادة. لا تصدق أنها جزء من تلك المسرحية العبثية حيث يستمر شرح جملة مكونة من ست كلمات حتى نهاية الحصة. وعلى الرغم من أنها فى السابق لم تكن تنتبه تماماً لما يقوله المدرس وتستثمر هذا الوقت إما فى الهمس الضاحك مع زميلتها فى الدكة المجاورة أو فى الغياب فى تأملاتها وأحلام يقظتها التى تغير فيها شكل الكون، فإنها كانت تشعر أن الحياة تسير. سينتهى الدرس وينتقلون إلى غيره. ربما كان يداخلها الغرور أحياناً بأنه لا قيمة حقيقية للمدرس لمجرد أنه يحوّل المكتوب إلى مسموع وكانت تغتبط لأنها فازت بتأملاتها أو ضحكاتها ثم استوعبت المكتوب فيما بعد دون معاناة تذكر.

للمدرس إذن دور جوهرى مع تلك النوعية المختلفة من الطلبة.

كنت دائماً تتساءلين ما الذى يجبر المدرس على التعامل والصفح عن أولئك الأولاد العابثين المتطاولين! ليس " أكل الخبز" فقط. إنه ذلك الإحساس بالأهمية وقيمة الذات الذى يمنحونه إياه. تلك الأذرع المرفوعة التى رسّخت مكانك فى دائرة الغربة الجديدة، هى نفسها التى تعين المدرس على مواجهة غربته وإحباطاته الحياتية خارج الفصل.

يعم الهرج والمرج المكان بمجرد انطلاق الجرس. تلمحه من خلف الأجسام المتحركة ذهاباً وإياباً. يجلس وحيداً فى الصف الملاصق للحائط الجانبى. "آدم أحمد سليم".. وافد من مدرسة أخرى. يماثلها فى الغربة. يبدو كقادم من دنيا أخرى غير تلك التى تضمهما الآن. له ملامح ولى عهد دولة أوروبية فى عصر حديث. وجه نحيل – شعر كستنائى مائل للشقرة – عينان عسليتان هدباوان – إلا أنهما تحملان إنكساراً غالباً ما يُلمح فى وجوه أولياء العهد، قد يكون مبعثه وطأة الخنوع للأصول ولوائح المحرمات المعنوية.

تدخل مسز "دورا" والفصل على حالته الهائجة لا يزال. توجه إليه الحوار مباشرة. تهدأ الجلبة تدريجياً لتتبع سر اهتمام المدرسة بذلك الغريب المنزوى. تتطاير كلمات عائلية حميمة يُفهم منها أن والدة آدم كانت زميلة لـ مسز "دورا" وأن لها أصولاً إنجليزية مثلها. كما ذكرت أشياء عن مقهى جروبى مصر الجديدة ولقاء الجدات الإنجليزيات المقدس أيام الأربعاء. إجابات آدم خجلة مقتضبة، كمن لا يريد أن يزيح الغطاء عن جزئية من حياته، لتنتزعه مسز "دورا" بلا مقدمات وعلى مرأى ومسمع من كل الغرباء. ربما تكون حساسية المراهقين الذين يعتبرون أمهاتهم حرمات مقدسة لا يجب المساس بها. ينكمش آدم فى مقعده سانداً كتفه ورأسه إلى الحائط.

ستبدأ الآن مهزلة الشرح الذى سيضيع هباء ليعاد مراراً وتكراراً. إذا لم يكن هؤلاء قد فهموا جملة من ست كلمات فكيف لهم أن يستوعبوا مسرحية "ماكبث" لشكسبير؟

عندما يتلبسك شعور سلبى طاغ تندفع فى ذراعيك وساقيك تيارات صقيعة تستقر فى أطرافك فتحولها إلى كتل ثلجية.

تشبكين ذراعيك وتضمين ساقيك فى وضع جنينى وكأنك تحتضنين نفسك لتتلمسى بعض الدفء. تماما كما تفعلين الآن وأنت تشكلين صورة فى خيالك عما سيصير إليه الحال باقى أيام السنة الدراسية. آدم بجسده النحيل الساكن ونظرته الكسيرة يتخذ الوضع نفسه تقريبا. يتراءى لك "سيدنى كارتون". يستطيع الضعفاء أحيانا أن يحققوا ما لا يقدر عليه أقوى الأقوياء. فمن غيره كان يستطيع أن يرحم "لوسى مانيت" من قسوة الغوغاء وينقذ رقبة حبيبها من نصل المقصلة؟!

❖❖❖

آدم إذن تجرى فىْ عروقه دماء زرقاء. أتراك قد أدمنت اجتذاب الأقليات ذوى الشعور الملساء والعيون الملونة، أم أن فرعونية ملامحك تعمل على تجاذب الأضداد؛ فـ "شادى" زميل دكتك العام الماضى ورفيق الطفولة ،كان الإبن الأكبر لأم سوفيتية وحينما فاجأك أحد الخبثاء بأن شادى معجب بك، هالك الخبر لأنه بالنسبة لك لا يزيد عن شادى الذى شاهدته وهو يبكي فى اليوم الأول لدخوله الحضانة حين فارقته والدته - وحين أتاه ذلك المغص اللعين فى الصف الثانى الابتدائى والذى تسبب فى أن يفقد سيطرته على نفسه لتضطر الدادة إلى تغيير ملابسه السفلية. لكنك بينك وبين نفسك شعرت بالزهو أمام الفصل كله حينما صار أمرا متداولا أن "شادى بيحب منار"، على الرغم من أنه ظل على صمته لأنه لمَ يشهد منك ما يشجعه على البوح.

شادى الآن بعيد يتدفأ وسط الحضن الأكبر - شلة المتفوقين. ترُى هل تعتبرينه أحد مقتنياتك المفقودة وتريدين تعويضا بغنيمة أخرى؟!

جرس طويل عال يفيقها من شرودها. تقف فى مواجهة آدم أثناء هرج ما بين الحصص. تقذفه بسؤال يفاجئه كبداية حوار مع غريبة تماما:

- أصابعك رشيقة. ماذا تعزف؟

يرد فىْ آلية مشدوهة وكأنها كانت تعرف مسبقاً إنه حتماً يعزف على آلة ما ..

- جيتار .

- إمم ... إنت برج إيه؟

- العقرب .

- ياسلام وأنا كمان ... عيد ميلادك يوم إيه؟

- ٢٧ أكتوبر .

السبت الجاي؟! Happy Birthday!

حين ينتهى الحوار يسرح مع دندنة أغنية ليست معروفة لكنها بالصدفة محببة جدا إلى قلبهـــا "The Way We Were" "هكـــذا كنا".

- يابن الإيه! إنت حافظها؟ إبقى اكتب لى كلماتها.

فى الحصة التالية عندما نادى المدرس الاحتياطى علـــى كشف الحضور والغياب كان ثلث الأولاد تقريبا قد بدأوا يستأنفون نشاطهم فى التزويغ، تاركين مقاعد كثيرة شاغرة لتتغير جغرافيـــا الجلوس فى الفصل ، فهم لا يحضرون سوى الحـــصتين الأولـــى والثانية كموظفى الحكومة الذين يحضرون للإمضاء فقط. وحينها قفز آدم إلى جوارها فى الصف الثالث فورا وحتى آخر العـــام . كان المدرس الاحتياطى لا يبالى بما يحدث من جلبة فـــى نهايـــة الفصل. أما هى فقد وضعت حنجرتها فى أذنه هامسة له بأغنيـــة داليدا التى صدرت توا ولم تتح له فرصة سماعها ..

.. قول يا حبيبى إنت سايبنى ورايح فين
أجمل لحن ده هنغنيه إحنا لتنين
يا محلى كلمة بلدى فى غنوة من سطرين
يا ليل يا عين .. يا عين يا ليل

– يا بنت الإيه صوتك حلو.

حرر ذراعيه لينقر لها الإيقاع. فكت ذراعيها لتـــصاحب أناملها النغمات.

منحته ورقة بيضاء ليخط لها كلمات أغنية The way we were "هكذا كنا".

تضيء الذكريات جوانب عقلى
لتستقر فى ركن ذكرياتنا القديمة
صور مبعثرة لبسمات خلفناها وراءنا
بسمات منحناها لبعضنا البعض مكافأة على ما كنا عليه
أيمكن أن تكون نفس الرجل البسيط الذى أقسم أنـــه لـــن يكذب أبدا؟
هل لدينا فرصة أن نعيش القصة مرة أخرى؟
يمكن أن تكون الذكرياتِ جميلة
لكن الألم لا يمكن أيضاً أن يُنسى
لأننا اخترنا أن ننسى
لذا ستكون هذه هى المرة الأخيرة
التى نتذكر فيها كيف كنا.

❖❖❖

جرس الفسحة

يعلن الجرس نهاية الحصة الرابعة وبداية الفسحة

قلبك عصفور يهفو إلى قفصه القديم، يرفرف أمامك بينما تتقافزين بخفة فوق درجات السلم وترغبين بشدة فى أن ترتمى فى قلب الحضن الكبير لتتوسطى مكانك فى شلة Class A فى حلقتكم الضخمة المتعددة الدرجات على سلم الكانتين.

تسبق كلماتها تفكيرها. لا تمنح أحداً فرصة للحكى. تسكب كل ما لديها .. مدام أحلام التى شرحت ست كلمات مرات ثلاثاً، مسز "دورا" هى المدرسة نفسها "اللى كانت بتديهم English فى سنة خامسة"، شريف الراوى الذى يتزعم شلة التزويغ ليترك ربع الدكك فارغة بعد الحصة الثانية مباشرة .. وكم تفتقد مرح ودفء شلة الأنس. تسحب "ندى عادل" خيط الحكى منها وتبدأ فى سرد الفتوحات المغوارة لأخيها نديم على الرغم من أنه فى "مدرسة عربى" إلا أن عبقريته غير المسبوقة ستجعل منه عالماً له صيت. هكذا تقول ندى عادل عن أخيها الذى يتصدر كل أحاديثها.

رغم السأم الذى يصيبك كلما سمعت تلك الأحاديث المكرورة عن شقيق ندى عادل فإنك تتمنين فى أعماق نفسك لو كان لك حديث مشابه عن هشام، الذى دائما ما ترسمين له فى خيالك صوراً غير التى هو عليها. هل توجد فى علم النفس عقدة تسمى عقدة هشام على غرار عقدة أوديب وعقدة إلكترا ؟!

جرس نهاية الفسحة كجرس " سكة حديد " ، مـــا يكـــاد القطار يلتقط أنفاسه من رحلة شاقة ليرتاح قليلاً فى المحطة حتى يرغمه الجرس على أن يستأنف رحلته ولعبته فى تبـــادل الألفـــة والغربة..

كان يمكنك أن تخترقى ندى عادل وتذكرى ولو كلمة عن آدم .. هل نسيته أم تناسيته؟!

❖❖❖

ماكبث

الخميس ٢٥ أكتوبر والسبت ٢٧ أكتوبر يفصل بينهما يوم أوحد، لكن التناقض بينهما كالفرق بين يوم ربيعي تغمره شمس دافئة ويعطره أريج الريحان والياسمين، وبين يوم ربيعي أيضا في الأسبوع نفسه لكنه محمل بأتربة خماسينية عاصفة، تلهب العيون وتملأ الحلقوم جفافا ومرارة.

تتخطى مسز دورا عتبة الفصل بعد عبارتها المتفائلة التي تخص بها الخميس السعيد The sun is shining today (الشمس ساطعة اليوم)، فهو اليوم الذي تمنحها فيه صديقتها نانسي البركات بالتنازل لها عن زوجهما .. السر الذي سيظل مخبأ لتحاصرها العيون الحاسدة على رغد عيشها وقضائها عطلة نهاية الأسبوع بين ربوع عزبة ذات قصر وحمام للسباحة. لو كان الزوج المشترك مجردا من أرصدته المتضخمة أكان ليصبح محلا للنزاع بين الاثنتين بكل تلك الضراوة؟ أم أن اللعبة لكي تكون مثيرة لابد لها من شخصين أو ثلاثة؟ مسز دورا بدورها تمثل خيطا في نسيج لعبتها الثلاثية الخاصة نانسي/محمود/دورا. كانت اللعب رباعية في البداية حين كان زوج نانسي مشتركا في اللعبة وبإنسحابه تبقى مقعدان لثلاثة لاعبين لذا ظل الصراع محتدما.

مسز دورا الآن ليست واحدة كما تبدو للناظرين. تحمل بداخلها نانسي ومحمود يحركانها ويمنحانها الطاقة أو يجردانها منها وفقا للأحوال. نانسي إذن تسكنها، تشتبك معها في خيط واحد وإن بدا لهما إنهما متنافرتان. ربما تكون نانسي في نفس الآونة

فى مكان بعيد تمضغ كآبتها لأن دورا تلازمها وتتحكم فى خلجاتها كتوأم مؤثر، بينما "دورا" الآن تتوسط الفصل وتؤدى مهمتها الوظيفية فى حب ينعكس على العيون المتعلقة بها.

الطاقة المشعة بهجة على خلجات مسز دورا تحولها فى ثوان إلى شعلة ذات حضور مسرحى، تشرح بتفنن أحداث مسرحية ماكبث وتفتت اللغة الشكسبيرية المعقدة إلى مفردات يومية سهلة الهضم. توزع الأدوار الرئيسية على منار وآدم. تندمج منار فى أداء "ليدى ماكبث"، مستعيدة مهاراتها القديمة فى أداء اللعبة، فضلاً عن المهارات المكتسبة فى إخراج الكلمات بلكنة متميزة لإحداث تأثير مبهر على آدم. أما آدم فكان يؤدى لعبته فى تلقائية عجيبة حتى إنك لتجد صعوبة فى أن تفصل بين آدم و"لورد ماكبث" الذى دخل هو وزوجته متاهة الأحلام المستحيلة.

لم تكن مسز دورا تعلم إنها بذلك قد سلمتكما مفتاح متاهتكما الخاصة. ستدخلان فى ممرات ملتوية رفيعة بهدف الوصول لنقطة النهاية. للعبة الثنائية مذاق مختلف، سوف تتلذذان بحلاوته حتى أن الدويتو لن يتوقف عند لورد وليدى ماكبث بأدائهما المسرحى التراجيدي. فى لحظات أخرى سيكون الدويتو غنائيا حالما أو راقصا مرحا أو حتى تمثيليا متقنا بين ولد وبنت يحملان اسمى آدم ومنار، لكن الدوران داخل المتاهة سيكون قد أنهكهما الى الدرجة التى تتلاشى معها الحقائق فى عالم المتاهة المتخيل.

❖❖❖

العيش والملح

يختلط رنين الجرس بصوت " مشيرة أسعد " فى نهاية الفصل، معلنة دعوة الفصل كله إلى حلة فول اسكندرانى وأرغفة خبز بلدى دافئة ورؤوس بصل أخضر يانعة. الحصة التالية هى حصة الدين التى لم يجدوا لها مدرساً بعد، فتستثمر فى أنشطة حميمة أو أمور ترفيهية تلطف اليوم.

غلالة القداسة التى يحيط بها المصرى رغيف خبزه أو عيشه تجعله يرمز به لدافعه للحياة. يقولون إنه عند إعداد الخبز يضعون فى العجينة قليلاً من الملح حتى أن من يأكله "يطمر فيه العيش والملح " . " مشيرة أسعد " شخصية منطلقة، تحتضن الحياة بكل ما أوتيت من إمكانيات، جسدية أنثوية أو روحانية مرحة. تسبق طبيعة جمالها سنوات عمرها. تحدد عينيها الخضراوين بشريط رفيع من الكحل الذى يعزف وشعرها الفاحم سيمفونية جاذبية. ومع كل ما تيسر لها من مفاتن، تدخل فى لعبة ثلاثية مع " مشيرة طارق " .. صديقتها اللدودة التى تجلس على دكة مجاورة لها، يتوسطهما الطاووس الجميل رياض عبد العزيز.

مشيرة طارق من ذلك النوع الذى تحكم عليه من النظرة الأولى إنه أمضى مرحلة كبيرة من حياته خارج البلاد. رقيقة القد، شعر كستنائى فاتح ذو قصة فرنسية كلاسيكية .. صوت منخفض ذو لكنة فى نطق العربية وبراعة مفرطة فى المعرفة بمخابئ اللغة الإنجليزية. تلتف أصابعها دائماً حول رواية سميكة من الأدب الإنجليزى تحيطها بهالة من الترفع. نقيضتان تجتمعان

على قلب رجل واحد .. هو بالمفهوم السائد لا يستحق مشاعر هذه أو تلك. بالغ الوسامة حقاً، لكنه من ذلك النوع الذى يقضى حياته فى العصيان. غزال شارد خارج البيت وخارج الفصل. يقضى نهاراته المدرسية فى ملاعب الكرة. قد يحصل بعد ذلك على بطولات لكن لفائف الجبس دائماً تحاصر إما ذراعه أو قدمه أو ساقه .. الأمر الذى ربما يزيده جاذبية فى عينيهما وتتبارى كل منهما فى نقش أكبر عدد من التوقيعات والقلوب وكلمات الغزل على مساحات الجبس البيضاء.

المشيرتان ورياض نسخة طبق الأصل من ثلاثية دورا/محمود/نانسى مع الفارق فى الأعمار والخلفيات.

مشدوهة منار جداً بتلك اللعبات الثلاثية التى لم تشهد مثلها على مدار سنوات عمرها الست عشرة. فقد ظلت على اعتقادها بأن اللعبة إما أن تكون جماعية متشعبة أو ثنائية حميمة، وحين تنفتح لها تلك النافذة تشهد ذلك النوع الغريب عليها مرة واحدة وبالعشرات.

على غير المألوف ، الفصل اليوم كامل العدد، وإن كان التكتل بالخلف حول مشيرة أسعد وهى تعد ساندوتشات الفول ولا تلاحق على المتكالبين عليها.

تُرى هل تدرى أى من مشيرة أسعد أو مشيرة طارق بنظرية العيش والملح فتلتهمان الخبز سوياً حتى (يطمر) فى إحداهما العيش والملح وتنسحب من حلبة الصراع على رياض؟ ينضم للتجمع تامر شركس من الفصل المجاور. يُشاهد فى أحيان كثيرة بصحبة شريف الراوى الذى يتزعم شلة التزويغ.

تُوليفة صداقة غير متكافئة تشبه تماماً صداقة مشيرة أسعد بمشيرة طارق. شريف الراوى يمثل بناء جسدياً صلباً

وحنجرة رخيمة تسبقه أينما كان. فى الأوقات القليلة التى يقضيها بالفصل يكون دائم المعارضة. يرفع إصبعاً فى وجه المعلم ولهجته خطابية درامية، إلا أنه فى ساعات الفسحة يشاهد وحوله تجمع ليس بالقليل من زملاء النصف الأخير من الفصل يبثهم كلمات بصوت خفيض فلا يسمع لأى منهم صوت. وفى أحيان أخرى يعيد على مسامعهم خطبة السادات التى أذيعت فى اليوم السابق بالكلمات نفسها والأداء نفسه، فيلفه تصفيق حاد وينخرطون فى نوبات قهقهة مسموعة. لم يدفع حب الاستطلاع منار إلى التقرب إلى تلك النشاطات المثيرة لشريف الراوى. فمنذ أن لمحت بين أصابعه تلك الكريات البنية الدقيقة وقيل لها إنها حشيش وهى ترهبه وتنظر له نظرة فوقية فى آن. لذا لم تحاول أن تمد أية جسور توصلها بذلك التجمع الذى يعقده بالفسحة والذى يتزايد مريدوه يوما بعد يوم.

الغريب فى الأمر هو ذلك الحمل الوديع تامر شركس الذى يحرص على مرافقته ويأتيه خصيصاً من الفصل المجاور. مثله مثل " مشيرة طارق " ، قضى فترة من حياته فى بريطانيا فيخيل إليك إنه ليخرج الكلمات بإنجليزية رفيعة حتى وإن لم ينبس ببنت شفة. وعلى الرغم من هدوئه الداخلى فإن ملامحه تأمرك بأن تحفرها فى ذاكرتك. عينان وسيعتان جاحظتان قليلاً. أنف صريح ، فم تملؤه الأسنان وكأنه يمتلك عددا من الأسنان أكثر من غيره من البشر إلا أنها مكسوة باصفرار وغلالة رقيقة من عدم العناية. من يرونه عن بعد يلمحون فى ابتسامته سحراً غامضاً ومن يدنون منه يصرخون بدم بارد "إمشى .. ريحتك وحشة يا شركس".

هكذا كانت تلتقط منار بعض المشاهد دون أدنى نية فى المشاركة فى الأحداث.

"تامر شركس" يحاول أن يشق لجسده طريقاً وسط الأجساد المتهافتة على لقيمات الفول. يرتطم كتفه بكتف منار. يقولان فى الآونة نفسها sorry. يمنحها بسمة معتذرة ترشق سهما خفيا من الشفقة فى قلبها.

تمتد لها يد من بين الأجسام خلفها بنصف رغيف تسبقه نكهة الفول الإسكندرانى بخلطته السحرية والتى يتعرف عليها لسانها للمرة الأولى. تتقاسمه مع آدم ليسرى فجأة مفعول العيش والملح. يستحيل المكان كتلة واحدة متجانسة. صار الفصل معبأ برائحة البصل الخانقة إلا أنها ضوعت النفوس بعطر ألفة جديدة. أنه سر تلك الذرات القليلة من الملح التى توضع فى العجين فتحيل الرغيف إلى وثيقة محبة وتآخ لها سطوة محو غربة منار وتمزيق ستر الرهبة من هذا العالم الذى خطت نحوه غير مخيرة.

❖❖❖

الأخوة كرامازوف

لها ذاكرة فوتوغرافية تتيح لها التقاط الأرقام التى لها أبعاد إنسانية فقط .. كتواريخ الميلاد وأرقام الهواتف والذكرى الأولى للقاء شخص له قيمة معنوية أو نهاية مرحلة مفرحة أو موجعة. ربما يمثل احتفاظها بتلك الأرقام تعويضاً عن خيباتها فى التعامل معها على المستوى العلمى، الذى يتخذ أشكالاً جامدة تتعرى من نكهة ومذاق التجارب الإنسانية الحميمة.

السبت ٢٧ أكتوبر – تاريخ نقشته أعلى رأسها واستعدت له معنوياً لتبدأ به أول أيام أسبوع كرامازوف. تفترض مسبقاً إنه سيكون مبهجاً ربيعياً مثل خميس "العيش والملح" الذى سبقه بيوم واحد.

Happy birthday to you تستهل بها الحصة الأولى فى اللحظات الضائعة التى تسبق الشرح. تلقيها همساً ... ناعمة منغمة فى أذن آدم. تتوقع امتناناً على تذكرها لعيده. لا استجابة ووجه قاتم.

– مش النهاردة عيد ميلادك يا بنى؟

– لأ .

– إنت قلت لى إنه ٢٧ أكتوبر !

– لأ ٣٠ .

يصفعك جفافه فتبتلعين حنقك. موهبتك فى طبع الأرقام الحميمة لا تخطئك أبدا. جهاز تسجيل مجرب وعالى الجودة. لك لسان صاخب مشاغب ممتد بطول قامتك لحظات الهزل فقط – أما حين تحتاجينه لدفع مظلمة عن نفسك، يتخلى عنك تماما ويهرب إلى حيث لا تعلمين فيصيبك خرس مقيت.

يجلسان متجاورين فى الصف الثالث على الحافة التى تفصل نصف الفصل الأمامى الجاد عن النصف الخلفى اللامبالى.

حباها الله بموهبة التركيز فى موضوعين لا تربطهما صلة فى الآونة نفسها. لذا تبدأ فى تسجيل ما تمليه المدرسة فى دفترها، بينما تلتقط أذناها ما يباهى به رياض عبد العزيز (طاووس المشيرتين) زميله علاء شاكر (الذاهل) ويبثه إياه على هيئة نصيحة: " يا بنى ما تبقاش عبيط. إعمل زيىّ. لو عايز فلوس روح لأمك قول لها أبويا ما بييدنيش فلوس. مراته منعاه. وبعدين روح لأبوك إتمسكن له وقول له أمى مارضيتش تدينى فلوس. بتقول مرتبها على قد عيالها من جوزها التانى. إكسب كل واحد فى صفك. إوعى تدافع عن واحد فيهم قدام التانى. هتلاقى الاتنين عايزين يرضوك وتطلع إنت الكسبان".

يطلق علاء شاكر العنان لنظرته الطويلة الشاردة والتى تظل معه طوال الدرس وتلازمه أثناء الفسحة وحتى وهو يتوسط الشلة الصاخبة التى يتزعمها شريف الراوى. حدوتتان كسبتهما دفعة واحدة إلا أن كلمات رياض بقدر ما تحمل من "فهلوة" وحذق بقدر ما تملؤها بالدهشة من ذلك التناول النفعى المخيف لوضع يبعث على المرارة والألم. أما الأهم إنها تمنحها تفسيراً مجانياً لمعضلة تشبث المشيرتين برياض فى لعبتهما الثلاثية. رياض إذن لاعب ترابيز حاذق – يتقافز على كل الحبال بمهارة فائقة. يقنع كل طرف بأنه ملكية خاصة له لذا يتمسكون به بقوة حرصاً على عدم فقده، فلا يختل توازنه أو تنزلق قدمه.

أما علاء شاكر (الذاهل) فهو مجرد أحد المشاهدين الذين يتشبثون بمقاعدهم بأنفاس لاهثة. يكتفون فقط بالتفرج على لاعبى الترابيز قانعين بأنهم لن يتمكنوا أبداً من إنجاز نفس البطولة، برغم امتلاكهم لأصابع عشرة تجيد الالتفاف حول الحبال، وسيقان قوية لكنها لا تستطيع سوى التشبث بالأرض التى تطؤها.

ستشاهد منار ذات يوم علاء (الذاهل) يتناول الكريات البنية الدقيقة. لكنها لسبب خفى لن تملك سوى أن يلين له قلبها – بعكس شريف الراوى الذى لاذت بفرار أبدى من مجاله حين شاهدت بين أصابعه نفس الكريات.

حين يضيق الخناق عليك فى لعبتك الخاصة ولا تجدين مخرجا، تلوذين بالتفرج على لعبات الآخرين. لذا انتشلتك لعبتا (الطاووس والذاهل) من برود آدم وإحباطه لك بإنكاره لتاريخ مولده الذى صرح لك به فى اللحظات الأولى لتعارفكما.

إلا إنه يتحتم علينا أن نعود لحلباتنا لكى ننتهى من الجولات سواء شئنا أم أبينا. لعبتك وآدم تتخذ منحنى لم تخططى له .. ها هو يجاورك كسابق عهده لكنه ينتهج سلوكاً مختلفا .. ينكر ما صرح لك به. يكتسى بوجوم ظاهر وإذا التفت إليه الآن ستجدين عضلات وجهه فى حالة تقلص مشرب باحمرار اللحظة التى تسبق البكاء.

يشاركها آدم خاصية التركيز فى موضوعين مختلفين فى آن واحد، فيبدو إنه قد انخرط ذهنياً فى حكاية أخرى غير تدوين ملاحظات مسز "تور العيون" فى هامش قصة وا إسلاماه.

الأصل فى اللعب هو المناورة. التحايل على الواقعى للوصول إلى المشتهى لذا برغم أنك تأخذين المبادرة فى الظاهر،

فإنها مبادءة زائفة تنفصل تماماً عن الحدث الأصلى. لِمَ لا تسألينه عن سر تحوله المفاجئ ؟!

تمدين الجسر الخطأ للحوار.

– سمعت اللى قاله رياض لعلاء؟ ده كان صوته عالى قوى!

يطأطئ رأسه .

– مالك؟ صعبان عليك علاء؟

بنظرة عاتبة وبنبرة مختنقة يباغتها ..

– ممكن تبطلى استهزاء بيه؟ أنا عارف إنك عارفة!

– عارفة إيه ؟!!

كذبيحة طازجة ينفجر من عنقها نافورة دماء، تسيل أنهار الدموع من مقلتى آدم لتغطى وجهه بالكامل وتستلفت انتباه المحيطين. يستجلب الحدث همهمات خبيثة من أركان الفصل. إلحقوا .. الولد الجديد بيعيّط!

آدم بعيط .. بصوا آدم بيعيط !

فى أوج تلك الحالة العبثية تفاجئ بهشام يناولها مفتاح الشقة لأنه ذاهب بعد المدرسة لابتياع بعض الحاجات مع أمه. يحملق فى ذهول فى آدم الباكى ويضطر للانسحاب السريع حين تدخل مسز ناهد مدرسة الفلسفة. له معها حكاية قديمة تلزمه بالاختفاء من ناظريها كلما تورط بالتواجد حيث تكون. الحالة الراهنة لم تسنح للبنات بتفحص أناقتها وتسريحة شعرها أو للأولاد بتنسم عطرها الباريسى الذى يغمر هواء الفصل. بحنكة دارسة لعلم نفس المراهقة وخبرة امرأة حساسة تأمرهم سريعاً بأن

يخرجوا ورقة وقلماً وأن يخطوا عليها أسماءهم حيث سيبتلون فوراً بامتحان مفاجئ. يعود الجميع إلى مقاعدهم ولكل شأن يغنيه.

مع إعلان الجرس لنهاية الحصة والتقاط الأنفاس بعد سكب معلومات منقوصة عن المقارنة بين فلسفة "بيكون" و"ديكارت"، يظهر ثانية جزء من جسد هشام فى مواجهة باب الفصل يجاوره حفنة من أصدقائه وصديقاته. تتحرك رؤوسهم يميناً ويساراً للحصول على رؤية أفضل من الفتحة الصغيرة المنفرجة من الباب على ذلك الكائن الغريب الذى بكى. تلتقط مونى بعضاً من همهماتهم:

- هو ده الولد اللى عيّط؟

- آه اللى قاعد جنب مونى.

تنحبس ضحكات وتشير أصابع مع تردد الكلمات نفسها: الولد اللى عيّط .. الولد اللى عيّط.

العيون المحملقة والبسمات المضغوطة والأصابع القاسية تصيب منار بدوار الخجل. يتضاءل آدم حتى يكاد أن يتلاشى بداخل المقعد. تستدعيه مسز ناهد وتتخذ معه ركنا خارج الفصل واضعة ذراعها حول كتفه وتدخل معه فى حوار هامس.

ما أقساك يا هشام. ما تمنيت أبداً أخاً بمواصفاتك. أفسدك تدليل أمك فصرت عابثاً لا مبالياً بالمشاعر المرهفة مستهينا بالتفاصيل الصغيرة التى تصنع أفكاراً كبيرة. ألمح أحيانا إحباط أبيك تجاهك لأنك لم تأخذ عنه سوى بياض بشرته وشعره الناعم الفاحم. قشرة خارجية فقط. يُسّكن أبوك آلام خيبته فى جعلك نسخة منه بأنه من الرجال الذين خلقوا ليهدهدوا ذريتهم من البنات فقط .. لينعموا معهن فى عيشة وثيرة وتربية مرنة تكفل لهم جنتى الدنيا والآخرة. ولأنه لم يخلق ليكون أبا لولد، فقد ألقى عن

عاتقه عناء التقرب إلى ميولك التى يستغربها، تاركك لأمك متعللاً بشدة إنشغاله فى أبحاثه العلمية التى تستحوذ عليه معظم ساعات اليوم وفى الدقائق القليلة المتبقية يحتوينى فى حضنه كعصفور صغير يتلمس الدفء فى ريشات أمه. يبثنى مشاعره وحصيلة خبراته دون الاحتياج إلى نصح مباشر أو ضياح ... فقط مفعول العاطفة التى تلزم الحبيب بأن يقول سمعا وطاعة.

لهشام إيجابياته أيضاً فهو ليس بالأخ الشرير الذى يفرض حمايته مثل شقيق ماجدة فى فيلم المراهقات، بل يتمتع بعقلية متفتحة لا تضع فواصل بين ذكر وأنثى نظراً لتربيته الأجنبية المختلطة. له أيضا بطولاته التى ينال عنها شهادات التقدير لكنها للأسف جسمانية عنيفة لا تمثل لمونى أى شىء برغم التهليل والهتاف باسمه الذى يغمر الملاعب حين يحرز أهدافاً على فريق مدرسة زائرة أو فى دورى النوادى.

كم تمنيت لو داعبت أنامله أوتار جيتار أو لامست أصابع بيانو وصاحبته بالغناء .. لو رسم لوحة لطائر ضعيف يحاول التحليق فى الفضاء .. لو كان عبد الحليم حافظ بقده المرهف وأوجاعه الرقيقة ومشاعره الفياضة ..

على مَدار سنوات عمرك ستظلين تنقبين عن هذا النموذج المشتهى للأخ الوديع الحالم. أيضا سيفتش عنه والدك بين طلبته ذوى الميول الفنية الراقية. سينجذبون إليه كصورة لأستاذ الجامعة النموذجى دون أن يدركوا أنه يستخدمهم كعوض عن إحساس منقوص بالأبوة ..

تحل مسز ناهد ذراعها من حول كتفى آدم وينتهى حديثهما الهامس. تتظاهر مونى بعدم ملاحظتها لما بدر من هشام ورفاقه. تتخذ مسز ناهد مثلا وتسلك خطاً مستقيماً هذه المرة..

– آدم .. كنت بتقوللى أنا عارفة إيه ؟

– إن بابا مش عايش معانا .

– والله ما فاهمة حاجة!

– ما تعمليش نفسك مش عارفة .. إنتى كنتى قاصدة!

ينخرط المرء أحياناً فى سلوك مستضعف يتحول بعد لحظات إلى عدوانية غير مبررة ومالم يستفق منها تصير صفة أصيلة فيه تنضح سُمّاً على المحيطين..

– آدم .. عايز تصدق صدق .. مش عايز إنت حر .. أنا مش كدابة.

يُخرس تصميم منار عناد آدم وفى منتصف الموقف المتصاعد ترتفع صرخة خشنة متقطعة من خارج الفصل لتحول اللحظة إلى مسرح لا معقول.

تامر شركس (الحمل الوديع) صديق شريف الراوى يقطع الممر المقابل جرياً كمكوك مخمور ويزأر كأسد جائع يلتهب وجهه وتحجب الدموع عينيه الجاحظتين ثم يبدأ جسده فى التيبس ككتلة خشبية فيما عدا كفيه اللتين تبدآن فى الارتعاش. ومثل شجرة تذبح من جذورها وتسقط دفعة واحدة يميل الجسد المتيبس ثم ينبطح أرضاً. تسرى عدوى الارتعاش من كفيه إلى بقية جسده فتحيله إلى شحنة مكهربة ترتج كل بوصة منها.

يسيل اللعاب اللزج من طرف فمه ثم يغرق سرواله بالكامل وسط هياج طلبة جميع الفصول المجاورة.

تتحول مسز ناهد إلى قطة شرسة تدفع عدواناً عن وليدها. بكلتا يديها تدفع الأجساد المتكالبة حول الجسد الهامد ثم تلكز أحدهم بعنف فى كتفه:

– "أكيد إنت اللى قلت له ريحتك وحشة تانى .. بُكرة تجيب لى ولى أمرك !!"

– والله كنت بهزر معاه يا ميس!

كان أداء تامر شركس محاكاة دقيقة للابن العصابى فى رائعة دستويفسكى الإخوة كرامازوف – الإخوة الأعداء فى النسخة المصرية. الآن فقط تدرك كم كان يستحق محيى إسماعيل جائزة أعظم من الأوسكار عن أدائه المبهر لنوبات الصرع.

تتعالى المهاترات الكلامية حول حالة تامر شركس ليضيع نصف الحصة التالية فى جميع الفصول المجاورة.حول مسز ناهد تلتف حفنة من المدرسات. تترامى إلى مسمع منار بضع كلمات تفسر الموقف الرهيب الذى حدث منذ برهة. ستعرف أن والديه كانا يعملان مدرسين للغة الإنجليزية بنفس المدرسة قبل حصولهما على منحة لنيل الدكتوراه من إنجلترا. والده كان من الذين يملكون زمام أوقاتهم فيعطى منه نصيباً وافراً لنزواته النسائية وتعطى والدته حظاً أوفر من وقتها فى تتبع خطواته واقتفاء أثره لوأد النزوة قبل أن تصير واقعاً لا سبيل للفرار منه. أثناء إحدى تلك المطاردات داهمت تامر نوبة رفعت درجة حرارته إلى ما فوق الأربعين وكانت القائمة على رعايته مربيته الريفية الساذجة. زحفت الحرارة إلى مركز حساس بالدماغ وأحدثت تلك البؤرة الصرعية.

إذن والد تامر شركس "كرامازوف آخر .. أو "قرمانى" فى نسخة الفيلم المصرى .. الأب الطاغية المنخرط فى نزواته

النسائية. إلا إنه يحمل عقلاً عبقرياً فذا هو ووالدته، فهما يُدّرسان الآن الأدب الإنجليزى المقارن فى جامعة عريقة. ترى هل يمكن أن يكون تامر شركس قد ورث جزءا من تلك العبقرية عنهما رغم درجاته الضعيفة؟! فى الأخوة كرامازوف اعتمدت الحبكة على الخطة الذكية لِلإبن العُصابى الذى كانوا يرمونه بالأبله (إبن عزيزة الهبلة) تماما كما يمازح الخبثاء تامر بقولهم "ريحتك وحشة يا شركس". فى نادى السينما قال الناقد الفنى: أربعة مظاهر تتميز بها الشخصية الفذة لدستويفسكى وهى إنه فنان مبدع وعصابى وأخلاقى وخاطئ. ترى هل تامر فنان مبدع أم أخلاقى أم خاطئ؟!

منار وهبى .. الأمر لا يحتمل مناقشة شخصيات دستويفسكى الآن .. منذ برهات كنت ترتعدين من مشهد مرعب. امتلأت منه رهبة حتى كادت كهرباء جسد "شركس" تنتقل إلى أطرافك.

وحينما بدأ البلل يزحف على سرواله، امتص قلبك ماءه فاستحال قطعة إسفنجية غارقة فى الألم. واجهى حزنك من أجله .. أبذلى له شيئا ..

أكملى حوارك المبتور مع آدم الذى تعتريه نفس دهشتك وصمتك والذى وصمه شقيقك منذ قليل بعار "الولد اللى عيّط" والذى تعلمين جيدا إنه سيصير عاهة تلازمه فى أرجاء مدرسة كمدرستك بعدما سيتولى أخوك نشرها ..

حالته الكلامية لا تسمح بمزيد من الاحتدام مع إنه لو أمعن النظر بعيون قلبه لوجد معظم المحيطين أخوة له من أبناء كرامازوف .. أبرزهم تامر شركس الذى يحتمى بنوباته الصرعية ثم رياض عبد العزيز ولعبة الرقص على الحبال وعلاء شاكر الذى يدفن واقعه فى عالمه الوهمى الذى يصنعه بمساعدة الكريات

البنية الصغيرة .. ولابد أن هناك حكايا كثيرة مجهولة خلف كل دكة تجاورك. ترى ما هو مهربك أنت يا آدم. أهى دموعك التى تتغلب عليك وميوعتك اللافتة التى تجلب لك العار لتنتقم بها من نفسك قبل انتقامك من الآخرين ؟!

يعلو جرس الفسحة ليسكت ضجيج الأفكار وبينما تتدرج منار على السلم فى تؤدة تعتزم أن تزرع وردة يانعة فى قلب آدم تضىء بها حُلكة يومه. ستتوجه فور نزولها إلى الكانتين لتبتاع له قطعة شوكولاته وتهديها إليه حيث ينكمش وحيداً فى زاوية منسية من الحُوْش .

إستراحة قصيرة

النسمات الأكتوبرية الطازجة والدفء المنبعث من شمس مستقرة فى أفق مفتوح، والمرح بأرجاء الفناء كان كفيلاً بأن يقنع أى عاقل بأن ما حدث منذ قليل لم يكن سوى مشهد كابوسى جدير بأن يتحسس بعده المرء موضع قلبه ويهمس لنفسه "خير اللهم اجعله خير".

تتعطش "مونى" لتناول جرعات زائدة من ذرات الأكسجين والتلفح بخيوط الشمس لتتأكد من أنها فى عالم الأيقاظ لا تزال. شلة Class A تحتل موقعها الدائرى الدائم على سلم الكانتين. الجميع يمسكون بزجاجات البيبسى وكأنهم يحتسون نخباً، هكذا تجدهم طوال الوقت .. يمارسون طقساً ما .. جماعياً فى الغالب .. مثل الاحتفال بفوز كريستين عدلى فى مسابقة الجمال بالنادى أو التمرين على رقصة Mabaker الجماعية تحت المطر أو تلاصق الرؤوس ثم حدوث انفجار ضاحك عقب دعابة صارخة ..

ورغم درجاتهم التى تكاد تلامس الحد الأقصى للكمال، فإنك لا تلمحهم برفقة كتب دراسية أو فى نقاش حول أمور تعليمية أبداً خارج جدران الفصل ..

زجاجات البيبسى اليوم على نفقة " مى ضياء الدين "، ابتهاجاً بترقية والدها من رئيس جامعة إلى وزير . بكامل مصروفها تبتاع مونى أكبر قطعة شكولاته كبدل إحباط لآدم. مثل صقر محنك ومدرب على الخطف يلتقط الشكولاته وائل حسين.

فى كسر من الثانية يفضها من غلافها المفضض ويمسح على كل جوانبها بلسانه حتى يقطع على "مونى" أية فرصة لمحاولة استردادها. إحدى دعابات الشلة المتداولة والتى يكتفى فيها الضحية بالضحك مع الجانى ثم يسبه "يا غلس!"

اتفاق جانبى يتعالى تدريجياً حتى يصير صخباً بين كريستين عدلى ومى ضياء الدين عمن ستقيم حفل عيد ميلادها يوم الخميس ومن ستقيمه الجمعة. ولدا فى اليوم نفسه وتضحى إحداهما مرة كل عامين بتأجيل حفلها لليوم التالى حتى يتسنى لكل أفراد الشلة حضور الحفلين.-

"مونى .. عايزك" . يقول إيهاب ميلاد

ثم يستطرد: "هشوف "تدين" بكرة فى الكنيسة. أحط Drakkar ولا Pino Sylvester!

- عارفة إنك بتموت فى ريحة Pino، بس حُط Drakkar أحلى.

- طب عندك إزازة صغيرة فاضية من بتوع العينات عشان آخذ فيها البارفان بدل ما شيل الإزازة بحالها؟

- آه عندى .. لو نزل هشام بالليل هخليه يعديها عليك. (يقطن إيهاب على بعد بنايتين من دارهم).

- هتروحى عيد ميلاد مى ضياء ولا كريستين عدلى؟ تقول سها الشناوى.

- "الاتنين". ترد مونى. "وإنتى؟"

- إنتى فاكرة بابا ممكن يوافق يودينى عيد ميلاد كريستين ف نادى وفيه صبيان وفيه رقص؟

- طب ما عيد ميلاد مى ضياء فيه نفس الصبيان وفيه رقص.

- آه بس بابا ميعرفش .. فاكره بنات بس!

يلعق وائل حسين أصابعه فى تلذذ صـــائحاً: الـــشكولاته كانت حلوة أوى يا مونى .. والنبى تجيبى لى منها تانى بُكرة!

وسط هراء وائل يفيقها جرس نهايـــة الفـــسحة. إنتهـــاء الاستراحة والتقاط الأنفاس.

هربت الدقائق سريعاً من بين أصابعها. اســـتردت فيهـــا جزءاً من تاريخها القريب على حساب تدعيمها المعنوى لـــ آدم. سقط تماماً فى هامش شعورها. تهرع لتأخذ مكانهـــا فـــى آخـــر طابور البنات، بينما يغادر آدم ركنه المهجور فى تبـــاطؤ ليقـــف خلفها تماماً فى أول طابور الأولاد.

تستدير فتتلاقى العينان فى حوار صامت..

- كنت بحاجة إليك
- كنت سأحضر .. داهمتنى الدقائق
- لم تحضرى
- لم أعدك .. ظلمتنى الآن ومن قبل
- لا تعرفين شيئاً

سوياً: فلنطو الصفحة المؤلمة

إبتسما ..

كان حواركما الصامت بمثابة ميثاق غير مكتـــوب بـــأن يظل الحال هكذا. علاقة غير مُلزمة وبلا ضغائن. صداقة عُرفية داخل جدران الفصل فحـــسب .. شـــهودها لا يـــشعرون حتـــى بوجودكما .. وحين تفترقان كل إلى طريقه .. يستأنف كل منكمـــا ما كان يلعب من أدوار .. منفردا ..

❖❖❖

إضحك الصورة تطلع حلوة

لقطة (١): "مونى" ترتكن إلى شباك الفصل. تميل برأسها إلى اليمين قليلاً. وتنفرج شفتاها فى ابتسامة صغيرة. (فلاش).

لقطة (٢): "مونى" تلف ذراعها حول كتف مشيرة أسعد. ابتسامتها أعرض هذه المرة مع الخلفية نفسها .. شباك الفصل وخلفه شرفات العمارات المطلة على المدرسة. (فلاش).

تنتقل الكاميرا من يد آدم إلى يد علاء شاكر.

لقطة (٣): "مونى" تقف فى وضع مستقيم تضم ذراعيها إلى جانبيها. آدم يجاورها ويتخذ الوضع نفسه. يبتسمان ابتسامة مدرسية. تتغير زاوية الإضاءة مع تنقل الكاميرا من يد إلى يد فتسيح ملامح الوجهين قليلاً فى العتمة. (فلاش).

يسأل علاء شاكر آدم أن يسترد الكاميرا ويلتقط له الوضع نفسه إلى جوار مونى. يعتذر آدم بتأدب. "Sorry الفيلم خلص !" ينطلق الجرس معلنا نهاية يوم مدرسى. يسأل آدم مونى أن تمسك له بالكاميرا الحائرة حتى يذهب لقضاء حاجة ما.

ينوء كتف "مونى" بالكاميرا المضافة إلى ثقل الحقيبة المدرسية. يتلاشى آدم لأكثر من عشرين دقيقة وتبدأ المدرسة فى إفراغ فصولها تماماً من الطلاب. لا تجد مونى بدا من أن تحمل الكاميرا معها إلى البيت على أن تحضرها فى اليوم التالى.

فى السابعة من مساء اليوم نفسه يرن الهاتف فى بيت مونى. آدم يستأذن فى الحضور ليأخذ الكاميرا التى نسيها.

على الباب تناوله الكاميرا:

– كدة تطنشنى وتسيبنى مستنياك تلت ساعة؟ فى حد ينسى كاميرته؟

– أنا مانسيتهاش .. أنا كنت قاصد أسيبها ..

لقطة (٤): تتكرر ابتسامة "مونى" التى فى اللقطة (١) مع خفض الرأس قليلاً ثم النظر فى البعد الثالث. (فلاش) ينتج عن ضغطة خطأ من إصبع آدم.

– هوّ لسه فى صوّر؟ إنت مش قلت لعلاء شاكر إن الفيلم خلِص؟

– كنت بس باقوله كده.

بعد التحميض والطبع تظهر اللقطة ٤ هكذا .. شبحان داكنان بلا ملامح لهيكل أطول قليلاً من الآخر يقفان أمام زوايا أربع لا هى باب فصل أو لنافذة تظهر منها شرفات تطل على مبنى مدرسى ..

❖❖❖

حلقة أخيرة من مسلسل تليفزيونى ممطوط

لازلت حبيسة سيارتك المشلولة بميدان التحرير تتماوج أمام عينيك أجساد بشرية تشيع جثمان فقيدة.

يكاد الوقت المحدد للعبتك أن ينتهى، بيد أنك لم تتعاقدى مع نفسك على اللعب فى تلك المنطقة الزمنية، بل فى الأعوام الأربعة الجامعية التى تليها. حتى وأنت تلعبين ينزلق رأسك من زمن إلى زمن آخر رغماً عنك. لم تبدأى بعد لعبتك المتفق عليها وهأنت ستتركين اللعبة التى سرقت رأسك بلا حبكة أو عقدة أو حل. تشبه لعبتك هذه المسلسلات التليفزيونية الرديئة التى تغرق المشاهدين لأسابيع فى لزوجة أحداث يومية، ثم فجأة وبلا مقدمات تشتعل الحلقة الأخيرة بالأحداث لتكشف المستور وتعيد الغائب وتنصر المظلوم.

شهرزاد عصرية أنت يا مونى. دورك فى الحكى ثانوى، تتلقين الحواديت الصباحية فى شغف ونهم. لذا يمكن أن نطلق على مسلسلك "ألف صباح وصباح" ليطل كل الشخوص بحكاياتهم كاملة وبشكل مكثف فى اللحظات الأخيرة. الأمر الذى يجعل المتفرج يندم على ما أهدره من وقت فى مشاهدة ما سبق ويتمنى لو كان قد اكتفى بمشاهدة الحلقة الأخيرة الوافية الشافية.

صباحات السبت (صولو): كلها إما كئيبة ساكنة أو هستيرية لا معقولة مثل ذلك السبت الذى أنكر فيه آدم يوم ميلاده.

بعدما توطدت أواصر الصداقة بـاح آدم بـسر الـسبت العبثى. الجمعة هو اليوم الذى يذهب فيه لزيـارة والـده وجدتـه لأبيه. يصب عليه الأب اللعنات. يزجره لأسباب ملفقة. فقط لأنـه نتاج الزيجة التى خرج منها بكرامة ذبيحـة. آدم هـو الـصورة المجسدة لملامح وجه الأب لكن بألوان وولاءات الأم. قد تتطـور اللعنات أحياناً إلى لطمة على الوجه تظهر علـى هيئـة خمـسة خطوط حمراء متورمة أو ركلة فـى الركبـة بمقدمـة حذائـه العسكرى الضخم تنتج عنها زكة خفيفة تستمر ليـومين. والجـدة العجوز معدومة الحيلة هى البلسم الشافى. أصابعها الهزيلة هـى الرقية الحنون على رأسه تصاحبها همهمة تلاوة لبعض الآيات.

لا تشاركه " رانيا " أخته تلك الوجبة الموجعة، فلا هـى شغوفة بإهانات أب لا تحمل منه سوى إسم وتنحنى شكلاً لموجاته الغاضبة أو بمداواة الجدة التى تنظر لها ككائن تحتـى منقـرض، وتكتفى بالتمرغ فى أحضان عالم الأم والجـدة الأعجميـة. لهـا يوميات ناعمة باهرة تكسر فيها كل ما هو مألوف وتهـرب بهـا خارج كل ما هو نمطى فى جامعتها الأمريكية الخاوية من المعاناة والتى يتكفل دوماً آدم بسرد تفاصيلها على منار لتحملهـا بعيـداً خارج الزمان والمكان. السبت العبثى يوم جاذب جداً لـ "مونى". تتلهف عليه لتكمل الدور الذى بدأته الجدة الحنون بالإضافة إلـى دور الأخت التى تنازلت له عن عبء الأحزان كاملاً .. إلـى أن يتعافى تماماً بنهاية كل أسبوع.

صباحات الاثنين (دويتو)

إسمها لولا. فتاة استعراض. على رأسها ريشات صفراء فاقع لونها. رداؤها أنيق يكشف عن ساقيها. بينما تثبت مهاراتهـا يومياً فى الـ "مارينجى" والـ "تشاتشا"، يرمقها "تونى" من مكانه على البار. يعملان من الثامنة مساء حتى الرابعة صـباحاً. كانـا

يتمتعان بالشباب ويملكان الكون. فى كوبا كابانا. أسخن بقعة شمال هافانا حيث الموسيقى الملتهبة والعاطفة المتأججة.

ثم .. وقعا فى الحب.

كان اسمه "ريكو" يضع فى إصبعه خاتماً ألماسياً. أوصلوه فى ترحاب إلى منضدته. رأى لولا وهى ترقص وحين انتهت أشار لها بأن تأتى. تجاوز الحد قليلا فطار "تونى" نحوهما. صُوبت اللكمات وانشطرت المقاعد. تناثرت الدماء وسُمعت طلقة نارية وحيدة. لكن من الذى قتل من ؟!

فجأة .. فقدت الحب.

إسمها لولا. كانت فتاة استعراض. لكن هذا منذ ثلاثين عاماً حين كان هناك مكان للاستعراض. الآن تحول إلى ديسكو. لكن ليس لـ "لولا". مازالت ترتدى فستانها القديم والريشات الباهتة تنثنى فوق رأسها. تجلس هناك تحتسى الخمر فى رفعة بعين نصف عمياء. فقدت شبابها وفقدت حبيبها وأيضا فقدت عقلها ..

إياك والحب !

تلك هى كلمات أغنية كوبا كابانا لـ "بارى مانيلو". أغنية حزينة على إيقاع الصالصا الراقص. يرددها آدم ومونى صباح الاثنين. فالعادة هى إعادة غناء ما يذاع فى برنامج "العالم يغنى" مساء كل أحد، وفى كل اثنين تتغير الكلمات. لكن اللافت إنهما لا يعشقان الأغنيات التقليدية التى تحتوى على كلمات اللوعة والعذاب بل تلك التى تحث على التعبير الحركى، مثل "ملكة الرقص" لفريق ABBA و"لابد أن ترقص" و"حمى ليلة السبت" لفريق الـ Bee Gees .. أو تلك التى تحمل بين طياتها حدوتة مثل

تلك هى أكثر الأوقات إثارة لكليكما . تتسابق فيها الدقائق وتتركككما لاهثين فى انتظار لعبات جديدة، وكأنكما كائنان نشآ من العدم ويتلهفان على التمسح بحواديت الغير. قد يكون لآدم عـذره فى اعتناق تلك اللعبات الزائفة فحينما يفتش فى ثنايا واقعة عـن أشياء مفرحة لا يجد الكثير وتكون ملهاته الوحيدة هى تلك الأدوار المتنوعة التى يؤديها ببراعة. أما أنت فواقعك مشحون بالأحـداث الطريفة والجميلة، فما عذرك إذن فى أن تنفلتى منه وتندسى فـى حكايا أخرى؟ هل تحققت نبوءة والدتك وأصـابك فعـلا مـرض الإزدواجية، أم إنك لا تستطيعين التخلى عن الطفلة "مونى" التـى لا يمتعها شىء سوى أن تكون دمية نفسها؟!

صباحات الثلاثاء: (دويتو)

من الدويتوهات المحببة أيضاً كان دويتو يـوم الثلاثـاء وهو الصباح التالى لمساء الاثنين حيث يذاع برنامج "كاميرا ٩".

تضع مونى ساقاً فوق الأخرى وتنثنى بجذعها ثم تلمـس أنفها بطرف سبابتها بحركة عصبية بين كل جملة وأخرى. مـع إطلاق تنهيدات فى الوقفات.

- إسمك إيه؟
- آدم أ .....
- إسمك غريب أوى .. يا ترى ليه ؟
- لأن والدتى أجنبيـ ...
- مش مشكلة .. عندك هوايات ؟
- آه بحب ألعب ...

– أكيد بتحب الموسيقى والغنا والتنس وحاجات كتيرة .. تحب تطلب إيه فى نهاية الحلقة؟

– يعنى .. لو ممكن أسمع ..

– OK إحنا هنختار لك أغنية على ذوقنا. (للمخرج) الوقت خلص؟ سيداتى سادتى. دى كت نهاية حلقة اليوم من كاميرا ٩. بنشكركم وتصبحوا على خير ..

ينفجر الفصل ضاحكاً ليس على ما يحتويه الحوار بل على المحاكاة الدقيقة لحركات وسكنات الإعلامية أمانى ناشد ..

أصل المتعة فى العروض المسرحية هو تدثر الممثل بأنفاس وتصفيق المشاهدين .. بسعالهم ونحنحاتهم فى المواقف التراجيدية أو قهقهاتهم فى اللحظات الضاحكة. أما أنت وآدم فكنتما تستمتعان بكونكما تلعبان وتنفجران ضحكا على ما تفعلانه حتى تتسرب الدموع من طرفى عيونكما وما أن تخبطا كفيكما كدليل على نجاح المشهد حتى تضطرا إلى استخدام ظهر نفس الكف فى مسح الدموع التى تغطى وجهيكما. صرتما مصدر قلق للمدرسين حيث علموا بموهبتكما الفذة فى التقليد. وصار تهديد أمنهم أعلى بعد الوفاة الفجائية للإعلامية أمانى ناشد حيث أصابكما إحساس شديد بالذنب تجاهها فتحولت كل طاقتكما الزائدة نحو محاكاة المدرسين.

قالت مدام أحلام مدرسة اللغة الفرنسية ذات يوم فى نوبة تعصب للغة التى تدَرسها أن هناك أمثالا بالفرنسية لا تضاهيها أمثال فى أية لغة أخرى كالمثل القائل بأنك إن أردت أن تستحوذ على قلب امرأة . فلتضحها، ثم غابت فجأة فى تكشيرتها الصارمة.

يبدو أن المثل لم يطرق بابها، بالفرنسية ولا بأية لغة أخرى .. فكرة خبيثة داعبت رأسى منار وآدم فى آن. أطبقا

بأيديهما على أفواههما لكيلا تنفرط الضحكات التى ظلا يضغطانها حينا ويطلقان سراحها فى أحيان أخرى حتى تحولت الثمانى حصص اليومية إلى ضحكة طويلة ممتدة.

❖❖❖

الحلقة الأخيرة (بقية)

عادة ما تكون مدة الحلقة الأخيرة أطول من الحلقات العادية، فتقطعها نشرة الأخبار، على وعد بتكملة فى اليوم التالى. نشرة الأخبار التى قطعت عامهما الدراسى هى الأجازة الصيفية.

"مونى" و"آدم" يرتكنان إلى باب المدرسة وفى أيديهما شهادات آخر العام. تجاوز مجموع "مونى" محصلة درجات آدم بأكثر من ١٥ بالمائة – على الرغم من أنها كانت تفتح له وريقات إجابتها على طولها طوال العام. أقنعها أن الغش المحترف يتطلب نقلاً غير حرفى. لذا كان يخط بعض الإجابات الخاطئة مع تمام يقينه من إجاباتها الصحيحة. لم تكن هذه هى النتيجة المرجوة إلا أن ذكاء التبرير قد أدهشها. لكن ترى هل سيتمكن من اللحاق بها وأن يحققا سوياً حلم الالتحاق بجامعة لا تقبل سوى أصحاب الدرجات الفذة ؟!

- مونى (بلكنة أمريكية) We gonna miss you سوف نفتقدك!

- آدم (بلكنة بريطانية) We'll miss you too سوف نفتقدك أيضاً!

يكون أحياناً اللوذ بلغة أجنبية ليس من قبيل التعالى كما يبدو للناظرين، بل يفر إليها الناطق بها خجلاً أو تحرجاً من استخدام اللغة الأم التى يكون للكلمات فيها وقع صريح ومباشر. لذا حين لا تكون الكلفة قد رفعت بنسبة مائة بالمائة، يرتاح المتحدثون بلسان آخر إلى استخدامه فى حالتين: التعبير عن المشاعر الحميمة أو النطق بالألفاظ الفجة. وهكذا يصل المعنى دون أن يُلام المتكلم.

آدم: فاكرة أول يوم فى المدرسة وأغنية The way we were "هكذا كنا"؟

تتراءى لها فاتن حمامة وهى تحاور عماد حمدى فى مشهد عاطفى من "بين الأطلال". تكاد أفلام الأبيض والأسود أن تأكل رأسها.

فاتن: عايزاك تفكر فيّه كل يوم الساعة عشرة.

عماد: إنتى مش محتاجة أفكر فيك الساعة عشرة لأنى بافكر فيكى طول الوقت.

مونى: تيجى نسمع أغنية The way we were كل يوم الساعة عشرة؟

كان الميثاق غير المكتوب بألا يكون هناك إلزام أو ضغائن ، مزيحا إلى أبعد الحدود. فلم تعتد اختلاس المكالمات المشبوهة أو اختلاق أسباب لخروجات كاذبة. كان الحل فى أغنية العاشرة مساء. لقاء الروح بالنغمات واجترار اللحظات الخاصة. فضلا عن مساحة تكفيها لأن تلعب منفردة فى مجالات أخرى عديدة.

انقضت الشهور الأربعة سريعة – حيث ساهم فى انفلات نصفها حصول هشام على مجموع مفاجأة فى الثانوية العامة، وامتلاء البيت عن آخره يوميا بالمهنئين.

أدُخلت رأسه غرفة إنعاش المعلومات. كونصولتو المدرسين الخصوصيين مكنه من التغلب على نوبات خائبة متلاحقة على مدار سنوات عمره الدراسى. لم تكن المقويات هى كيفية تثبيت المعلومة فى الرأس بل كيفية لفظها فى المكان الصحيح على الورق. بثت فى البيت كله الحياة وارتفع معدل التحسن إلى ذروة أتاحت له الالتحاق بهندسة عين شمس. الأمر الذى وضع كل المعارف فى حالة ترقب لمجموع "مونى". فإذا

كان هذا هو الحال مع هشام فالتنبؤات تشير إلى تبوّؤ "مونى" لترتيب على القطر واستضافات متلاحقة فى برامج الشاشة الصغيرة.

وحل يوم اللقيا والتلهف على مكانين متجاورين بالصف الثالث من الفصل والدخول فى دويتوهات متنوعة ومثيرة.

تهرع مونى إلى ثالثة أول. تتلفت حولها بحثاً عن آدم. لم يحضر. يخبرها علاء شاكر إنه يجلس وحيداً ساندا رأسه على الحائط الجانبى لتالتة تانى. قرار تربوى يجرب للمرة الأولى بالمدرسة. تفريق أية مجموعات حميمة يشتبه فى أن تحدث نتائج سلبية مؤثرة على النتيجة العامة للمدرسة. فى الفسحة وقبل أن تدور بينهما أية حوارات تلمحه برفقة وكيلة المدرسة. يتلاشى داخل مكتبها لتمارس هى طقوسها مع شلة Class A.

فى الحصة التالية للفسحة يكون آدم جالساً إلى جوار مونى فى الصف الثالث بتالتة أول. يرمقهما فى استغراب (الذاهل) علاء شاكر حيث فشلت كل محاولاته فى أن ينقل نفسه إلى تالتة تانى حيث عزلوه عن (الزعيم) شريف الراوى.

❖

آدم: هتروحى عيد ميلاد مى ضياء الدين؟

مونى: آه إنت تعرفها منين؟ عمرك ما قلت لى إنك تعرفها!

آدم: أصلها قريبة مامتى وكان فيه مشاكل.

مونى: إنت مش مامتك إنجليزية؟!

آدم: لأ .. جدتى. أشوفك فى عيد ميلاد مى.

فى اليوم نفسه ستعرف المدرسة كلها أيضاً أن والدة "مراد نعيم" ليست سويسرية كما توهموا طوال سنوات عمرهم. فقد ظهرت كممثلة مساعدة "صديقة البطلة" فى فيلم قديم لا يذاع كثيراً وعُرض فى اليوم السابق. تحدثت فيه بعربية طليقة وتعرفت عليها أيضاً الشلة كلها. لم يستطع "مراد" الإنكار. كانت تماماً كوالدة آدم. إبنة لأم سويسرية وأب مصرى.

الوحيدات اللاتى استفدن من هذا الزواج المختلط هن الزوجات/الجدات. فقد آتين إلى البلاد بمنطق الغزاة. يحتللن المكانة الأعلى ويحتقرن السكان الأصليين. يحصدن الخيرات كلها ويحققن توازناً نفسياً يفوق الوصف. يمكنك أن تلمحه بسهولة وهن يتلذذن باحتساء الكابوتشينو الساخن فى لقاءاتهن المقدسة بجروبى مصر الجديدة. تشهد على ذلك تصفيفات شعورهن الرمادية وطلاء شفاههن الوردى الداكن وأزياؤهن الكلاسيكية المعطرة.

من تعانين حقاً هن ذلك الهجين .. الجيل الوسط. ينجذبن بشدة نحو الكفة الأقوى، إلا أن الدماء المختلطة تجرى رغماً عنهن فى عروقهن. تتوزعهن ثقافة وديانة بلد الأم وتقاليد وعادات عائلة الأب .. كانت مسز دورا وصديقتها نانسى مثالاً رائعاً على عذابات هذا الجيل الهجين بالإضافة إلى والدة "مراد نعيم" التى ظلت تحدثهم بإنجليزية استغلقت على فهمهم فى سنواتهم الأولى ولثلاثة عشرة عاماً – حتى عُرض هذا الفيلم وظهر اسمها المميز وبوضوح فى التيترات:

الوجه الجديد "سالى". وأخيراً والدة آدم إبنة عم والدة مى ضياء الدين. لعبت أمها البريطانية دوراً جوهرياً فى التنافر بينها وبين عائلة الأب ذى الثقافة الأدنى على الرغم من إنه حين جلبها من بلادها – حمل إلى جانبها شهادة الدكتوراه.

حكاياتان صادمتان دفعة واحدة. وشهرزادنا على صمتها لا تزال. صلة دم ومعرفة قديمة بـ مي ضياء الدين ثم والدة ليست إنجليزية خالصة. لا يهم فالفائدة أشمل من الصدمة .. ربما يضيف تواجده ببيت إحدى عضوات الشلة الرئيسيات بعضاً من ظلال الشرعية عليه وينفى عنه قليلاً من اللعنة التى رشمه بها هشام. وصمة "الولد اللى عيط" ليحل محلها لقب قريب "مى ضياء" مثلاً.

الخالات والعمات يضفن اللمسات الأخيرة للبوفيه. مى ضياء تطمئن فى مرآة الصالون على جمال هيئتها. الشلة بكامل عددها تتناثر فى أرجاء الصالة ما بين متكلم وضاحك وراقصين. سها الشناوى كالعادة تتخذ ركناً بعيداً يتيح لها أعلى نسبة تفرج دون مشاركة حقيقية. تتداخل الهمهمات مع الصخب الكلامى الساخر مع دبيب الخطوات الراقصة وصيحات تشجيع الخالات والعمات.

فى منتصف الصالة تقف مونى فى مواجهة آدم. ينظران لبعضهما البعض كمن وقعت عينه على كائن من كوكب آخر. إنها المرة الأولى التى يريان فيها بعضهما البعض فى أزياء غير مدرسية تعكس درجاتها اللونية على الوجهين بهجة وحيوية.

سيناريو:

الجسدان في مواجهة بعضهما البعض. يتشابك الكفان. يرتفعان لتنفك الكفوف اليسرى وتدور بكامل جسدها تحت ذراعه اليمنى المرتفعة. تنشبك الكفوف ثانية، لكنه الآن يقف خلفها. تتحرك القدمان في خفة. واحد اثنان ثلاثة.. ثم واحد اثنان ثلاثة..

لفة. عودة الجسدين إلى المواجهة. ميل يسار. ميل يمين – يسار. ثم لفة حلزونية طويلة ناعمة على نغمات الموسيقى.

حوار:

أعرفك منذ زمن بعيد. أراك كل يوم. لكنني لم أرك على هذه الحال أبدا. إنك تبهرينني. دخلت حياتي فجأة. أصبحت جزءا من كل شيء أفعله. جعلتني أجتهد ليل نهار فقط لكي ألحق بك. بين ذراعيك أجد جنتي. فرصتي الوحيدة للسعادة ولو خسرتك سأموت. قولي إنك ستحبينني إلى الأبد. سويا ستكون حياتنا شمسا ساطعة. أنت أكثر من مجرد امرأة بالنسبة لي. موسيقى.

تخلو ساحة الرقص تماماً إلا منهما. ينقسم الحاضرون ما بين مصفق ومردد لكلمات أغنية More than a woman "أكثر من مجرد امرأة". بعد اللفة الأخيرة يجفف آدم ومونى حبات العرق التى زحفت إلى جباههما، مدارين أيضا بسمات خجل ممزوج بفخر فى آن واحد.

تتكالب الخالات والعمات على آدم: "آدم علمنا الخطوات دى". تتناوبن عليه الواحدة تلو الأخرى ومونى تنتقل فى نشوة بين التجمعات الصغيرة حتى تلقى أخيرا بالجسد المنهك على فراشها. تتخدر حواسها تدريجيا فيما عدا حاسة السمع التى تظل تكدح دون إرادتها وحتى الصباح مع حروف ونغمات أغنية "أكثر من مجرد امرأة".

❖

فى فسحة اليوم التالى تتخذ مونى مكانها المعتاد وسط شلتها القديمة. تهمس لها سها الشناوى بأنها تريدها على انفراد.

– مونى .. أنا باحب آدم

– ..... !

– أنا غرت منك أوى وإنتى بترقصى معاه إمبـــارح وإتمنيتَ إن أنا اللى أرقص معاه.

– .....

لم تدر "مونى" إن كان اعتراف "سها" بمثابـــة اعتـــراف مسيحي تتخلص به من إحساس بالذنب تجاه "مونى" أم أنه مجـــرد تقرير لواقع ما! سواء كان هذا أو ذاك ستظل الـــشفقة تغلـــف رد الفعل الذى لم يطف على السطح أبداً واستبدل بالصمت التام. ربما لأن "مونى" أيضاً كان يسكنها اطمئنان بأنها لا يمكن أن تدخل فى لعبةٍ ثلاثية مع سها الشناوى. اللعبة الوحيدة التى يمكن أن تلعباها سوياً هى لعبة القائد والتابع. فمنذ الصف الأول الإعـــدادى حـــين فجرت سها ما يعتمل بداخلها من كبت تجاه بناتٍ الفصل بـــإطلاق شائعات طفولية علـــيهن – واتخـــاذهن قـــراراً جماعيـــاً بعـــدم مصادقتها، و"مونى" هى الوحيدة التى قـــررت عـــدم مقاطعتهـــا. تظهر أدوارها البطولية فى مثل هذه المواقف. نصرة المنبـــوذين وإعطائهم الأعذار عن زلاتهم. "سها" إبنة ضابط جيش صارم من أصول ريفية. أطلق فرمانات بعدم مصادقتها للصبيان أو البنـــات المائعات. ممنوع عليها المشاركة فـــى الحفـــلات المدرســـية أو الأنشطة المشتركة. فصارت كـــشوكة غريبـــة يلفظهـــا الجـــسد المتوازن. ووالدتها أيضاً لم تشبه أياً من الأمهات. كانت الوحيـــدة التى تأتى لمقابلة المدرسين ببونيه على رأسها ورداء واسع لا هو بفستان ولا هو بجلباب وشبشب متفلطح تحك به أسفلت الطريـــق. المثير فى الأمر أنها حين تتحدث تبهر المتلقى بما تمتلكـــه مـــن معلومات تحصل عليها يومياً من قـــراءة المجـــلات والـــصحف جميعها ثم زدها فى اليوم نفسه لبائع الجرائد مقابـــل نـــسبة مـــن الثمن. ربما كان يمكن أن تكون على غير هذه الحال لو لم تقـــع

تحت وطأة تلك الأوامر العسكرية لرجلها. لماذا زج بسها فى هذا المجتمع المختلط الذى سبب لها إحساسا عميقا بالحرمان من ممارسة حقوق مشروعة؟! هل يبرر التقارب الجغرافى من المدرسة مثل هذه الجريمة؟ تقع بناية سها بين عمارتى مونى وإيهاب ميلاد فى الشارع نفسه الذى يضم المدرسة. صارت تتطلع بفضول إلى كل تصرفاتها. إنطلاقها ونفاذها بسلاسة إلى عالم الأولاد الغامض. بالنسبة لـ سها صارت مونى كالأفلام التى نشاهدها فتحدث لنا حالة من التنفيس والارتياح ونحن قابعون على مقاعدنا. وبالنسبة لـ "مونى" – كان دور التابع فى حياتها يشعرها بلذة أن يكون المرء صاحب اليد العليا حتى وإن لم يبذل جهدا يذكر.

المرة الوحيدة التى كرهت فيها "مونى" هذا الدور هو حينما اتصلت والدة سها بوالدتها طلبا لرقم الخياطة التى تحيك لمونى ثيابها. بعد أسبوع واحد من تلك الواقعة ذهبت مونى لزيارة سها، لتجد نسخا طبق الأصل من كل ثيابها – سترتديها سها بإهمال وعلى جسد مترهل وشعر غير منسق وأحذية متفلطحة.

أما واقعة إعجابها بآدم فكانت المرة الثانية التى اشتهت فيها سها شيئا تملكه مونى وتمنته لنفسها إلا إنه من هذا النوع من الأمنيات الذى يتبدد بسهولة بمجرد أن يلفظه المرء بلسانه فيضيع أدراج الرياح. ستشاهد سها على فترات تنتقل ببصرها بين ما يقوله آدم وما تقوله مونى فى أحاديثهما القليلة المختصرة أثناء الفسحة.

النظرة المتنقلة نفسها سيطلقها الذاهل علاء شاكر وهو يجلس خلفهما فى الفصل. سينفصل تدريجيا عن شريف الشراوى لتجده سائرا أثناء الفسحات بطريقة لافتة خلف آدم.

من مكانها على سلم الكانتين تشاهدهما موني يتحاوران بحدة. ترى على أى شيء يختلفان وعلى أى شيء أساساً يتفقان؟! قبل دخول المعلمة حصة ما بعد الفسحة يوجه علاء شاكر حديثه إلى موني بلسان ثقيل وجفنين مرتخيين ...

- " أنا قلت له لو ما كنش هيقولك بأة .. يبقى يسيبك فى حالك ويديني فرصة أقولك ..."

- ..... !

يقولون المصائب لا تأتى فرادى .. وكذلك اللعبات الثلاثية.

❖

حبيبتى، أنا مهما أوصفلك يا حياتي، عن مشاعرى وإحساساتى ومهما أكتب لك، ومهما أقولك، أنا قد إيه يا حبيبتى بحبك، أوراق الدنيا ما تقضيش وكلام الدنيا ما يكفيش، عشان كده هغنيلك .. وأقولك أنا ليه باحبك إنتى ليه ومن أول دقيقة؟ لقيت فيكى الصفاء. لقيت فيكى الحياه. لقيت فيكى الحقيقيه. رسمنا فى الحياه. طريقنا ومشيناه وأقولها بصدق ليكى. ده كل يوم يمر. من سنين العمر. يزيد إيمانى بيكى وأقولك أنا ليه بحبك إنتى ليه من أول دقيقة؟ موسيقى..

موني : حلوة

آدم: شريط "المصريين" كله حلو .. بس أنا بحب دى أكتر .. بتفكرنى بيكى.

موني: .....

❖

علاء: قلت لها؟

آدم: تقريبا

يختفى علاء شاكر من محيط الرؤية أثناء الفسحات ويعاود هوايته القديمة فى التزويغ من الحصص فيخلو مكانه بجوارهما حتى آخر العام.

❖

فى شريط سابق للفريق نفسه كانت تلك الأغنية ..

"إبريل مايو يونيه موسم الامتحانات ..

ليه بتحلوى يا دنيا .. فى الوقت ده بالذات؟

ليه يا قلوبنا بدأتوا .. فى الحب ودقدقتوا؟

يا ربيع هو ده وقته .. داحنا ورانا شهادات !!

لكنها لم تُغن صولو أو دويتو بالرغم من إيقاعها المرح. بل كانت تنساب فى رتابة من جهازى تسجيل متفرقين. الأول فى صالة بيت آدم .. والثانى بعيداً فى غرفة مونى.

أوشك العام الدراسى على الانتهاء. عم التسيب فصول تالتة أدبى. تغيب المدرسون والعديد من الطلاب. الكل منكبون فى بيوتهم على الكتب لإنقاذ ما يمكن ليعبروا سالمين من عنق الزجاجة اللعينة. على مكتبها الغارق فى ضوء الأباجورة تغيب مونى فى شطحات ذهنية يومية. هل سيتمكن آدم من الحصول على مجموع؟ كيف يغرس الحلم فى رأسها ثم يتركها تعيشه بمفردها؟ لو كان الأمر بيديها لتنازلت له عن نسبة مئوية تعلو بدرجاته .. لزوجة الجو والارتفاع المفاجئ للحرارة يحثان على الاستيقاظ، إلا إنهما يحضان على ارتخاء النشاط البدنى والذهنى ويفقد الحماس للتركيز ..

"يا ربيع أظبط مواعيدك بأه وتعال ف وقت سليم .. ما هو كده لا هننفع ف المعشقه ولا نفلح ف التعلـــيم .. ولا هينوبنا غير التريقه كلنا صبيان وبنات". موسيقى.

النسمة المرطبة الوحيدة لجفاف تلك الأيام الربيعية بآخر العام هى تلك البروفات التى يحضرها مونى وآدم مرتين أسبوعياً فى مسرح المدرسة. هو لأدائه دور هاملت فى مسرحية قـصيرة باسم "كابوس شكسبير" حيث يحلم الكاتب الإنجليزى أن كل أبطاله يتمردون عليه ويقررون محاكمته .. وهى لأدائها دور مصر فى مسرحية شعرية قصيرة ستعرض فى الحفل نفسه.

يغزو الهزال جسد آدم الناحل بطبيعتـــه. تحـــيط عينيـــه هالتان داكنتان. "أنا آسف يا مونى .. شكلى مش ممكـــن أدخـــل معاكى الجامعة الأمريكية. لو جبت مجموع تجارة خارجية تبقـــى معجزة"

تتوقف الدويتوهات المنغمة لتحل مكانها قصص قـــصيرة صادمة وأكثر خيالية من وهم الـــدويتوهات. وســـيقدم شـــهريار شخوصاً غرائبية تلهب الأحداث وتبهـــر الأنفـــاس .. ثـــروت أو "روى": شريك والدته فى محل الأنتيكات. مسيحى ســـابق وزوج صديقتها ملك (مسلمة شكلا). فرت معه من بيت أهلها بعد قـــصة حب درامية. من أجلها بدل دينه. ثراؤه فاحش. أنجبا أبناء ثلاثة. أصدقاء لآدم. ألحت عليه ملـــك أن يـــشارك والـــدة آدم بعـــد أن اضطرت لترك وظيفتها فى السفارة الإنجليزية.

داهمه داء الاعتياد تجاه زوجته .. وبحكم الاعتياد أيـــضاً التهبت جذوته المنطفئة تجاه شريكة العمل. تزايدت زياراته إلـــى منزلهم. لم يرتح آدم وأعرب بهدوء عن تذمره.

انحنت رانيا شقيقته للموجة الجديدة حتى لا تواجه كالعادة ما يعكر صفوها ..

توترت علاقة آدم بالنساء الثلاثة اللاتي يعاشرهن .. الجدة والأم والأخت، فضلاً عن الزائر صاحب الأفضال. والأب الذى حمله مسئولية ما يحدث بالبيت. إهتراً ذلك الحبل الوثيق والناعم الذى كان يربطه بالأم. توقف عن ذكر اسمها مثلما كان يدللها وسرد حكاوى هدهدتها له وإظهار صورهما معاً فى المناسبات المختلفة. "لن أفعل أبداً مثلما فعلت "نانسى" بـ "دورا" هكذا تردد الأم، لكن الخاتم السوليتير والدبلة ذات الفصوص الألماسية البراقة اللذين ضبطهما آدم فى علبة قطيفة وهو يفتش عن سلسلته الذهبية فى دولاب الأم، كانا يجزمان بأن ما تقوله ليس إلا هراء وادعاء. مونى لا يعنيها الخاتم أو الدبلة الألماسية أو الحكاية التى وراءهما. فقط بروز عظام وجه آدم واتساع ملابسه. أيمكن أن يكون مصاباً بمرض خطير .. هل سيموت فى ريعان شبابه؟

أمامك حكاية أصلية تمتص آدم وتوجعه لكنك تنفذين منها إلى قصة وهمية .. صوت داخلى يلقى فى مسمعك جملة كئيبة .. " بل سيموت آدم فى الخامسة والعشرين من عمره .. تتلبسك الفكرة وترسمين سيناريوهات مختلفة لوقع الصدمة حين يفقد آدم حياته بعد أعوام قليلة.

❖

مايكل (يهودى سابق)

بوجهه بهاء يجعله ينفذ بسهولة إلى القلوب. بالغ الأناقة. به ميوعة لافتة لا تظهر إلا حين يتكلم. إبن إحدى زبونات الأم فى محل الأنتيكات. فى نفس العام الدراسى كآدم. عرفته به الأم

وحضته على التمسك بصداقته. "الوحيد اللى ابن ناس ... صحابك" هكذا تهمس لآدم بعد أن ترحب مهللة بمايكل وتدخله فى حبور إلى غرفة الصالون. يأتى بصحبة آدم أحيانا لحضور البروفات. قدمه إلى "مونى". لكن رأسها فى تلك اللحظات يكون فى واد آخر. الأبيات الشعرية التى ستلقيها فى المسرحية. كيفية الأداء وإيقاعه. درجة الصوت وطبيعة الحركة وأخيرا تجهيزات الفستان الذى سترتديه تحت العلم الذى ستتلفح به.

يعذب مايكل إحساس عميق بالاغتراب عادة ما ينتاب الأقليات. لكن ليس لأنه ينتمى إلى أسرة من أصول يهودية ممن آثروا البقاء بمصر، بل لأنه يرتبط بمجتمع أقلية آخر. أكثر تكتما ومع ذلك يحمل نشرات تعبر عن آلامهم .." أنا فقط إنسان ولست ذكرا أو أنثى. من الظلم الحكم على البشر من طريقة ملبسهم التى تستهويهم وتريحهم أو من ردود أفعالهم التى تتمشى مع الطبيعة الإنسانية. فلماذا يمنع الرجل من التعبير عن حزنه بالبكاء، بينما المرأة تزيح كل همومها بصورة مستمرة من خلال أنهار دموعها اليومية؟ لماذا تعتبر جريمة اجتماعية لو أضاف الرجل بعض الألوان إلى وجهه لتزيده بهاء وقبولا بينما تلطخ المرأة وجهها ليل نهار بالمساحيق دون لوم أو عتاب؟"

يرتاد "مايكل" بصحبة آخرين مثله الفنادق والنوادى التى تضم من يعتنقون أفكاره والتى لا يطلع عليها إلا من يثق بهم. بين أولئك الذين يلقاهم هناك والموجودين بالمئات على مختلف المستويات، يشعر "مايكل" إنه ليس خارجا عن المألوف ولا يحتاج لأن يشرح نفسه.

يحاول آدم التملص من صحبة "مايكل" الذى يحاول استمالته إلى عالمه بوسائل شتى، إلا أن الأم كانت تفاجئه بحضوره بعد أن ترتب له المواعيد معه دون علمه .. لم ينقذه من قبضة "مايكل" سوى خلاف دب بين الأمهات. توقفت بعده عن

إقحامه عليه، إلا أنها كانت تعلن عن أسفها لأن ابنها قد فقد صديقاً ومن عائلة مثله !

ما زالت سخونة الهواء طاغية والكتب المدرسية المفتوحة على الصفحات نفسها، غارقة في بقعة الضوء المنبعثة من الأباجورة.

جهاز التسجيل يطن بأغنيات مسجلة من At your request (ما يطلبه المستمعون). تتداخل فى رأس "مونى" أسباب الحملة الفرنسية مع الفصل الثالث من "عبقرية عمر" وألفة وجه مايكل وغرابة أفكاره. إنقباضة مفاجئة للقلب إثر تذكر هاجس فقدان آدم لحياته حين يبلغ الخامسة والعشرين .. تتوارى قليلاً حين يقفز إلى ذهنها أن الفستان الذى تحوكه الخياطة من أجل الأمسية يحتاج إلى توسيع من عند الأرداف.

تأخذ رشفة من كوب الكركديه البارد وتغمض عينيها محاولة سرد أسباب الوفاة الغامضة للبطل فى الرواية المقررة My cousin Rachel وهل البطلة مذنبة أم لا؟ ويلح عليها السؤال نفسه .. هل سيتمكن آدم من تحصيل كل تلك المعلومات واللحاق بها فى جامعة مشرفة ؟!

❖

تقف "مونى" فى آخر الصالة وتصفق بشدة بعد أن ينتهى آدم من دوره الذى يبدأه بجملة هاملت المأثورة To be or not to be, that's the question (أكون أو لا أكون، تلك هى المسألة). تهرع خلف الكواليس لترتدى فستانها الشيفون الأبيض وتعاونها مُدرسة الألعاب فى تثبيت العلم بالدبابيس حول جسدها.

إبنى الصديق .. وإبنتى .. أنت الصديقة

كونى رفيقة عمرنا .. ولتكن أنت الرفيق
فاليوم .. اليوم أنتم نصرتى .. أنتم لدهرى عزتى
أنتم حملتم .. حملتم إسم مصر

من الكواليس الجانبية يرفع آدم الإبهام لـــ "مونى" كدليل على إجادتها للدور. تحيى الجمهور بانحناءة صغيرة من الـــرأس وترفع جانبى فستانها وتدخل فى تؤده إلى الكواليس، قبل الظهور النهائى على الخشبة مع جميع أبطال العرض لتحية الجمهور.

مسز نبيلة وكيلة المدرسة التى حققت معجزة نقل آدم إلى تالتة أول تربت على كتفه وتمطره بعبارات الثناء.

– إنت يعنى مصاحب مس نبيلة أوى .. هى كمـــان قريبتك ولا إيه؟

– لأ .. أصلى أول ما تنقلت المدرسة هنـــا، طلبـــت منى أبقى أجيب لها أخبار الفصل.

– ..... !!!

❖

"ياللاّ ياللاّ اطلعوا ع المسرح بسرعة. هنفتح الـــستارة." تأمرهم مشرفة العرض من زاوية جانبية.

بنفس التؤده التى دخلت بها مونى إلى الكواليس، تخـــرج ثانية إلى خشبة المسرح. تنظر فى الفراغ ولا تسمع سوى حفيف طرف فستانها الذى تركته يجرجر من الجانبين والخلف ليمـــسح خشب الأرضية. تمتزج صفارات الزملاء فى البلكـــون بتـــصفيق الأهالى وهيئة التدريس بالصالة.

ينحنى آدم بجذعه كاملاً فى ملابس هاملت اللاصقة التى تكشف كل تفاصيله وتتوه مونى بعينيها بعيداً وهى تتوسط الخشبة فى شموخ متلفحة بعلم مصر ..

❖

أمام اللوحة الضخمة التى تحتوى قوائم النجاح والرسوب، تتلاحم الأجساد البشرية وتتلاصق الرؤوس فى محاولة التقاط الأرقام التى سيتحدد بها مصير كل منهم. تختلط صيحات الفرحة بشهقات الإحباط. لا تزج مونى بنفسها وسط تلك الجلبة إلى أن يهدأ الحال. لا تحب المزاحمة أيا كانت المبررات. لذا تتعرف على النسب المئوية من أفواه أصحابها لتكون نتيجتها هى آخر ما تتعرف عليه ..

من علمى علوم إلتقطت النتائج الآتية:

إيهاب ميلاد	٩٥%
كريستين عدلى	٩٣%
مى ضياء الدين	٩٢%
سها الشناوى	٩١%

ومن القسم الأدبى لم تجر بعينيها سريعاً سوى على إسمين فى الكشف.

آدم احمد سليم	٨٨%
منار حسن وهبى	٨٢%

❖

ولما كان آدم هو الوحيد الذى تطوّع بإحضار استمارة الالتحاق بجامعتكما الحلم وملأتها على عجل أمام باب شقتك. كانت تتشاجر فى رأسك ألف فكرة. السالوبيت الغريبة التى

يرتديها. أفول ضحكته للأسباب التى قصها عليك. معارضة والدك لدخولك منكسرة الرأس فى ذيل قائمة الملتحقين بجامعة لن تقبلك فى النصف الأول من عامها الدراسى لضعف مجموعك بينما ستدخلين كلية الألسن كملكة متوجة، وكفى إنها على بُعد محطتين مترو من منزلك، كما إنك ستأتنسين فيها بصحبة خالتك داليا التى سبقتك إليها العام الماضى. لكن إحساسا مبهما كان يطمئنك بأنك فى النهاية ستحققين مأربك، حتى وإن ارتكنت فى الألسن لأربعة أشهر ثم تلحقين بآدم فى جنتكما المنشودة فى الترم الثانى. ولهذا اليقين الداخلى أزحت كل تلك الأفكار المرهقة عن رأسك وطرحت على آدم ذلك السؤال الطفولى عن لون سيارة أخته التى تنتظره ولا تدرى ما الذى أفرحك حقا فى كونها زرقاء! وحين خرجت إلى الشرفة لتلوحى له ووجدتها خضراء لم تتوقفى عند تلك المسألة كثيرا .. فقد وقعت عيناك فى الآونة نفسها على سور المدرسة الذى ترينه كل يوم، لكنك فى هذا اليوم تحديدا شعرت إنك تعطين قبلة الوداع لمكان احتواك لثلاثة عشرة عاما شهد فيها المرة الأولى التى قفزت فيها بساق واحدة فوق الخطوط المرسومة بالطباشير فى وسط الحوش .. المرة الأولى التى ترتفع فيها نبرات صوتك الرفيعة لتغطى على أصوات الأخريات فى حلقة لعبة "باتينانا". والمرة الأولى التى تخليت فيها عن تلك الحلقات لتقفى مستقيمة الظهر وسط الكورال بعد أن اكتسبت النبرات نفسها بعض الحلاوة لتصدح بـ "أعطنى النای" و"سالمة يا سلامة" و"الحلوة دى". والمرة الأولى التى شاركت فيها صديقك العجوز عم عبد القادر دفع الجرس الضخم ليحدث رنينه صدى مدويا زلزل قلبك. لن تنسى جمال ابتسامة ذلك الفراش الأسمر الذى علمك بعض أسرار لهجته النوبية .. المرة الأولى لاكتشاف عبقرية سلالم الكانتين والخطوات الجماعية الراقصة تحت المطر ...ثم آدم .. والمرة الأولى التى تطلقين فيها ضحكة تمتد لعامين متواصلين. ذرفت دمعتين وأنت تودعين شاهدا مهما

على سنوات تكوينك .. سلسلة طويلة من حلقات "المـــرة الأولـــى التى ..... ".

ورغم أن الأيام ستجرفك بعيداً وتتخيلين أنك طويت كـــل تلك الأحداث والشخصيات فى صفحة منسية من دفتر حياتك، فإن الدمعتين ستنزلقان رغما عنك كلما سـمعت كلمـــات أغنيـــة لـــم تصادف من يشجعها ويرددها كثيراً تقول:

ف الشارع ده مدرستى .. وشقاوتى وبّا براءتى
كانت أيام .. أجمل أيام .. من الأيام دلوقتى..

❖❖❖

علاقتها بـ "داليا" من ذلك النوع المركب الذى يبدأ رديئاً جداً ثم تتطور الأمور بطريقة لم تخطر لهما على بال حتى تنتهى نهاية أكثر من جميلة. فكرة أن تكون "داليا" إبنة جدتها ومع ذلك تكبرها بعام واحد لم تكن مستساغة فى الأعوام الأولى من طفولتهما. "داليا" خالتها وتحظى بحظ وافر من التدليل فى محيط الأسرة ، تماماً مثل "مونى" وللأسباب نفسها تقريباً .. الحماية المفرطة التى يفرضها والد كل منهما حولهما .. لكن حماية داليا كانت حماية رسمية مستمدة من كبر سن الأم ومكانة الأب كمساعد وزير داخلية. حينما "يلتقيان يلهوان كطفلتين عاديتين إلى أن تحدث أية مشادة أو خلاف على أمر تافه فتحسم والدة "مونى" الخلاف فوراً لصالح "داليا" .. ببساطة لأنها إبنة الجدة وإبنة "الباشا" زوج الجدة. هكذا كان يناديه كل الغرباء والسائق وطاقم جنود المراسلة الذين يملأون الدار فى حضوره .. حتى بعد انقضاء زمن الألقاب بنصف قرن تقريباً ..

"داليا" شغبها من النوع الطفولى الصاخب الذى يؤدى إلى تحطيم أشياء قيمة بالمنزل. أما "مونى" فشغبها كلامى هادئ قد توجهه على إنه جزء من لعبة لكنه ينفذ إلى الصميم. عن طريق إحدى تلك اللعبات وجدت مونى أخيراً المتنفس الذى تشفى به غليلها من العلقات التى تنالها من كفوف والدتها لإرضاء داليا أو بمعنى أدق جدتها والدة داليا وزوج جدتها والد داليا.

تحضر الجدة لقضاء عشرة أيام كل عام معهم بالإسكندرية بدون "الباشا" وتصطحب معها داليا. أمام الكابينة التى

تقضيان بها نهارهما بشاطئ سبورتنج تلهو كثيرات من صديقات داليا بالمدرسة. تفرح بهن داليا وتهرع إليهن، فتسارع "مونى" بتعريفها بنفسها على إنها إبنة أخت طنط "داليا" فتنخرط داليا فى بكاء حار قد تتوقف بعده عن النزول إلى الكابينة لبضعة أيام .. تنحبس فيها "مونى" معها أيضاً بالبيت .. لكن دون علقات فهى ببساطة لم تقل سوى الحقيقة !!

تتوارى داليا فى هامش شعور مونى فى مراحل الطفولة المتأخرة وبدايات المراهقة حيث ينتقل والدها فى طول البلاد وعرضها كمحافظ لأقاليم وسطى ونائية ويصطحب معه داليا والجدة فى الأجازات الصيفية .. فضلاً عن انتقالهم للسكن فى حى الروضة حيث بيت عائلة الأب التى انخرطت فيها "داليا" بشكل مكثف .. إلى أن كان يوم بعث العلاقة وإعادة الاكتشاف .. تذهب داليا مع المدرسة فى رحلة ليوم واحد إلى الإسماعيلية بعد طول استجداء واستعطاف الأب "المحافظ" وسيكون المرسى الأخير للأتوبيس هو مصر الجديدة والأب فى إحدى مهماته خارج البلاد .. يتصل الأب هاتفياً ويعطى أمراً بأن تقضى داليا الليلة لدى أختها الكبرى والدة "مونى" حتى يحضر ليأخذها بنفسه فى الصباح . "مونى" الآن فى منتصف العام الثانى الثانوى حيث كانت قد بدأت ضحكتها الكبرى مع آدم ... و"داليا" من وجهة نظرها تنتمى إلى عالم غريب عليها ليس به لعبات مثيرة .. مدرسة راهبات صارمة .. بنات فقط .. يتحدثن الفرنسية ذات القواعد الكثيرة المربكة وليست كالإنجليزية المتحررة .. لغة الأغنيات الراقصة والأفلام المبهرة .. تحضر "داليا" منهكة من الرحلة. تستقبلها موني في غرفتها استقبالاً شبه رسمى تحاول أن تكسر جموده بسرد حكايات المدرسة التي تعرف مسبقاً أنها لن تستهوى داليا. تفاجأ بداليا وقد انخرطت فى ضحكات دامعة على حكايات "مونى". بالطبع تعرف "داليا" المثل الفرنسى القائل بأنك إن أردت أن تستحوذ على قلب امرأة فلتضحكها. تدخل بدورها فى تنافس

على الحكايات الطريفة عن مجتمعها الذى لا تعرف عنه مـــونى شيئا ... عائلة الأب الكبيرة فـــى عمـــارة الروضـــة .. تتحـــول ضحكات مونى إلى صرخات لاهثة تكتمها حتى لا تـــوقظ أهـــل البيت .. فالساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل ..

– سمعتى مغنى جديد إسمه "خوليو إجليسياس؟ تقول داليا

– ما بحبش الأغانى الفرنساوى. ترد مونى

– بس خدى حطى الشريط وإسمعيه. تقول داليا

– ده مكتوب على العلبة "جوليو". تقول مونى

– آه بس بينطقوها بالأسبانى "خوليو"

تنساب أغنيـــات Je n'ai pas changer و Vous les femmes بلكنته الفرنسية المتكسرة وأحباله الصوتية الناعمة الملتاعة لتذوب الفتاتان فى النغمات والمطرب وتدخلان فى لعبة ثلاثية مشروعة لجميع جمهور المستمعين .. داليا/ مونى/ خوليو .. يرتفـــع آذان الفجر من الجامع المجاور للبيت ..

– هتصلى ؟!

– OK

تتوضآن من الحوض نفـــسه ويغـــرق بيجاماتهمـــا رذاذ الصنبور المفتوح عن آخره .. إكتسبت "مونى" عادة الصلاة مـــن محاكاتها لممارسات الجدة والدة الأب وأم سمير مربيتها العجـــوز التى كانت تمسك بمسبحة طويلة بعد الصلاة وتضعها حول رقبتها فى الأوقات المتبقية من اليوم .. أما "داليا" ذات الحـــس الـــدينى الأعلى فقد اكتسبته من تسللها للصلاة يومياً دون علم الراهبة الأم فى كنيسة المدرسة.

بعد التشهد وإلقاء السلام يسود هدوء مفاجئ ...

– "على فكرة إنتى كنت بتصعبى عليّا لما كانت "تُتى" بتـضربك عشانى وإحنا صغيرين .." تقول داليا.

– وإنتى كمان كنتى بتصعبى عليّا أما كُت بقول لصحابك "طـنط داليا" .. يدخل هشام وقد انتفخت جفونه وانتصبت شعيرات رأسه بطريقة مضحكة ..

– منكو لله .. معرفتش أنام من صوتكوا طول الليل

تنظران إليه ثم إلى بعضهما البعض وتكملان ضحكتهما الطويلة التى لا تدريان إن كان مبعثها هيئـة هـشام الفكاهيـة أم لاجترارهما ذكريات النكات الليلية أم فرحتهمـا ببعـث العلاقـة وإعادة الاكتشاف.

❖❖❖

عطيل

تبدأ "داليا" عملية إعداد "مونى" نفسياً للشهور الترانزيت الأربعة التي ستقضيها بالألسن، انتظاراً لدورها فى الترم الثانى بالجامعة الأمريكية. كانت "داليا" قد سبقتها العام الماضي لكن إلى قسم اللغة الفرنسية. تعرف داليا ولع مونى باللعب بالأقاصيص والشخوص وتغيير إسمها وأسماء والدها وأعمامها عدة مرات على مدار سنوات طفولتها بينما ظلت هى فقط "داليا" وما كان يتغير فى والدها هو اللقب السابق لإسمه، لكنه فى كل الأحوال "عبد الرحمن باشا". تماماً مثل شهرزاد وشهريار، تتم كل الحكايات وهما تتوسطان إما سرير الجدة/الأم ببيت الروضة أو سرير مونى بغرفتها فى مصر الجديدة أثناء الأجازة الصيفية وتشدها داليا بسلاسة إلى عالمها الجديد الذى يتسع الآن لأميرة ونادية ونهاد زميلاتها بقسم اللغة الفرنسية ، حكاياتهن .. عائلاتهن .. مغامراتهن بتفصيل دقيق وتحليل مستفيض .. إحدى صفات داليا المكتسبة والتى ساهمت بشدة فى إنجاح عملية إعادة الاكتشاف وبعث الصداقة بينهما .. لكن شهرزادنا تلتهم الحكايا بسرعة تفوق مقدرة الراوى وتطمع فى المزيد .. تتشعب داليا بنفس الكفاءة إلى دوائر أوسع .. عالم أولاد الجامعة المصرية الذى ما تصورت "مونى" أن داليا لتنخرط فيه أبداً لتحقق لها مزيداً من الدهشة .. ماجد ونبيل وأحمد من ثالثة إنجليزى وثانية فرنساوى ويوميات ضاحكة متجددة ...

مونى: دول كانوا فى مدرسة إيه؟

داليا: معرفش .. ليه يعنى؟

مونى: يعنى اتخرجوا من فيكتوريا ولا سان جـــورج ولا الجيزويت ولا إيه؟ مسألتيهمش؟

داليا: معرفش. مدارس عربى عادية ...

مونى: .....!!

أهذه حقاً داليا؟ الفتاة نفسها التى أصيبت بأزمـــة نفـــسية حين اضطرت للجلوس فى فصل واحد مع الأولاد فـــى الـــصف الأول الثانوى بمدرسة الليسيه المختلطة بعد أن أنهـــت دراســـتها الإعدادية فى مدرسة الراهبات، فاضطر والدها إلى استخدام نفوذه ونقلها في منتصف العام إلى مدرسة راهبات ثانوية حتى لا يفقدها تماما؟! أهى داليا التى تشير من مقعدها بإصـــبعها الـــصغير لأى جندى مراسلة فيهرع إليها فى الحال قائلاً سمعاً وطاعـــة؟ داليـــا التى جابت أرجاء العالم تحت جناحى والـــدتها المنتميـــة لحقبـــة تاريخية سابقة ووالدها العسكرى الصارم تصادق أولاداً يكبرونها بعامين ومن مـــدارس عربـــى ؟! متـــى وأيـــن اســـتمدت تلـــك الجرأة ؟!

لن تنطق "مونى" بدهشتها كالعادة فالحكايات كانت أوفـــر وأغزر من الدهشة بالإضافة إلى ميزة أساسية حُرمت منها مونى بتركها المدرسة .. شلة جاهزة وبضمان من داليا ..

مبنى الكلية القديم والذى أشرف على بنائه السيد رفاعـــة رافع الطهطاوى شخصياً يقع فى إحدى حوارى حـــى الزيتـــون المجاور لمصر الجديدة. مبنى يماثل المدارس الابتدائية الأميريـــة ولكى تصل إلى بوابته عليك باجتيـــاز محطـــات ثلاثـــة: عربـــة الطعمية بصهدها وسحابة الزيت الداكنة المنبعثة منها. ثم عربـــة الكبدة المقلية ونكهات الثوم التى لتخترق أعتـــى جيـــوب أنفيـــة

فتمزقها .. برك المجارى الطافحة بطول الشارع الضيق ، وأخيراً ذلك السد المنيع المكون من جسد الحمار النائم على جانبه الأيمن فى المكان نفسه لثلاثة أيام متتالية أمام باب الكلية.

تسأل "مونى" فى سخرية إن كان الحمار إنتظاماً أم انتساباً .. ثم تسأل فى براءة حقيقية: هو مش بيصحى خالص .. بيفضل نايم هنا طول النهار ؟!

تنفجر الشلة ضاحكة. تظن "مونى" أن الإفييه الأول قد أعجبهم إلا أنها تكتشف أنهم يضحكون من سذاجتها لأن الحمار قد مات من أيام أربعة ...

فى السكشن تتراص الآنسات الأنيقات فى الصفين الأماميين. "مونى" لا تبالى بصف الجلوس طالما سوف تستمتع بشعر كيتس ود.هـ.لورانس أو أحداث رواية "عمدة كاستربريدج" لـ "توماس هاردى" .. المادتان التى قررت مونى حضورهما للمتعة فقط .. الشعر والرواية أما مادة الـ Phonetics التى حضرتها من قبيل حب الاستطلاع فقد أصابتها باختناق حقيقى .. كيف تقضى ساعتين أو أكثر أمام شخص يعلمها كيف تنطق الـ P والـ B؟ المادة التى كان لها أكبر الأثر فى أن تتمسك بمبدئها فى التخلى عن الألسن والالتحاق بكلية توفر لها معرفة جديدة وبالإنجليزية أيضاً التى تتقنها أساساً ولا تحتاج لمن يلقنها لها كطفل يتعلم الكلام ..

لا بأس بشلة "داليا" لكن الحوش البائس وأفخر ما فيه عربة الكبدة التى انتقلت من الشارع إلى داخل الكلية والشباب الذين يجلسون إلى جوارها أثناء المحاضرات ممن لفظتهم جميع محافظات مصر ليسرحوا أثناء الشرح فيعبثوا بأصابعهم فى أنوفهم وهم يرفعون ساقاً على الكرسى تاركين الساق الأخرى

على الأرض لتحرس فردتى الشبشب الجلد البنى الـذى ابتـاعوه خصيصا من أجل الوجاهة الجامعية .. كانت تشعرها أنها تجلـس فى عالم غير عالمها .. بيد أنها كانت تخلق منه حكايات ضاحكة فى المنزل طالما توقن إنه عالم مؤقت.

– تدخلى أسرة الفراعنة وتيجى تمثلـى فـى مـسرحية Othello (عطيل)؟

يسألها نبيل .. رابعة إنجليزى

لعبة !! تشعر مونى بالإثارة للمرة الأولى مـن أسـبوع وتوافق على الفور. مسرحية لكاتبها المحبـب شكـسبير .. لـم تدرسها ولم تقرأها وها هى الفرصة قد واتتها لتكون جزءا منهـا .. تبدأ فى حفظ مقاطع من دورى ديدمونة وإيميلا حيث لم توزع الأدوار بعد. لا تدرى لماذا تنجذب بشدة إلى ديدمونة تلك الرقيقة السلبية التى حين تقع عليها إساءة لا تقاوم أو تعتـرض. فلـيس بمقدورها سوى أن تعانى وتعانى بشدة .. ومع ذلك تدرك "مونى" بحاستها الإخراجية الغريزية إنها لا يمكن أن تجسد ذلك الـدور، فديدمونة باهرة الجمال ولا يصادفها رجل من نـبلاء أو أعيـان فينيسيا إلا وقع فى غرامها ومع ذلك فقد أحبت عطيل ذلك العبـد الأسمر ذا الأصول المغربية .. تعرف "مونى" جيدا إنها ليست فى نصف جمال ديدمونة الخارجى ولذلك يحتمل جدا ألا يتم اختيارها للدور .. ومع ذلك لا تشعر بالإحباط فهى تدرك جيدا إنها تملـك جمالا داخليا يشع ألوانا مضيئة على ملامحها العاديـة فيجعلهـا محط أنظار المحيطين ويؤهلها لأدوار أخرى كثيرة .. لا بأس بـ "إيميلا" فهى طيبة أيضا وتلعب دورا محوريا فى تحويل الأحداث .. تلك التجهيزات كلها تتم بداخل عقل "مونى" فلا المخـرج ولا الأستاذ المكلف بالإشراف قد حضرا بعد .. يعتذران عن موعـد

تلو الآخر والتشبث باللعبة متمكن جداً من "مونى" وأيضاً نبيل الذى يفترض أن يلعب دور "عطيل".

داليا: مونى .. إلحقينى .. جابو مدرب من فرقة رضا عشان يعمل فريق فولكور فى الكلية .. ما تيجى ندخل نتعلم خطوات كام رقصة وبعدين نطلع منه ..!! أنا كده كده مش ممكن أكمل وأطلع ف الحفلة .. بابا يموتنى !!

مونى: بس أنا اشتركت فى Othello !

داليا: سيبك منها .. عشان خاطرى .. ما المخرج ما بيجيش .. فاكرة زمان أما كت أمنية حياتنا نطلع رقاصات فى فرقة رضا ؟!

النشاط الوحيد الذى شاركهما فيه هشام فى طفولتهما هو حينما كان يتوسط الغرفة الداخلية بشقة إسكندرية حاضنا طبلته. يأمر داليا ومونى بأن تقفا أمامه فى صف مستقيم ثم يبدأ فى ضبط الإيقاع مع إملاء الحركات عليهما .. مد اليد اليمنى واليد اليسرى خلف الرأس .. خطوة من القدم اليمنى إلى الأمام ثم إلى الخلف ثم نصف لفة وبالعكس .. نفس الخطوات مع تغيير الأغنيات التى يحفظانها جيداً ..

"هالا هاله ع الجنيه يابا يابا ع الجنيه .. وآدى رقصة بنت البيه يا بابا يا بابا ع الجنيه. قولى لأبوكى فِز .. عُمُره ما داق الوِز!

فى تلك اللحظات يناديهم الكبار لتناول العشاء الجماعى ويسألونهم كنتوا بتلعبوا إيه؟

يرد هشام فوراً: كُنا بنلعب دكتور.

سألهم الباشا الذى كان حاضرا فى ذلك اليـــوم "عـــايزين تطلعوا إليه ؟!" خفضت "مونى" رأسها فلم تكن تدرى حقـــاً مـــاذا تريد أن تكون .. وكعادة كل الأطفال صاح هشام "دكتور"!. التفت الباشا إلى "داليا" وقال فى صرامة و"داليا" طبعـــاً عـــايزة تبقـــى دكتورة !" فخفضت "داليا" رأسها كدليل علـــى الموافقـــة .. إلا أن الوضع نفسه الذى اتخذه رأس مونى وداليا كان يدل على أنهمـــا تريدان أن يمتهنا المهنة نفسها والتى يحلمان بها ولا يقدران على التصريح بها .. راقصات !!

❖

يضع "صلاح" المدرب ساقا فوق الأخرى مصدراً حذاءه للفتيات اللاتى تتراصصن أمامه فى وضـــع مـــستقيم خافـــضات الرأس فى فصل فارغ بآخر الكلية .. زجاجه متكسر ويعلو الغبار كل أركانه – يرفع يده بالسيجاره بعد أن يأخذ منها نفـــساً عميقـــاً ويبدأ فى تعريفهم بنفسه .." أنا أفتخر بأنى رقاص .. مكتوب فـــى بطاقتى كده .. راقص .. لفيت العالم وف كل حتـــة أقـــولهم أنـــا رقاص" .. يعتصر السيجارة بطرف حذائه فيظهر بروز كرشـــه والزوائد الدهنية بجانبى جسده .. غالباً لم تكن موجودة فى عهـــده السابق قبل أن يحال إلى التدريب .. تشعر مونى بالاختناق مـــن المكان وعنجهيه المدرب وتنظر إلى داليا نظرة تفهم مغزاهـــا .. ترد عليها "داليا" بنظرة استعطاف أن تبقى من أجلها ..

"هنـــدخل مـــسابقة الجامعـــة الـــسنة دى بموشـــحات .. والتواشيح دى لو متعملتش صح يبقى إسمها حاجة تانية .. تشيلوا النقط من ع الشين وتحطوا نقطة على الـــ ح!" يقول صلاح.

تلوى "مونى" شفتيها وتنظر إلى السقف.

- "شغلوا الكاسيت" يعطى صلاح أمراً للطالبة التى تقف أمامه.

يا غريب الدار بأفكار .. كم تخطر ليلا ونهار
أدعوك لتأتى بإسحارى .. بجمال فائق الأقمار
ياللا لا ياللا لا

ينتصب صلاح واقفاً ثم فى ثوان يتحول إلى أفعى متلوية تتحرك كل ذرة منها بأنوثة طاغية مع المحافظة على صرامة انفعالات الوجه ..

الثغر يغنى ويمنى والطرف كحيل بدار ..
والقلب أسيرٌ هيمانٌ ما بين بحور الأشعار ..
ياللا لالا .. ياللا لالالا

يتكرر المشهد مع خطوات عجباً لغزال ويا مراكبى والبت بيضا. تنفتح شهية داليا للعبة الجديدة ...

داليا: "مونى" .. هيعملوا فريق كورال .. إنتى طول عمرك فى الكورال .. تعالى إدخلى معايا .. نحفظ أغنيتين وبعدين نسيبه ..

مجنونة أنت مثلي يا داليا .. تعشقين اللعبة ولا تجرئين على التصريح بها .. جرأتك التى اكتسبتها فى عامك الأول لم تكن إلا غطاءً كثيفاً لضعف يتمكن منك ويخرسك فى أوقات حيوية .. تماماً مثلما حين خفضت رأسك كدليل الموافقة على أنك تريدين أن تصبحى دكتورة .. وحين كنت تخفضين الرأس الصغير نفسه فى خشوع أمام الهيكل بكنيسة المدرسة وترددين صلوات قداس الصباح ولا تجرئين أن تقولى لقد صليت بالبيت ..

أنا مسلمة .. أو أن تصرخى فى البيت إنك اختلست صلاة الظهر فى الكنيسة من خلف ظهر الراهبة الأم ..

في بروفة الكورال تغطى نبرات داليا ومونى على أصوات الأخريات.

يا عشاق النبى صلوا على جماله ..
دى عروسة البيه تعالو بنا نسندها له

❖

"صلى على حضرة النبى" .. مكتوبة بخط طفولى ومزركشة بكف خمسة وخميسة وعين الحسود على واجهة عربة الكبدة التى تتصدر الكافتيريا .. تعلوها مثلثات متقابلة من الفن الشعبى النوبى تحدث تناغماً مع المريلة البيضاء التى يرتديها جلال وهو ينهمك فى رص سندوتشات الكبدة. بالنسبة لشخص لم يتناول إفطاره فالرائحة الفواحة تستطيع أن تداعب كل مراكز الجوع بالمخ ... تأتى مونى على نصف رغيف الكبدة فى ثوان وتمسح طرفى فمها بمنديلها الورقى.

تهمس مونى لداليا: تعالى معايا الحمّام .

يصيح نبيل: رايحين فين؟ مش هتشربوا شاى ؟

داليا: رايحين للعميد .

مونى: ليه قولتى له إننا رايحين للعميد .. أنا عايزة أروح الحمّام !

داليا: ما هو الحمّام إسمه العميد .

مونى: طب وإيه يعنى لو قلنا له إننا رايحين الحمّام؟

داليا: أوففففـــــ ...

تدفعها بشدة إلى الأمام.

حمّام الكلية هو أقل الأماكن التى تتردد عليها "مونى" .. ليس لأنها تأنف استعماله بل لكثافة سحابات دخان سجائر البنات التى تملؤه .. مونى أيضاً لا يزعجها النيكوتين أو ضرره بالصحة بل تربكها ظاهرة كل تلك الفتيات اللاتى يتكدسن بالحمام ليملأنه بالسحب الرمادية وأعقاب السجائر ثم يتمضمضن ويلكن لبان النعناع وكأن شيئاً لم يكن ...

ربما لأنهن يستعملن الحمام لأغراض أخرى يطلقن عليه اسما غير إسمه.

المرة الأولى التى دفعت فيها "مونى" الباب العملاق المحشو برسومات هندسية إسلامية من خشب الأرو اللامع للحمام المجاور لقاعة إيوارت بالجامعة الأمريكية، لم تجد فيه أحداً سوى نفسها فى المرآة الضخمة التى تكسو كل حوائطه فوق " الرُخامة " الممتدة بطوله أيضاً والتى تسقط فيها الأحواض الصغيرة على غرار الفنادق الخمس نجوم. الأصوات الوحيدة التى يمكن أن تسمعها فيه فى غير لحظات التكدس هو صوت الضغط على زر ماكينة الصابون المثبتة فى الحائط أو المجفف الكهربائى التى تضع تحته البنات الكفين المبتلتين فتجفان فى الحال. قد يحدث شفاط الهواء بعض الإزعاج على الرغم من أنه ليس هناك ما يدعو لاستعماله فلا توجد أية فتيات يدخنّ به .. لأنهن ببساطة يمسكن بسجائرهن الفاخرة واضعات ساقاً فوق الأخرى على الكراسى البامبو الوثيرة المنتشرة بين ملعبى التنس وكرة السلة أو فى حديقة الفسقية الشرقية أو حتى بداخل الفصول المكيفة .. ومع ذلك حين تهب إحداهن واقفة لتقول إنها ذاهبة إلى الحمام تقول: أنا رايحة الـ Vestier (الحمام بالفرنسية) وكأنهن تهربن من إسمه أيضاً بالإنجليزية التى تعتبر بمثابة اللغة الأم فى ذلك المجتمع ..

لماذا كل هذا الهروب من ذكر الاسم الأصلى لمكان يرتاده الجميع عشرات المرات يومياً ؟!

داليا: سرحانة ف إيه؟ مش حطيتى روج .. ياللا بأة !

تخرج مونى مع داليا إلى الفناء لتفاجأ بعلاء شاكر (الذاهل) يتلفت باحثا عنها. وما أن تواجهه حتى تشعر إنه شخص قادم من زمن آخر ..

علاء: المدرسة عاملة رحلة بكرة بورسعيد .. أنا حجزت لك ..

مونى: لأ طبعاً مقدرش .

علاء هو الوحيد من الدفعة الذى رسب فى الثانوية العامة ومازال يعيش أحداث المدرسة.

يزيد علاء فى إلحاحه ومونى فى رفضها . يعطيها ظهره ملوحا بكلتا يديه ومدمدما بألفاظ غير مفهومة يتخللها إسم آدم ليكون هذا هو آخر مشهد تقع عليه عين مونى من علاء شاكر قبل أن تعرف بعدها بسنوات خمسة بنبأ وفاته فى مصحة لعلاج الإدمان بألمانيا.

❖

مونى: قُلتى لأبوكى على رحلة الأقصر وأسوان ؟

داليا: لسه ... وانتى ؟

مونى: لسه !!

لعبة أخرى اشتركتا فيها فى الوقت نفسه وبالأداء نفسه لكن عن دون قصد ومن غير اتفاق مسبق. "مونى" تقول لوالديها إن والد "داليا" عبد الرحمن باشا قد وافق على أن تذهب إلى رحلة الأقصر وأسوان.

"داليا" تخبر والدها إن أُنكل "حسن" والد "مونى" قد وافق على أن تطلع مونى الرحلة نفسها. "إذا كان عبد الرحمن باشا بكل صرامته وتحفظه قد فك قبضته عن "دوللى" فمن السخف أن أتشبث برفضى للرحلة. "هكذا فكر والد مونى و"إذا كان حسن وهبى بحمايته المفرطة وخوفه الزائد على مونى قد سمح لها بالذهاب .. فلا يصح أن أبدو أمام العائلة بمظهر الأب الديكتاتور". فكرة طرأت على رأس والد داليا.

❖

فى محطة مصر انتظاراً للقطار، تقف والدتا مونى وداليا خلفهما تلقنانهما نصائح لا تسمعان منها شيئاً بل حتى لا تريان حولهما شيئاً. الفتاتان فى حالة هستيرية تدوران حول نفسيهما ولا تستطيعان التحكم فى ضحكاتهما أو كلماتهما التى تخرج دون إرادتهما وكأنهما مخمورتان. الفكاك من أسر السنوات الثمانية عشرة يكاد يصيبهما بلوثة. أحياناً ما تسبب الحرية المفاجئة صدمة عصبية لا تقل خطورة عن قبضة الأسر. "مونى" و"داليا" لم تذهبا إلى أية رحلة بالمبيت طوال حياتهما بل ولم تبيتا خارج البيت إلا فيما ندر وخاصة مونى ..

فى منتصف هستيرية السعادة تنطلقان نحو حمام المحطة غير واعيات .. توقظهما نظرات الفزع وشهقات الاندهاش الصادرة من الرجال الصعايدة الذين يتراصون بعرض الحمام

رافعين جلابيبهم. تفر مونى وداليا خارج حمام الرجال مرتكنتين إلى بعضهما البعض حتى لا تسقطا من فرط الضحك ...

النظرة الفزعة نفسها أطلقتها "مونى" و"كريستين عدلى" وآخرون فى اليوم السابق حين ذهبت مونى لتوديع آدم بالجامعة الأمريكية قبل سفرها إلى الرحلة.

فتاة هندية هيفاء هدباء كحيلة تشيح بدلال عن فتاها المصرى المتيم. يركع على ركبتيه فى منتصف فناء الجامعة فى حركة تمثيلية حتى ترضى عنه. تستمر فى دلالها. يضع وجهها بين كفيه وينظر طويلا فى عينيها. تستدير بجسدها وتربع ذراعيها.

يهمس فى أذنها ويضع قبلة صغيرة خلفها. تتسمر الفتاة فى مكانها. تتواصل القبلات فى المكان نفسه ليحملها الفتى ويدور بها فى لفة كاملة قبل أن يسقطا سوياً على حشيش الحديقة ويغيبا فى دنيا من الهمسات الناعمة ...

مونى وكريستين والأخريات ممن تنتظرن دورهن فى الترم الثانى وأتين لاستكمال بعض الأوراق .. يقفن على الجانب الآخر ويرصدن طقوس المصالحة الغرامية. يفتحن أفواههن وعيونهن الذاهلة فى بلاهة وصمت لا يقطعه سوى تعليق شابين أمريكيين مارين من أمامهن يذمهن بالوقاحة !! This is rude ليطأطئن رؤوسهن خجلات وليقررن بعد ذلك مرة واحدة وإلى الأبد عدم تتبع أية ممارسات حميمة حتى لا يُتهمن بالوقاحة.

❖

فى قطار الدرجة الثالثة بدكاته المعدنية الباردة ونوافذه ذات الفتحات التى تدخل تيارات رفيعة من صقيع يناير، تتخذ مونى ودااليا مكانيهما متجاورتين. الساعة تتجاوز منتصف الليل لتزداد التيارات المتسربة برودة مع ترجرج القطار واتخاذه لسرعته القصوى بين الحقول. تخرج كل من مونى ودااليا بطانية سميكة وتلف كل منهما بطانيتها حول جسدها.

تدير "مونى" رأسها فى الظلام محاولة معرفة أمكنة الأخريات لتقع عيناها على مشهد لم تتوقعه ولا حتى فى خيالها .. أميرة تجاور أحمد ويتلفحان ببطانية واحدة. عادل يضع رأسه على كتف نيرة تغطيهما البطانية نفسها. هدى تداعب خد حسين بيد وترفع طرف البطانية التى تضمهما باليد الأخرى والمشهد يتكرر حتى منتصف القطار تقريباً.

مونى: هو فيه إيه .. إحنا فين؟

داليا: ولا تجسسوا !

مونى: تجسسوا إيه .. دول كأنهم نايمين فى سرير واحد جنب بعض.

داليا: إنتى مش قلتى مش هتبصى على حد تانى من ساعة ما الخواجات هزأوكى إمبارح؟

حتى نيرة التى دخلت معهما الفولكور لتلعب لعبتهما نفسها وتتركه بعد ذلك لصرامة والدها لواء الجيش .. إستمرت من خلف ظهره فى الفولكور لتصبح الراقصة الأولى على مستوى الجامعات ولم يوافق والدها على الرحلة إلا حينما ضمن إنها ستكون تحت رقابة ابن خالتها الطالب فى رابعة إنجليزى وها هما يغطان فى نوم لذيذ تحت البطانية نفسها.

يمر برأس "مونى" طيف "سها الشناوى" رفيقة المدرسة والتى التحقت بكلية الطب. ترى هل تعاهد كل العسكريين الصارمين على المعاملة نفسها لبناتهم وتعاهدت البنات جميعهن على التصرف بالطريقة ذاتها؟ هل يحتمل أن تكون سها الشناوى متلفحة الآن ببطانية سميكة بجوار زميل دراسة فى قطار ما؟!

اللافت أن جميعهن يتخذن من التعبير الجسدى الحركى المنغم مهرباً من ضغوط داخلية تكاد تفجر الجسد نفسه. فحينما اشتهت سها الشناوى " آدم"، لم ترغبه لذاته بل صرحت "لمونى" إنها تمنت نفسها تراقصه بدلاً منها. ودااليا حينما انضمت للفلكلور، لم تكن تطمح فى تحقيق مجد شخصى أو فى سماع تصفيق حاد – فقط تحريك ذلك الجسد بصورة منغمة منظمة. وأخيراً "نيرة"، إبنة الأب الأكثر تحفظاً والمتلفحة ببطانية واحدة مع ابن خالتها – لم يرضها سوى أن تكون الراقصة الأولى على مستوى الجامعات!

مونى: تفتكرى فيه بينهم حاجة؟

داليا: مين دول؟

مونى: آدم وريم

داليا: تلاقيكى بيتهيأ لك!

فى اليوم السابق الذى ذهبت فيه "مونى" لتوديع آدم لاحظت عليه تغيراً لا يلمسه سوى شخص قريب. تعمد أن يشعرها إنه فى مكانه وإنها وافدة على عالمه. أفرط فى المزاح مع زميلاته الغريبات عليها بعد أن قدمها إليهن ثم تلك الزميلة المطربة التى تشترك فى فرقة غنائية مع شقيقها كان يشعل لها سيجارتها بطريقة غير عادية ثم يختلس نظرة بطرف عينيه ليتأكد أن مونى تلاحظ المشهد.

داليا: وهىّ كانت بتتصرف إزاى؟

مونى: معرفش .. عادى .. بس هو كأنه كان عايز يحسسنى إن فيه حاجة !

يدس نبيل رأسه وسط رأسيهما من الخلف ليفزعهما بغنائه الجهورى الذى شرخ همساتهما ورجرجة القطار الرتيبة.

نبيل: كُنا تلاتة أربعة

داليا: كُنا تلاتة أربعة!

نبيل: قابلتنا واحدة مدلعة

داليا ومونى: قابلتنا واحدة مدلعة!

نبيل: قام واحد فينا إنبسط

داليا ومونى والمجموعة المحيطة بهما: قام واحد فينا انبسط!!

نبيل: إندار ورقّص لاربعة

داليا ومونى والمجموعة المتلفحة بالبطاطين: إندار ورقص لاربعة !!

نبيل: الهُن الهُن

القطار كله: الهُن الهُن !!

الهُن الهُن .. الهُن الهُن !!

❖

بينما تتعثر "مونى" فى خطواتها حاملة حقيبتها الضخمة بكلتا يديها وهى تنزل من على سلم القطار المرتفع .. تمتد يد غليظة لتخطف الحقيبة وقبل أن تفيق "مونى" من الصدمة تشير

لها يد أخرى بأن تقذف لها بحقيبة يدها الأصغر حجماً .. ثم يد ثالثة تمسك بكفها لتضمن لها نزولاً آمناً من القطار .. يتكرر مشهد الأيادى الخشنة التى تتلقف الحقائب من الأيادى الناعمة حتى يغادر الجميع القطار.

أجساد الأولاد تنوء بالأحمال المضاعفة التى تميل بهم على الجانبين وتجعلهم يسرعون الخطى وهم يجرجرون أقدامهم. والبنات تسير خلفهم ما بين ضاحكات ومثرثرات ومبهورات بالمكان الجديد بينما يطوحن أيديهن الفارغة من الأحمال.

لو كان معكم إيهاب ميلاد أو وائل حسين أوحتى هشام لجعلوك تحملين عنهم حقائبهم .. بل لو كان معكم آدم لربما هرعت أنت إليه وتوسلت أن تحملى عنه أى شىء قد يربك خطواته أو يؤلم ذراعيه.

الليالى الثلاثة التى تقضيها بالأقصر لا يغمض لها خلالها جفن وتمضيها فى السرير المجاور لـ داليا فى تبادل دورى شهرزاد وشهريار حتى تضجر باقى البنات من النور الذى يتخلل جفونهن المغمضة والحكايات التى لا تنتهى.

وأثناء انتظار القطار الذى سيحملهم من الأقصر إلى أسوان يتمرد الجسد المنهك على سوء استخدامه فتتهاوى "مونى" تدريجياً على رصيف المحطة لتذهب فى نوم عميق.

فى أضغاث أحلامها تشعر بفلاشات كاميرات تسجل مشهد النوم الفريد على الرصيف تصاحبه ضحكات وثرثرة. تفتح نصف عين لتلمح يداً أخرى غليظة تدس بطانية ملفوفة تحت رأسها. ثم ارتطامة ناعمة من سويتر رجالى يقذف من أعلى على ذراعيها وتتقلب على هبدة أقوى من بطانية سميكة تغطيها بالكامل

وكلمات متقطعة بصوت يشبه صوت نبيل .. "سيبوها يا جماعة باين عليها تعبانة قوى !"

وبينما كان يترجرج بهما قطار الدرجة الثالثة من أسوان عائداً إلى القاهرة إلتفت كل المجموعة حول الفتاتين فى ذهول حيث انخرطتا فى بكائية مريرة لا تتوافق وسلسلة الضحكات التى بدأتاها منذ عامين فى القاهرة. كانتا تتمنيان لو تستيطعان الإمساك بعجلة الزمن لإيقافها عند تلك اللحظات وبالفعل كانتا قد تمكنتا من ذلك دون أن تدريا ... فالصورة الأولى فى الألبومين التوأمين كانتا تكاد أن تشدو بصوت العزبى ..

على أرضها اتمختر يا أسطى
دول مبسوطين آخر بسطة
ولف بينا .. أى والله
أجمل مدينة .. صحيح والله

بينما كانتا تركبان كأميرتين فى هودج الحناطير الذى يضم الفتيات .. والفتيان يتقافزون ويصفقون ويتغنون بكلمات لأقصر بلدنا فى محاكاة دقيقة للمشهد نفسه فى "غرام ف الكرنك". فى خلفية الصور الثانية والثالثة والرابعة نقوش حجرية ومرشد يشير بإصبعه لتفسير سر عظمة الأعمدة ذات الخمسة آلاف عام بينما كان كل ما يهم مونى وداليا هو أن تثنيا كفوفهما بتلك الطريقة الفرعونية وكأنهما تريدان أن تخلدا نفسيهما مثلما خلد المصرى القديم نفسه بهذه التماثيل..

سيمزق عبد الرحمن باشا ألبوم "داليا" بالكامل تحسباً لأى خطر قد يحدق بها لو شاهده أى عريس قادم. فماذا يقول عنها لو رآها وسط كل تلك العُصبة من البنات والشبان؟ وستتوقف "داليا"،

الشهيرة عائلياً بـ "دوللى" و"مونى" عن مناداة بعضهما البعض بهذين الإسمين فهو دليل على تلك العلاقة الأسرية التى نجحت فى تفريق قلبيهما لسنوات طويلة .. "مونى" عن طريق العلقات لإرضاء "دوللى" – و"دوللى" بإثارة غيرتها من هدوء وتفوق "مونى". كان يمكن خلال تلك الفترة المُهدرة أن تصنع كل منهما أختا وصديقة للأخرى. سيكون إسماهما الجديدان فى كل أحاديثهما الحميمة عن بعضهما البعض حتى فى محيط الأسرة ... "منار وهبى" و"داليا عبد الرحمن". إنهما الإسمان اللذان يدلان فقط على رابطة زمالة وصداقة ومحبة اختيارية..

ثم تلك الصورة التى تبدو للرائى على أنها تضم مونى منفردة وهى مغمضة العينين ومستلقية على جانبها على رصيف المحطة ... بينما هى فى الواقع تضم جزءا من كل من أراح لها رأسا على نسيج وثير أو أدفأها بحنان صوفى ما كانت تظن أنها يمكن حتى أن تتقبله من أولئك الذين انزعجت من صحبة داليا لهم لأنهم من خريجى المدارس العربى ويتحدثون بلكنة إنجليزية رديئة ويرتدون سراويل حالت ألوانها وقمصان على موضة العشر سنوات الماضية ولا يشبهون بأية حال أولاد شلتها بهيئاتهم المهندمة اللامعة المعطرة. أما أشد ما أزعجها عندما وقعت عليهم عيناها هى تلك الشوارب الكثيفة المدلاة فوق شفاههم والتى كانت تحدد بكل صرامة إنهم ليسوا إلا ... رجالا !

فى تلك اللقطة الصماء نفسها والخالية من التعبير، سيدرك ذلك الجسد المستكين كم يبدو جميلا وهو يتلقى العون فى ضعف .. وإنه قد ظل طوال الثلاثة عشرة عاما الماضية يلعب لعبات خشنة وإن من حقه الآن أن ينعم بقليل من الرفق ...

وستتعرف صاحبته للمرة الأولى على بُعد خفى بداخلها .. نبشت عنه وأظهرته تلك الأيادى الغليظة التى امتدت لتحمل

عنها حقائبها وتساعدها على النزول بسلام وتدس تحـــت رأســـها الراحة وترمى فوق جسدها الحنان !

لم تكن ديدمونة حمقاء حين تخلت عن كل وجهاء ونبلاء فينيسيا لتقدم أيامها فى ضعف جميل إلى ذلك العبد الخشن الحنون "عطيل" !

❖❖❖

إشارة مرور

"يا مدام ... يا مدام. رخصك لو سمحتى" !

تنبهها ثلاث خبطات على زجاج عربتها المغروسة وسط ميدان التحرير. يتحرك سيل السيارات على جانبيها بعد أن يتلاشى موكب الجنازة الذى هربت مونى من مواجهة عجزها أمامه وحزنها على صاحبته بالدخول فى آلة الزمن الخاصة بها.

ترفع رأسها ببطء وتفتح عينيها على جسد فارع للكونستابل المتجهم الذى يمد لها يدا ضخمة.. تخرج يدها فى آلية برخصتى القيادة ..

" طب لو سمحتى اتفضلى . إنتى كدة سدّه الطريق "

إنتهى الوقت المحدد للعبة حتى قبل أن تبدأها. هل تترك الأمور معلقة وتمضى إلى حال سبيلها .. مثلما فعلت هى وداليا وتركت كل اللعبات بلا نهاية محددة ؟! تحفظ مقاطع هامة من دورين أساسيين ثم تتخلى عن المسرحية برمتها .. تتدرب على خطوات رقصتين أو ثلاثة ثم لا تصعد لأدائهما على المسرح ... تشدو ببضع أغنيات من تراث جدير بأن يتجدد، لتردد صداها فقط بين جدران تلك الغرفة المغبرة المنسية بآخر الكلية أثناء البروفات. فلتكملى ولو لعبة واحدة ..

الكفان تلفان عجلة القيادة فى الآلية نفسها التى أخرجت بها مستندات براءتها المرورية...

تتحسس العجلات المطاطية أسفلت طريق ألفته وداسته دون توجيه حقيقى منها لسنوات أربع. فقد كان عقلها الواعى فى تلك اللحظات يغيب فى عوالمها الخاصة ليتولى "منصور" بحركاته البهلوانية إقتحام لا وعيها فيخرجها بسلاسة من سيارتها ليحتل مكانها خلف عجلة القيادة ثم ينطلق كسهم طائش فى شارع الشيخ ريحان ليختفى هو والسيارة من مجال الرؤية وتدلف هى يومياً كالمسحورة إلى عالمها الجديد.

❖❖❖

آه يا واد يا ولْعَة

إسم الدور الذى ستؤديه فى تلك الفترة / اللعبة يتناقض تماماً والأجواء التى تدور فيها الأحداث. فستحمل كل من البطلة والسنيدة وربما باقى الأدوار المساعدة الإسم نفسه .. "ولعة" .. على الرغم من أن الأسماء الحقيقية للأبطال هى "شيسكا" و"ريكى" و"ناندو" ..

تبدأ "مونى" أيامها الأولى بجامعتها الحلم بقلب يضخ حزناً وحنينا لأيام عطيل وغرام فى الكرنك .. فتلك هى اللعبة المفضلة الأولى لدى "مونى" .. الالتصاق ذهنياً بتلابيب فترات مضت وإسدال ستارة ضبابية على الأحداث المعيشة إلى أن يرتفع ذلك الستار تدريجياً، فيتلقى مسرح الأحداث الإضاءة كاملة .. لكن حين يكون الوقت المحدد للعرض قد أوشك على الانتهاء ..

دائرة الغربة الجديدة هى دائرة فعلاً بالمعنى الحرفى .. تتوسطها مونى بين أربعة عشرة طالباً وطالبة فى الغرفة ٣٠٢ بالطابق الثالث بالمبنى الرئيسى بشارع الشيخ ريحان. والصعود إلى الغرفة ٣٠٢ يتطلب صعوداً آمناً لطابقين على السلالم الرخامية العريضة .. ثم الكفاح فوق السلم الحديدى المؤدى إلى الطابق الثالث .. حيث يصيبها النظر من فتحاته الواسعة بالدوار ويمنحها إحساساً بأنها ستسقط من تلك الهوة مضرجة فى دمائها، خاصة لو خانها كعب حذائها المرتفع المدبب أو وهى تجاهد لكى

لا يلمح من يصعدون وراءها أية لقطة كاشفة عبر تنورتها الضيقة التى تغطى الركبة بالكاد.

والغرفة ٣٠٢ هى إحدى فصول الـ E.L.I المخصصة للطلبة الذين لم يحصلوا فى اختبار ميشيجان على المجموع المطلوب فى اللغة الإنجليزية الذى يؤهلهم لدخول السنة الأولى مباشرة. وذلك المجموع هو ٨٦% حصلت منه "مونى" على ٨٥% لأنها لم تكن حتى تدرى بوجود تلك النماذج التى لابد وأن تستذكر لكى تعبر سلسلة الامتحانات بسلام .. والتى ستعرف لاحقاً أنها كانت بحوزة الكثير من رفاق المدرسة الذين التحقوا معها بجامعتها ولم ترد سيرتها على لسان أى منهم.

ونزلاء الغرفة ٣٠٢ وكل الغرف التى يسبقها رقم ٣٠٠ يعاملون معاملة الأطفال وليس كطلبة جامعيين. فلهم مواعيد محددة تبدأ من الثامنة صباحاً وحتى الثالثة ظهراً. تتخللها فترة فسحة لنصف ساعة فقط يستطيعون خلالها تناول المشروبات والحلوى. قد تضيع معظمها فى رحلة الهبوط والصعود لذا يؤثر معظمهم البقاء بذلك البرج العالى ويكتفون بالتفرج على الطلبة المتحركين فى حرية تامة بفناء الجامعة، مثل سجناء قلعة عاتية يأتنسون فقط بمرور الأقدام الثقيلة لحراسهم خارج الزنازين ....

كل هذا الهوان ولازلت متشبثة بالحلم. مازالت أمامك الفرصة للعودة إلى الألسن واللحاق بما فاتك على غرار طلبة الجامعات المصرية الذين "يلمون" المواد فى الشهر الأخير. إلا أن هذا الأسلوب لا يناسبك فأنت تهوين التمتع حتى بما تدرسين والمتعة أختٍ التأنى. أيضاً بشرك المتفائلون بأن من يمرون على الـ ELI أولاً. يحصدون تجارب وخبرات عميقة وتتسع دوائر معارفهم اللغوية والمعلوماتية بدرجة أكبر ممن يلتحقون بالسنة الأولى مباشرة .

حينما كنت محسوبة على النخبة المتفوقة كنت تعزلين كأصحاب الحالات الخطرة فى فصل خاص .. وحين هبطت عن الحد الأدنى للتفوق عزلت أيضا فى تلك الزنزانة ذات الأجهزة الصوتية عالية التقنية والمقاعد الوثيرة ومكيف الهواء البارد كعصفور مرفه محبوس فى قفص ذهبى بحصن منيع .. بينما آدم ينعم باللعبات الحية فى أرض الحواديت وربما يكون قد دخل فى دويتو غنائى حالم أو راقص بدونك وربما تحول الدويتو إلى واقع. قد يكون الآن فى الكافتيريا يشعل سيجارة لصديقته المطربة أو ... . يقولون الأفكار لها أجنحة. تطير بك الأفكار أعلى كثيرا من مستوى الغرفة ٣٠٢ بشارع الشيخ ريحان. بل ربما تحلقين أعلى من الدور الستين بناطحة سحاب فى نيويورك تطلعين على فكرة مازالت فى حيز خيال عالم أمريكى .. تدلين بدلوك فى الـ Uthenazia أو قتل الرحمة وتبهرك فكرة الـ Cloning ويطرأ على بالك كل من تعشقينهم من رواد اللعبات المنغمة وعلى رأسهم معبودك سيد درويش وخوليو إجليسياس .. ستناقش تلك المسألة بعد ذلك بما يقرب خمسة عشرة عاما فى الصحف ووسائل الإعلام على أنها قضية ساخنة طازجة وستعرف وقتئذ باسم " الاستنساخ " ..

يرفرف العصفور أعلى وأعلى تدفعه رياح الحركات النسائية .. تقضى الليالى الساهرة فى عمل عرض لكتب غيرت العالم: "الأمير" لماكيافيللى، "ثروات الشعوب" لآدم سميث، "كفاحى" لأدولف هتلر ثم تهيمين عشقاً فى "خطابات إلى ميلينا" و "يوميات خاصة" لـ "كافكا"..

هل ستخونين لعبتك القديمة وتخوضين فى لعبة الأفكار؟ حين تمتزج الفكرة بالحدوتة تضيف لها بُعدا أعمق وأكثر نضجا.. لكن من منا لا يشتاق إلى خزانة لعباته القديمة؟ تتوقين بشدة إلى الهبوط إلى دنيا الحواديت الخالصة، لكنك حبيسة الغرفة ٣٠٢

طول اليوم. تمن عليكم المدرسة بعقد جلسة مناظرة لكتاب "الأمير" لماكيافيللى حول الفسقية.

تتنسم "مونى" الهواء الطازج وتتظلل بسماء شاسعة لكنها لا تزال تحت أسر الجدران الوهمية للغرفة ٣٠٢ . يمر آدم برفقة فتاة ذات نحافة لافتة. يتعمد أن يتضاحك معها خابطاً كفه بكفها ويتلكأ قليلاً حتى يستقر فى مركز رؤية مونى.

أثبتّ يا آدم ذكاء ملحوظاً حين خدرتنى تماماً وأعشتنى فى وهم عدم قدرتك على التحصيل لتفاجئنى بعد ذلك بمجموعك الذى تجاوز درجاتى بما يقارب العشرة بالمائة. أخفيت عنى علاقتك المريبة بوكيلة المدرسة وجذبتنى كغريب منزو بينما أنت عميل للسلطة. أنت إذن على درجة لا يستهان بها من الذكاء فلماذا لم ترشدك فطنتك إلى أنك لست بحاجة إلى إثارة غيرتى للفت الانتباه؟ أو لم تقرأ التحذيرات الخاصة بامرأة البرج نفسه الذى تنتمى إليه؟ إياك وأن تشعل الغيرة فى قلب امرأة العقرب .. سيلتهب قلبها حتى الغليان فتأتى النار المستعرة على ما تملكه من مشاعر تجاهك، لتحصل على نتيجة عكسية .. تكون فى أحسن الأحوال نفوراً بدافع الكبرياء وإحساس بالخطر يؤدى إلى تباعد نفسى أصيل. هل أهداك ذكاؤك إلى أن هذه هى الطريقة المثلى للتخلص منى ؟

يحتدم النقاش حول ماكيافيللى. تفاجئين بصدى صوتك يردد I hate Machiavelli .. فالغاية مهما كانت لا تبرر الوسيلة إن كانت دنيئة ! الرذاذ الخفيف الذى يرسله خرير المياه المنسابة من النافورة يدغدغ أعصابك قليلاً فتتوهين مع الفتحات الضيقة فى الواجهة الأرابسك للقاعة الشرقية. تشعرين كأنك جارية حسناء فى زمن أندلسى.

لم يكن وصلك إلا حُلمـــا .. فى الكرى أو خلسة المختلس
يا زمان الوصل بالأندلس .. يا زمان الوصل بالأندلـــس

يتلبسك حنين لمبنى متهالك بشارع ضيق فى حى الزيتون .. يتطلب الوصول إليه اجتياز أبخرة زيتية محروقة منبعثة من طاسة بلون القار لعربة طعمية ثم التقافز بخفة فوق قوالب الطوب الموضوعة بنظام مدروس لاجتياز جداول مياه المجارى الطافحة

❖

شهرزاد تتضور جوعاً للحكايات ولكى يصل المرء إلـــى مرحلة الإشباع لابد وأن تنقلنا الحدوتة إلى عالم أكثر جمالا .. أو قد يكون أكثر قبحا من عالمنا .. لكن الدخول فى تفاصيله يدهشنا ويصل بنا إلى المتعة لأنه ببساطة عالم الحدوتة غير الحقيقى ..

فى الثالثة ظهراً حين تفرغ مونى من عالمهـــا المُعـــيش والذى يمنحها وجعاً تلو الآخر تهرع نحو الباب الرئيـــسى أمـــام قاعة " إيوارت " لتلقى شيسكا وتقفان سوياً فى انتظار العربة الـــ ١٢٨ البيضاء ..

" هاى ولعة" تقول مونى

"هاى ولعة" ترد شيسكا

تأكل عجلات السيارة أسفلت الشارع بسرعة تفوق الريح وتتوقف أمامهما فجأة ليحدث صوت الفرملة صريراً مدوياً. يغادر منصور السيارة.

شيسكا: "لو العربية دى جرى لها حاجة هصلّحها علـــى حسابك يا منصور." تأخذ شيسكا مكانهـــا خلـــف عجلـــة القيـــادة تجاورها مونى.

يقفز منصور على الكبوت الأمامى ويدق بعنف على الزجاج بعد أن تبدأ العربة فى التحرك ..

- " مش هاخد أقل من جنيه النهاردة يا إما همّوت نفسى تحت العربية ".

يأتى منصور بمزيد من حركاته الانتحارية مستحلفاً إنه ليفضل أن يموت فى هذا المكان على أن يقبل خمسين قرشاً فقط. تقرر مونى إنها لو امتلكت عربة لن تتركها لمنصور ليعبث بها وربما قذف بجسده تحتها ليجلب لها مصيبة. تناوله شيسكا بقية الجنيه وتنطلق بمونى نحو عالم اللعبة الجديدة.

أمام محل مجوهرات "هالجيان" تترك شيسكا مونى فى السيارة لتتبادل بضع كلمات مع "ريكى" بداخل الدكان ..

لم تتصور مونى أبداً إنه سيكون لها مكان ثابت ويومي في تلك السيارة نفسها التى كانت تحدث الضوضاء حين كانت تأتى بها شيسكا محملة بالشبان والبنات أو حين كانت تملؤها بأطفال أشكالهم غريبة فيتظايطون مهللين ..

الاسم الحقيقى لشيسكا هو فرانشيسكا، تقطن فى الطابق الأول بالعمارة نفسها التى تسكنها "مونى" .. شيسكا تكبر مونى بسنوات ثلاث. الأمر الذى جعل مونى تشعر أنها تنتمى لفصيلة عمرية بعيدة ولم تسع للتقرب إليها ... لشيسكا شقيق يدعى "فرندناندو" أو "ناندو" يماثل هشام فى العمر ويلعب الألعاب الرياضية نفسها مثله. كرة القدم والتنس. يعيش العالم المنطلق ذاته الذى تحياه شيسكا ..

أكثر من نصف شباب العمارة والعمارات المجاورة يشتهون شيسكا على الرغم من أنها ليست على درجة كبيرة من الجمال. فهي ممتلئة قليلاً ومتوسطة الطول. ترتدى ملابس بسيطة تتحرر من أسْر التقاليد. تشارك ناندو أخاها معظم الـ "تى شيرتات" والشورتات وفى الشتاء تتقافز بخفة فى حذاء كاوتشوك وبنطلون جينز لاصق .. إلا أن شعرها الأملس الذى يتوقف فجأة قبيل كتفها العارى صيفاً وشورتاتها الساخنة وشباشبها ذات السيور التى تشبه الصنادل الرومانية الموازية للأرض تشعرهم إنها من عالم غير عالمنا فينجذبون إليها ككائن غير حقيقى. تحادثهم بتلقائية وحرية قد تدهشهم وتشعرهم إن مِرادهم بين أصابعهم .. وفى تلك اللحظات نفسها يدركون تماماً أنه المستحيل بعينه ..

أيضاً لم تَغرِ مونى أو أى من بنات العمارة من شيسكا ولم يتطلع أى من أوَلاد العمارة بما فيهم هشام لمحاكاة ناندو للسبب نفسه – الجميع يشعرون أنهما غير حقيقيين ..

أما الكبار فقد كانت كل علاقتهم بكبار بيت شيسكا وناندو هى إلقاءِ تحية الصباح والمساء والتهنئة بالأعياد على سلم العمارة .. تماماً كالدور الذى يلعبه الجار المسيحى الطيب فى الأفلام والمسلسلات العربية الذى لا يؤثر على سير الأحداث لكن يراد منا أن نخرج بعبرة أن الوحدة الوطنية بخير وعافية .. إلا أن عالم شيسكا فى الواقع لم يكن عالم الجار المسيحى التقليدى، بل يشبه عالم يهود حى الظاهر فى روايات إحسان عبد القدوس. عالم الحلم بالنسبة لبنات وشباب الأحياءِ المجاورة الذين يستمتعون فقط بالتفرج عليهم عن بعد وكأن مكتوباً على أجسادهم ممنوع الاقتراب أو اللمس .. دخان الشواء المنبعث من التراس الفسيح فى حفلات " الباربيكيو " ليلة وصباحيات الأعياد .. الصرخات الفرِحة لحظة إضاءة النِور مرة أخرى بعد الثانية عشرة ليلة رأس

السنة يعقبها صخب القاء الأطباق الخزفية من الشرفات وتكسيرها على طريقة الاحتفال اليونانية ثم إنطلاق سرب السيارات لمشاهدة شروق عام جديد عند سفح الأهرامات .. زوارهم من ذوى البشرات البرونزية والشعور الكستنائية لا يخطئهم أى مطل من الشرفة ، إنهم ضيوف نعيم رزق ...

وبرغم هذا التغريب البائن فإن الأستاذ نعيم رزق قبطى من شبرا ذو أصول أسيوطية .. إلا إنه حين تزوج من السيدة ليندا اللبنانية الأصل غيرّ ملته إلى الكنيسة المارونية التى ينتمى إليها معظم مسيحيى لبنان وقدم الذوبان فى الثقافة الأخرى هذا المزج الفريد ..

❖

لم تكن لحظات لطيفة تلك التى عاشتها مونى قبيل دخولها لأول مرة لشقة شيسكا فلقد تطوعت والدتها نيابة عنها بأخذ الموعد من شيسكا حتى تساعدها على تحسس طريقها بجامعتها الجديدة ..

وعلى الرغم من سحر عالم شيسكا وإغوائه لمحترفى اللعبات إلا أن للعبة أصولاً ، وهى أن تكون بكامل رغبة من يدخلها وليس بناء على موعد مرتب من طرف ثالث. فشيسكا كانت دائماً تحت عينيها ولم تفكر للحظة بمصادقتها.. ربما خوفاً من اختراق هالة محيطة بأهل البيت كله توحى بالتعالى أو النفور من عالم العمارة المتجانس.

تشعر مونى بخدر لذيذ يسرى فى جسدها منذ لحظة أن فتحت لها الخادمة وأجلستها فى الصالون. الشقة تبدو أكثر اتساعا من كل الشقق التى تعلوها. قطع الأثاث تحف فنية متناثرة فوق

أرضية من الرخام اللامع وقطع السجاجيد الصغيرة المزدانة بنقوش هندسية زاهية. أبانوس البيانو الأسود البراق تحرسه الأباليك الكريستال المثبتة أعلاه تكاد أصابعه تعزف لحنا بلا عازف. تابلوهات البخارة الروسى والهندى بألوانها الصريحة تعلن بجمال عن نفسها فوق الحوائط البيضاء المحايدة. لكل ركن ذكرى ولكل قطعة حكاية. كل شىء لامع ونظيف ومبهر ...

شهرزاد الآن تعيش أروع حالات التجلى حتى قبل أن تبدأ اللعبة. ترحب شيسكا بـ "مونى" بطريقة لا تتناسب ولقاء أول وتسلم عليها متبادلة القبلات لتذيب آخر قطرة جليد قد تكون عالقة بالمشاعر المتضاربة. تعترف لها شيسكا فى تلقائية طفولية أنها كانت ترقبها من الشارع وهى تمسك بقميص نومها من الخلف لتجعل منه فستاناً ضيقاً وتبدأ فى التراقص على الحافة الفاصلة بين التراس وغرفة الصالون .. كما كانت تشاهدها وهى تتمرن على الروك والسامبا مع هشام. تطلق شيسكا تنهيدة متبسمة وتتمنى لو كانت تستطيع أن تشارك ناندو هوايات مشتركة ثم تعبر لها عن ترحيبها بفكرة أن يصادق هشام ناندو ..

من يقفون فى الشرفات هم الذين يترصدون المارة فى الطريق وليس العكس. إذن كانت شيسكا هى التى تطلع إليها وتشتهى عالمها فى صمت. تطرب "مونى" للفكرة فتبدأ فى عمل رصد سريع لفقرات حياتها مع التركيز على المرحلة الأخيرة الخاصة بالجامعة المصرية مع تزيينها ببعض طرائف الأولاد مثل تلك الأغنية التى كانوا يتغنون بها فى الرحلات وترددها مونى مع التشديد على حروف المد ..

آه يا واد يا ويلعة .. خدها ونزل التيرعة.

مع أن شيسكا لا تعرف شيئاً عن إدمان مونى على تغيير الأسماء إلا أنها تفاجئها بأنها ستطلق عليها اسم ولعة ثم تتدارك إنها قد تسرعت لأنها تود أيضاً أن تناديها مونى بـ ولعة!

تتكاثف غزارة الحوار لتشمل قصة "شيسكا" مع "ريكى" .. ذلك الجواهرجى الأرمنى الوسيم الذى يسيطر على كل جوارحها وكم هى على استعداد لبذل أى ثمين لإرضائه .. فالحب وردة تحتاج إلى رعاية وسقاية .. تذكر "مونى" آدم على استحياء، فتنبهها شيسكا بأن تتوخى الحذر فإن أهم شىء هو الأصل والحسب .. ومثلما كان يدرك شهريار الصباح إمتد الحكى الحميم لساعات ...

بعد ساعة تقريباً من الليلة نفسها ستنطلق من المنور صرخات باكية بصوت شيسكا وهبدات ولكمات وشتائم قذرة موجهة إليها على لسان ناندو. يختم الأستاذ نعيم رزق المشهد بجملته المفاجئة قبل أن تسارع مدام ليندا بغلق النوافذ المطلة على المنور لحجب الصوت.

" يا بنت الكلب. مش هتقابلى الواطى إبن الواطى ده تانى أبداً !!"

❖

رحلات السيارة ١٢٨ البيضاء الصباحية من مصر الجديدة إلى التحرير تكون أكثر بهجة من رحلات العودة فى وقت الظهيرة حين تكون الأجساد قد أنهكتها المحاضرات أو الأحداث غير المحببة، فينعدم الكلام تقريباً خاصة أثناء التوقف المتكرر عند إشارات المرور ساعة الذروة، فتنشغل مونى بلف خصلتها الجانبية حول إصبعها وتتوه فى عوالمها. أما شيسكا فتسدل

قُصتها أمام عينيها وتبدأ فى فلق الشعيرات المتقصفة باستغراق حتى تبدأ آلات التنبيه التى خلفهما فى التذمر، فينتبها إلى أنهما تبدوان كمعتوهتين أطلق سراحهما توا من مصحة للأمراض النفسية.

تبدأ الرحلات الصباحية بصفارة قوية تطلقها شيسكا بوضع إصبعيها بين شفتيها ثم تصيح "ولعة" من بئر السلم، فتهرع إليها مونى فى إقبال وتفاؤل. تضغط شيسكا زر الكاسيت لتصدح "داليدا" بأغنيتها "أغانى أغانى". تبدأ الفتاتان فى ترديد كلمات الأغنية بصوت مسموع ولكنة ممطوطة فى محاكاة فكاهية لـ "داليدا". وقد تتطوع إحداهما بالتصفيق أو طرقعة الأصابع، بينما تقوم الأخرى بهز رأسها أو كتفيها فى إنسجام، قد يؤدى أيضاً إلى أن ينظر لهما راكبى السيارات المجاورة على إنهما لا تقلان عتها عن تلك الفتاتين المنهكتين العائدتين فى السيارة نفسها فى رحلة الظهيرة. تستمر رحلات الصباح والظهيرة منذ اليوم الأول فى الترم الدراسى ولأربعة شهور، هى عمر الحدوتة المكثف، حيث ستتخرج شيسكا بعدها، لتترك مونى تتغذى لبعض الوقت على ذكريات "ولعة".

أغانى أغانى أغانى .. وحشانى كتير وحشانى
أتذكرها وأغنيها .. ف ثوانى تروح وخدانى
لزمان الخير والفرحة .. بين أهلى وبين خلانى

❖

" مُمكن نعدى على ريكى فى المصنع؟ "سؤال اعتبارى توجهه شيسكا لمونى دون انتظار لردها .. أما الرد فسيظل عالقاً فى ذهن مونى ولن تخرجه إلى حيز الوجود أبداً .. "قد تتالين

بسبب هذا المشوار علقة تجلجل فى المنور وتوقظ كل سكان العمارة حين يعود والدك أو ناندو بعد منتصف الليل !".

صمت مونى عن الكلام المباح فى المسائل العاطفية هو قمة الحكمة التى اهتدت إليها من خلال خبرات سابقة مع زميلات وصديقات. فالنصح بالبعاد عادة لا يأتى بأية نتائج. البطل الأول فى تلك الحواديت هو الزمن. فهو الكفيل بتعرية الحقائق المستورة والتفريق والتمزيق ثم أخيرا المداواة والنسيان دون أن تخسر صديقة لن تستمع إليها وهى فى أوج الحدوتة حتى وإن كانت النهاية مرئية للجميع ..

فى المنطقة الصناعية بشبرا الخيمة تتوقف السيارة ١٢٨ البيضاء لتغادرها شيسكا وتتبادل حواراً مختزلاً مع الوسيم "ريكى" الذى لن تتبين "مونى" ملامحه أبداً عن قرب وكأنه أيضا غير حقيقى ، تماماً مثل شيسكا فى الماضى . تتسلى بسماع الأغنية نفسها ..

أغانى أغانى أغانى وحشانى ..
إنت إنت ولا انتش دارى
إنت إنت نعيمى ونارى ..
واللى باحبه برضه إنت
برضه إنت !

الإسم الأصلى لـ "ريكى" هو فريدريك هالجيان. أرمنى وُلد فى مصر وعشق ترابها ككثير من أبناء جيله من الأرمن الذين بدأت تتلاشى اللكنة الأجنبية من على ألسنتهم ومع ذلك لا يزالون مربوطين بالكبار الذين يعتبرون أنفسهم أقلية عليها الاستماتة للحفاظ على ما تبقى من أطلالها عن طريق التزاوج بين

أبنائها وبناتها فقط – كقبائل العرب العصبية التى تحرص على عدم مزج دماء دخيلة بدمائهم.

بدأ والد "ريكى" حياته بورشتين متواضعتين لتلميع النحاس وكبس دخان المعسل الذى كان يحصل عليه من تسريح فتيات معدمات لجمع السبارس نهاراً واستغلال مواهبهن المتواضعة على نواصى الأرصفة ليلاً .

إزدهر نشاط الخواجة هالجيان لتصير ورشة تلميع النحاس ورشة لتصنيع الذهب ثم محل مجوهرات هالجيان بوسط المدينة. وتطورت غرفة كبس المعسل لتصير شركة لتصنيع الدخان. أما الأنشطة الأخرى فقد اختفت تماماً ليصير الخواجة هالجيان وولده ريكى من ألمع رجال الأعمال فى دنيا المال والتجارة على الرغم من أن ريكى قد اكتفى بإتمام دراسته الثانوية فقط فى مدرسة نوباريان ..

❖

سوف تسهر شيسكا الليلة فى نادى " أرارات " للأرمن بمصر الجديدة، وتكون "مونى" فى الوقت نفسه فى حفل عيد ميلاد بالعمارة المقابلة للنادى. " بعد ما تخلصى عيد الميلاد، عدّى عليَّه نروّح سوا" تقول شيسكا دون انتظار لرد مونى.

تعلم مونى جيداً إنه لا دوراً حقيقياً فى تغيير مسار الأحداث لصديقة البطلة وإنما يسند إليها الدور من قبيل زيادة عدد الشخوص وإثراء العمل الفنى .. إذا التزمت بقواعد اللعبة طالما تدرك أن الأحداث ستستمر كما خطط لها سواء قبلت الدور أم اعتذرت عنه.

فى الحادية عشرة مساء .. الموعد المحدد للقيا أمام نادى " أرارات " لم تتعرف "مونى" على "شيسكا" إلا عندما نادتها وهللت "هاى ولعة" وقدمتها على عجلة لـ "ريكى" ثم أعطتها مفاتيح السيارة.

تغيب شيسكا بهيئتها الجديدة فى حديث ملتهبٍ مع "ريكى" بعد أن حجبت وجهه بشعرها الذى صار أكثر طولاً مع تلك التسريحة الغجرية المسترسلة والمتمشية مع تنورتها ذات الكرانيش متعددة الألوان وشبشبها ذى الكعب المرتفع المدبب والذى يكشف عن أصابع قدميها المطلية بالأحمر القانى من نفس درجة أحمر شفاهها .. ثم ذلك الخلخال الملتف حول قصبة ساقها مصدراً شخللة كالتى تصدر عن أقراط أذنيها ذات الجلاجل الفضية ..

فى حديثها الأول مع "مونى" قالت شيسكا إنها لتضحى بأى غالٍ لإرضاء "ريكى".

فقدت شيسكا بساطتها ! تضغط مونى زر الكاسيت :

أغانى أغانى أغانى .. وحشانى كتير وحشانى
يا جميل يا جميل .. على حبك بانلى دليل.

❖

فى تمام الثانية عشرة من الليلة نفسها ستهرع مدام لينـدا نحو الشباك المطل على المنور لإغلاقه ومع ذلك سيتردد صدى كسر زجاج وهبدات وسباب .. "وكمان لابسة له زى بنات الليل اللى كان أبوه بيسرحهم زمان !!"

العقدة فى تلك اللعبة التى ابتلعت "مونى" تماماً لم تكن فى كون شيسكا من ملة أو أصل يختلف عن أصل "ريكى" بل فى كون أن الأبوين كانا على صلة وثيقة ببعضهما البعض . شىء يشبه قصة "روميو وجوليت" مع فارق أن العائلتين الكبيرتين فى مدينة فيرونا القديمة كانتا على المستوى نفسه .. أما والد "ريكى" فقد كان عاملاً فى مصنع والد شيسكا لمنتجات النحاس ثم طرده والد شيسكا لسوء سلوكه لينطلق بما حصل عليه من أموال مشبوهة لممارسة أنشطته الوضيعة والتى يعرف تفاصيلها الدقيقة الأستاذ نعيم رزق.

والآن بعدما تساوت الرؤوس وتجاورت المصانع أخذ هالجيان يردد بين كل زملاء المهنة أن "إبنة نعيم رزق رامية نفسها على ابنى" فتتأجج النيران فى صدر نعيم وتكيل اللكمات لشيسكا بعد أن كانت تلك اليد نفسها تمسح فى حنان على شعرها الكستنائى الأملس أو تلتف حول كتفها حتى يبدو للرائى من شرفة العمارة إنهما حبيبان وليسا أبا وإبنة .. ومع ذلك فجولييت تصر على إكمال اللعبة وبلوغ النهاية التراجيدية المحتومة ..

❖

حفل الـ Welcome Party تم تأجيله لأكثر من مرة حتى إنه أقيم بعد دخول الجامعة بحوالى شهر ونصف ..

مع رحيل آخر شعاع للشمس تتألق السماء التى تظلل حديقة الفسقية الشرقية بطيف أرجوانى عميق يرحل هو الآخر لترحب الأرجاء بالليل القادم، بإضاءة تلك الثريات النحاسية العتيقة التى تزين أسقف وحوائط المبنى الرئيسى. النقوش الإسلامية الملونة بالقاعة الشرقية تزداد بهاء تحت الإضاءة الصفراء. تضاد ألوان المقرنصات ما بين البياض الناصع والبنى

الداكن لفتحات الأرابيسك بقاعة إيوارت تُدخل مونى فى جو من الأبهة التاريخية الأسطورية. تلك هى المرة الأولى التى تشهد فيها الحرم الجامعى تحت عباءة الليل المتلألئة. شىء يوحى بشجن حالم. تتلفت باحثة عن آدم. العطور الباريسية للفتيات تضوع المكان وتتضافر مع عبق العطور المركزة للفتيان. تتنسم خلطة عطرية مركزة تشبه تلك التى يحمم آدم بها جسده وتسبقه بأمتار. تتزايد ضربات قلبها وتلتفت فجأة لتجد المار بجانبها ليس آدم.

فى الآونة نفسها تنظر شيسكا فى كل الوجوه باحثة عن "ريكى" ، فقد اتفقا خلسة على أن يأتى برفقة أصدقاء له وكأنها مصادفة ثم يختفيان فى ركن قصى حيث أن ناندو قد أتى أيضا ليراقص صديقته الطالبة بالسنة الثانية.

يتوافد الطلاب الجدد والقدامى ليمتلئ المكان عن آخره بعد أن تبدأ الموسيقى ناعمة حالمة فى البداية ثم يرتفع الإيقاع تدريجيا ليصل إلى ذروته بنهاية الحفل.

وسط الجموع المتلاحمة وبدون ترتيب مسبق يقف الجسدان فى مواجهة بعضهما البعض وتدخل العيون فى حوار عاتب صامت .. تصدح "باربرا ستراايسند" برائعتها "Woman in love" أو "إمرأة عاشقة". تمتد يدها اليمنى لتتشرنق بداخل يده اليسرى ثم تستقران فوق موضع قلبه. المرة الأولى التى تدخل فيها الأيادى فى لعبة منغمة ناعمة. يسرى فى جسدها إحساس بوهن جميل كالذى انتابها يوم أن سقطت نائمة على رصيف المحطة، يستدعى الوهن الشعور نفسه فتحس بثقل فى جفونها ورغبة جامحة فى الذهاب فى نوم عميق.

قد تباعد بيننا محيطات
لكنك تشعر بعاطفتى .. وأنا أسمع كلماتك

أنا امرأة عاشقة وإنى لأفعل أى شىء
لأعيدك إلى عالمى .. وأحافظ عليك
- موسيقـــــى -

تستيقظ "مونى" على نقرات قوية منتظمة يصدرها قلبه فى باطن كفها اليمنى. ينسحب تدريجيا حتى يختفى تماما من مجال الرؤية. على موسيقى الروك يتقافز ناندو وصديقته .. يجذبها ويدفعها ويلفها بكفه القوية ثم يرفعها لأعلى ويميلها على الجانبين ليفوزا بالجائزة الأولى فى مسابقة الرقص.

مازالت شيسكا تتفحص كل الوجوه الوافدة .. لا أثر لـ "ريكى" وأيضاً لا أثر لـ "آدم".

فى السيارة الـ ١٢٨ البيضاء يستقر ثلاثتهم مونى وشيسكا وناندو. غالباً ما ترافقهما فى طريق العودة خيبة ما. يضغط ناندو على زر الكاسيت فى نشوة..

دايماً وياكو .. روحى سمعاكو
غايبة وهايمانة .. ف أغانى هواكو

- "مابتزهقوش م الأغنية دى؟" يكلم ناندو الفراغ

على قد الشوق اللى فى عيونى ..
يا جميل سلم
دانا ياما عيونى عليك سألونى ..
وياما بتألم

❖

على عكس كل رؤوس الفتيات التى تروح وتجئ مع تحركات ووثبات ذلك الفاتن الذى يرمح بملعب كرة القدم كفرس عربى أصيل، يتدلى رأس شيسكا إلى الوراء بينما تسترخى على الكرسى البامبو أمام الملعب.

تكاد مونى ألا تحتسى ولو رشفة واحدة من فنجان الشاى الذى نسيت إنها تمسك به وعليها أن تنهيه قبل انقضاء فسحتها الوجيزة .. تفتح عينيها فى ذهول كمن يشاهد كائناً هابطاً من كوكب بعيد ..

"ما نال أحد نصيباً من اسمه مثلما فعل هذا الـ "وسيم" " تقولها "مونى" لـ "شيسكا" مستفسرة منها عن أصل وفصل هذا المخلوق نادر التكرار .. هجين ممتاز من أم أسبانية وأب عراقى. نتاج تزاوج حضارة بابل ببلاد الأندلس. بشرة لفحتها شمس عربية. عينان خضراوان تشعان بريقا. عضلات مجدولة فى أذرع فتية وأرجل جامحة. خصلات شعر ملساء فاحمة تتدلى فى فوضى على الجبين. غجرى مغرور يَعلم كوامن مهاراته. يخلع قميصه بحجة سخونة الجو ويستمر فى العدو الاستعراضى ليحرز هدفاً فيهلل الشباب المشجع لفريقه ويمتزج تصفيق الفتيات بشهقات إعجاب خفيضة. الوحيدة التى على الحياد هى "شيسكا" فقد فقدت انبهارها بـ "وسيم كاظم" بحكم الإعتياد، فهو رفيق دراستها منذ الأمد وعضو الشلة المتاح دوماً ..

"عامل زى ما يكون موديل ف مجلة أزياء إيطالية .. لأ عامل زى ما يكون تمثال لإله إغريقى" تقول مونى نصف شاردة .. تبادرها "شيسكا": "يبقى هنعمل زى ما أرسطو قال"

مونى: "نعم" ؟!!!

عادة ما يجلس الملقن فى الكنبوشة ويلقن الممثلين أدوارهم التى يؤدونها وهم يتحركون على خشبة المسرح بينما تقوم شيسكا بدور الملقن وهى تجلس أمام "مونى" فى الغرفة نفسها وتمسك كل منهما بعدة تليفون.

على الجانب الآخر وفى حى الزمالك يتلقى "وسيم" المكالمة الغامضة محاطا بمجموعة أصدقائه/أصدقاء شيسكا.

تبدأ "مونى" فى ممارسة لعبتها المفضلة. تتلبسها شخصية فتاة ثرية مدللة تجلس فى ملل برفقة ابنة عمها باهرة الجمال. تقنع "وسيم" إنها تعرف كل شىء عن تاريخه وعن رفاقه الذين تتعرف على أصواتهم واحدا تلو الآخر بمجرد أن يمسكوا بالسماعة، بمساعدة شيسكا التى تحفظ أصواتهم عن ظهر قلب وتهمس بها لمونى بعد أن تضغط يدها على سماعتها. تنتهى المكالمة التى امتدت لأكثر من نصف الساعة بموعد بعد ساعة أمام فندق شيراتون بمصر الجديدة حيث سيقضى الجميع السهرة فى الديسكوتيك. تضع مونى وشيسكا السماعتين فى اللحظة نفسها حتى لا ينكشف أمرهما وتنفجران فى نوبة ضحك ..

مونى: "على فكرة .. هو أرسطو قال إيه ؟!"

شيسكا: أرسطو قال إن التهكم والضحك بالخداع والتمويه أو إننا نخلى شخص يتقمص دور شخص تانى أفضل منه .. ده بيدينا متعة شخصية. كمان الشاعر الفرنسى بودلير قال إن الضحك ده حاجة شيطانية وعشان كدة هو إنسانى جدا ، وإن فيه علاقة بين الضحك والشعور بالعظمة وكمان أحيانا بيكون دليل على التعاسة الفظيعة".

مونى: يا سلام .. ودول قالولك كدة بينك وبينهم؟

❖

استكمالاً للعبتهما تتلصص "شيسكا" عن بُعد علـــى بـــاب الفندق لترى إن كانت فعلتها الشيطانية المبهجة ستفضى إلى شىء أم لا .. لتجد الشبان الثلاثة فى أبهى ملابـــسهم وكامـــل هيئـــتهم إنتظاراً للفتاتين الوهميتين!

❖

كلما شعرت الفتاتان بالإحباط .. تطبقان ما درسته شيسكا فى دروس الفلسفة .. فيعطلان شعورهما بالألم مؤقتا وتنقران رقم "وسيم" على التليفون ..

أما المثير للدهشة حقاً هو استجابة ذلك الجـــواد الوســـيم الذى يعدو فى الملاعب نصف عار لهذا العبث الذى لا يؤدى إلى شىء سوى إمتاع مونى وشيسكا .. والأغرب هو ذلك البُعد الخفى فى شخصيته – ذلك الكائن البسيط القابع وحيداً فـــى شـــقته منـــذ رحيل أبويه عن الدنيا والذى يتشبث فى أوقات فراغـــه الطويلـــة بتلك الأوهام التى يعلم تماما إنها خدعة كبرى ..

❖

تقضى مونى صباحات الأحد فى الذهاب للبكـــاء علـــى أطلال "عطيل" و"غرام فى الكرنك" بحى الزيتـــون. تمـــر علـــى شيسكا لإلقاء تحية سريعة. تجد رامى بين أحضانها. طفل معـــاق ذهنياً تخصص شيسكا له ولغيره من ذوى الاحتياجـــات الخاصـــة

صباحات الأحد. ينقبض قلب مونى حين يحاول رامى أن يعبث بسلسلتها...

– "تفتكرى ريكى بيقرف منى عشان بقعد دايماً مع الولاد المتخلفين؟"

تغيب مونى مع كلمات من الكتاب المقدس منحوتة على لوح خشبى رفيع فوق مكتب شيسكا ، "لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله بل الذين يعملون بالناموس هم يبررون" (رسالة بولس الرسول – الإصحاح الثانى)

الوجه الآخر لـ شيسكا.

❖

سيحرص آدم على عدم التواجد فى الأماكن نفسها التى تضم "مونى" لمدة تزيد على الشهر. سيدّعى لبعض المعارف المشتركين أن "مونى" هى التى غضبت منه وقاطعته لأنه اختفى يوم الحفل!

كل ما ستحتاجه مونى فى فترة الغموض هذه هو حدوتة هائلة تبتلعها من واقعها دون أن تطحنها .. مثلما ابتلع الحوت سيدنا يونس دون أن يمسه بأذى .. شيسكا هى حوتها المنقذ..

ستمنع الاتصالات بين ريكى و"شيسكا" ويحاصران برقابة عتيدة من كلتا العائلتين. سينشر فى إحدى الصحف خبر الزواج السريع لرجل الأعمال "فردريك هالجيان" من إحدى جميلات عشيرته. وستعلن فى الأسبوع نفسه خطبة "شيسكا" إلى عريس تقليدى ذى مركز ومؤهلات عُليا من بلد والدتها. سيأخذها

ويرحل بعيداً. سيتبادل معها الشورتات وال "تى شيرتات" التى تصلح للجنسين. سيعشق أصابعها الصغيرة ذات الأظافر المقصوصة والمطلية بلون شفاف رقيق وبشرتها المغسولة بأشعة الشمس.سيملأ صندوق مجوهراتها بالخواتم السوليتير والباجيت وحبات اللؤلؤ المقتناه من كل بلاد الأرض لتلفها حول رقبتها وفوق فساتينها السوداء الكلاسيكية فى سهراتهما الرسمية وحينما تتحسسها تتذكر "ريكى" الذى كان يلهو بالماس والزمرد والياقوت بينما هى التى أهدته أزراراً ذهبية مرصعة بفصين من الروبى ..

فى إحدى المشادات العنيفة مع "شيسكا" حول "ريكى" سيزج "تاندو" بقبضة يده فى زجاج الشرفة، لتتمزق شرايين يده اليمنى العفية. سينصحه الأطباء باستخدامها بحرص شديد. سيتوقف عن الرقص تماماً ويقضى فترات النقاهة والعلاج الطبيعى برفقة هشام بعد رحيل "شيسكا".

ستتمكن "مونى" أخيراً من التحقق بوضوح من ملامح "ريكى" حين تتصدر صورته جميع الصحف الصفراء ومجلات الفضائح، حين يفقد جزءاً ضخماً من ثروته وزوجته الحسناء فى قضية أخلاقية. ستحرص "مونى" على جمع القصاصات الخاصة بالقضية فى ملف تحتفظ به لحين عودة "شيسكا" فى أجازة الصيف.

فى لحظة ما سيتغلب الفرس المغرور على الكائن المستكين بداخل "وسيم كاظم". وسيختار مُهرة فارعة تدق بكعبيها فى كل بقاع الأرض رقصا للفلامنكو وتزركش خطواتها الواثقة بصليل صاجاتها الأسبانية. حين يتكشف لها ذلك الوهن الجميل بداخله ستتمرد عليه وتتلاشى فى مكان مجهول من الكرة الأرضية حاملة معها قطعة حبيبة منه .. إبنهما الوحيد – فيخسر الجواد الراكض فى سباقه الوهمى.

وستمتلك "مونى" سيارة تذكرها بأيام الـ ١٢٨ البيضاء ولن تستعين كثيراً بمنصور فى ركنها .. لذا لن تندم لأنها لم تتولد بينها وبينه عشرة تجعلها تحزن عليه بعمق حين يتفتت جسده بالكامل فى حادث إرهابى يستهدف عربة وزير الداخلية المارق من شارع الشيخ ريحان .. لينجو الوزير ويصير منصور شهيد المكان الذى أقسم مراراً على سبيل المزاح إنه لن يموت إلا فيه.. وبين الحين والآخر ستضع مونى شريطاً ظلت تسمعه مع " ولعه " لأربعة شهور متتالية...

دى أغانى بلادى .. زادى وزوادى
وحنين الماضى .. حنين الماضى
دايماً على بالى .. عايشين فى خيالى
يا حبايب قلبى .. فى الوطن الغالى
– موسيقى –

❖❖❖

موجز الأنباء

لم يكن متخيلاً أبداً أن تقدم فسحة الثلاثين دقيقة أية لعبات ممتعة نظراً لقصر مدتها. ومع ذلك فإن موجز الأنباء فى أحيان كثيرة يكون أكثر بلاغة وتكثيفاً وتوصيلاً للهدف من النشرة كاملة.

تصطخب الكافتيريا بالهمهمات والضحكات الصادرة من المتحلقين حول المناضد أو المسترخين فى تكاسل على الأرائك الجلدية الوثيرة، بينما تهرع مونى منفردة نحو ماكينة الشاى لترفع الذراع المعدنى وتذيب ملعقة السكر فى الفنجان على عجل وتحاول أن ترتشفه ملتهباً قبل انقضاء الوقت المحدد للراحة، لتصعد مرة أخرى إلى الزنزانة ٣٠٢ بالطابق الثالث..

فى طريق العودة تعترضها الفتاة النحيفة التى ظهر بها "آدم" فى إحدى اللقطات العابرة أمام مونى لإثارة غيرتها. بلا مقدمات تحييها باسمها وتخترق الموضوع وكأنها على علم مسبق بجدولها وندرة الدقائق المتاحة لتبادل الحوار.

– "ندى عبيد .. أنا مع آدم فى كلاس السوسيولوجى . إنتى ليه مخاصماه ؟"

كعادة مونى فى أوج اللحظات الجادة .. ينكمش لسانها ويتشرنق داخل نفسه. هذا فضلاً عن وقع المفاجأة الذى ألجم اعتراضها على صحة الجملة فى المقام الأول.

لـ" ندى عبيد " هى الأخرى لسان من نوع فريد .. رفيع وحاد ويصيب الهدف فى هدوء تام مثل الطلقات كاتمة الصوت ويتماشى تماماً مع التكوين الجسدى لصاحبته. تشعر من تخاطبه أيا كان حجمه أو قيمته أنها تحوطه برعاية أمومية مصطنعة فى الثوانى التى تتواجد فيها معه وبنفس السرعة تتلاشى من مجال الرؤية.

تضع كفها المعروق فوق ذراع مونى وبنفس الوتيرة ترسل طلقتها الهادئة :"خلاص هتصالحيه؟ Ok؟ مش عايزة أى حاجة؟ See you" ثم تختفى من المشهد بانقضاء الوقت المخصص للفسحة تماماً.

كان التمهيد السابق ضرورياً لكى يقدم آدم على الخطوة التالية .. إستخدام فترة فسحة الثلاثين دقيقة كموجز للأنباء ..

لم يكن النبأ الذى أذاعه آدم خبراً عادياً، بل لعبة كبرى قدمها لمونى كقربان اعتذار، أسعدها ومنحها إحساساً فريداً بالرضى لاقتناء شىء غال ..

حادث المنصة .. مقتل الزعيم فى ذكرى يوم النصر.

سيقود آدم سيارة شقيقته ليوصلها لتقديم التعازى بالقصر الرئاسي نظراً لصداقتها بإحدى نسيبات الأسرة المنكوبة. ولكى يؤدى آدم تلك اللعبة كما ينبغى، سيحتاج إلى ربطة عنق سوداء .. "مونى" هى المُطالبة باختيارها له فى دقائق وجيزة .. مدة

الحصة التالية التى ألغيت .. وسيكون آدم حبيس فصله فى الاختبار نصف الشهرى .. حكاية كبرى تغذت عليها وكالات الأنباء بأنحاء الكرة الأرضية. حدث أليم قد يربك سياسات شعوب ويهز اقتصاد الأمة، تتورط مونى فى إحدى تفصيلاته الهامشية كلعبة لذيذة تمارسها للمرة الأولى.

لأول مرة تقودها خطواتها الحثيثة خارج باب شارع محمد محمود عبر الشوارع الجانبية الضيقة بباب اللوق المؤدية إلى الشوارع الرئيسية بوسط المدينة. تطل عليها العمارات العتيقة الشاهقة ذات الطرز المعمارية الأوروبية، فتشعر أنها سائحة فى بلد بعيد، تفتش عن تذكار نادر جدير بأن تهديه لشخص عزيز فى أرض الوطن.

لطالما ساهمت فى توفيق ألوان قمصان زاهية مع بنطلونات من الجينز الداكن أو الباهت لهشام .. لكنها فى النهاية كانت تشعر أنها ملابس للتداول اليومى الخفيف أو للهو الشائع فى الطرق والنوادى. أما أن يعهد لها آدم بتلك المهمة الجليلة دون صديقاته الأخريات لتتفرس النوعيات المختلفة لربطات العنق التى تجمع بين الأناقة والسعر المعقول وتنتقى فى النهاية ذلك الشريط الداكن الذى يليق برقبة شخص سيقود سيارة إلى عزاء شخصية زلزلت العالم فتلك هى اللعبة الكبرى .. ينبض قلبها بالإحساس نفسه الذى كان يملؤها وهى تضع ساقها الصغيرة فوق الأخرى فى صالون بيتها مع رفيقاتها الصغيرات وهن يلعبن "ضيوف" .. كان يتلبسها جنى أنثى كبيرة وهى تقدم لهن فناجين الشاى الفارغة فى حرص وتؤدة وتشعر فعلاً أنها .. امرأة.

تحكم قبضة يدها على العلبة الكرتون المستطيلة وهى تسرع الخطى نحو إحساس جديد ينتابها فى سلسلة لعباتها مع آدم.

تتخيليه فى الملابس الرسمية الكاملةٍ وربطة العنق السوداء تتدلى فى جلال على صدره .. رأته رجلاً.

❖

حدث عالمى آخر يتطلب ملابس ذات سمات خاصة سيحتاجها كل الطلبة فى الأول من نوفمبر من كل عام .. عيد القديسين أو حفل الهالوويين الذى يقام فى مبنى الدراسات الاجتماعية وبسببه يتكالبون على كواليس ومخازن مسرح نجيب الريحانى لانتقاء ملابس التنكر للحفل الأكثر بهجة على مدار العام ليس لأنه فقط حفل راقص صاخب بل لأنه يتضمن لعبة الفرار إلى شخصيات وأزمنة ماضية أو قادمة .. لعبة بدأت منذ القرن الثامن الميلادى .. الأصل فيها دينى حيث كان يتجمع مسيحيو القرون الوسطى فى الكنائس .. يقدمون مسرحيات صغيرة تعبر عن آلام السيد المسيح ومواجهته للموت وانتصار القديسين على الشر مستعينين فى ذلك بالأقنعة وملابس التنكر ..

وككثير من الأمور الأخرى .. يتوارى الغرض الأساسى منها ليبرز الشكل الخارجى فقط فيتحول عيد القديسين أو الهالوويين فى دول العالم الغربى من مناسبة لتذكر الآلام إلى عيد مفرح ويتحول حرم الجامعة الأمريكية فى ذلك اليوم إلى ساحة تضم سلاطين وجوارى، رعاة بقر وغوازى، كانسيٍ شوارع ومصارعى ثيران .. وكان الزى الأسهل والأكثر لفتاً للأنظار هو ذلك الروب القطيفة الذى تكتسى به طالبة وتلف خصلاتها على بكرات كبيرة وتمسك بإبرتى تريكو .. أو تلك البيجامة الكستور المقلمةٍ التى يجوب فيها أنحاء الجامعة طالب يتثاءب فى تكاسل واضعاً على كتفه بشكيراً للحمام ..

كانت مونى ترقب الاستعدادات والبهجة المسبقة عن بعد أثناء فسحة الثلاثين دقيقة دون أمل حقيقى فى المشاركة .. فلقد حلت بأسرتها مناسبة جنائزية أجبرتها على ارتداء أزياء استثنائية هى الأخرى .. ملابس بلون الحزن حدادا على جدتها سترتديها طوال أسبوع الهالويين وتشارك فى طقوس خاصة تقام بمنزلهم قد تمنعها من الخروج المسائى لأربعين يوما..

سيظهر آدم فى لقطات خاطفة تنفرط من عينيه فرحة ويخطرها فى موجز أنبائه بأن زيه فى حفل الهالويين سيكون مفاجأة. وستظهر معه صديقته المطربة فى لقطات أخرى يغلفها جو من التكتم والسرية. إلا أن آدم لن يترك مونى نهبا للظنون هذه المرة. فالمطربة هتى التى ستمده بالملابس التنكرية.

❖

المكان الثابت والدائم لعم فهمى مصور الجامعة خلف منضدته الخشبية أسفل سلم الكافيتريا، يعتبر مركزاً للتجمهر وبؤرة للسعادة والعيش مرة أخرى فى لحظات جميلة فائتة.

تكمن عبقرية عم فهمى فى أنه لا يترك لحظة أو التفاتّه أو حدثاً طريفاً أو مثيراً إلا وسجلته عدسته فى المناسبات والأحداث الليلية والصباحية بالجامعة .. ليرص تلك الشواهد فى عشرات الأظرف ولكل ذكرى أكثر من نسخة وأكثر من لقطة .. بحيث يستطيع أن يحتفظ الطالب فى اليوم التالى للحدث مباشرة بتلك اللحظات التى لا يريدها أن تغادر ذاكرته.

تتكتل الأجساد البشرية حول منضدة عم فهمى فى اليوم التالى لحفل الهالويين. ترتفع الصرخات الضاحكة وإشارات

الأصابع المفعمة بإثارة لقطات بعينها وكأن الحفل قد أعيد إحياؤه مرة أخرى ..

ستكون لقطات عم فهمى الفذة بمثابة عزاء لمونى عن عدم مشاركتها فى اللعبة وستتوق بشدة إلى التعرف على الشخصية الوهمية التى التبست جسد آدم ..

يسلمها الصور فى نشوة هستيرية وضحكة عريضة تحتل نصف وجهه. تتكرر اللقطات لامرأة خاصمها الجمال، تتمايل فى دلال لا يتناسب وطول قامتها الزائد. تكتسى بفستان أزرق لاصق وتزينه كرانيش على الصدر والذيل الذى يكشف عن ركبتيها البارزتين وساقيها الممصوصتين اللتين تظهران بالكاد من تحت ملاءتها اللف السوداء المزمومة حول جسدها .. ومن نفس لون فستانها تتوج ضفيرتيها بمنديل " بقويَة " مطرزة بالخرز تتدلى على وجه مستطيل ملون بأصباغ فاقعة هو وجه .. آدم.

تتصاعد كرات الدم الحمراء إلى وجه مونى وتتحول إلى بللورات عرق على جبينها. تقلب الصور بأصابع متشنجة محاولةً افتعال التركيز فى أحداث الحفل. مع انقضاء الوقت المحدد تقريباً للفسحة تتصنع العجلة لتلحق بالحصة التالية وهى تناوله رزمة الصور. ترتدى على شفتيها ابتسامة فاترة لمواكبة المسرة الكبرى التى تغمره وهى تردد "ظريفة!"

للمرة الأولى لم يسل لعاب "مونى" على لعبة مغرية كبيرة بحجم نصف الكرة الأرضية. هكذا كان الحال مع اللعبات المبهرة غالية الثمن التى كانت تخطف أنفاسنا لحظة خروجها من الصندوق .. عروسة كانت أم عربة براقة .. نراقبها عن بعد ونتباهى بها وهى تتحرك تلقائياً بالزمبرك أو البطارية .. ثم بعد أيام قليلة تدفن كبقايا مكسرة فى صندوق مغبر تحت سرير ما ..

بينما كنا نعود لاهفين إلى أوراق الكونكـــان والبـــصرة أو لـــوح الكارتون المرسوم عليه سلالم وثعابين وحين نقلبه نلهو فـــرحين بأزرار الليدو الملونة والتى كانت تستغرقنا لـــساعات وأيـــام ولا تكلفنا سوى قروش قليلة !

❖

فى موجز لاحق للأنباء سيخبرها آدم بأن زوج والدته قد أهداه دراجة بخارية " نبيتى ميتاليك " مطعمة بحليات من النيكـــل الفضى اللامعة فضلاً عن خوذة من نفس اللون والماركة الشهيرة .. سيمخر بها آدم عباب الطرق البطيئة والسريعة مخلفـــاً وراءه هالات ضبابية من البخار ومحدثاً ضجة كالتى كانت تصدر عـــن القطار اللعبة الفاخر الذى أحضره لها عمها مـــن الخـــارج منـــذ سنوات بعيدة ولا تدرى فى أية علبة كرتون تقبع أجزاؤه المفككة الآن !!

❖❖❖

Love Story
و
زقاق المدق

تتسلل إليك رغماً عنك فتحيطك بلزوجة دافئة، ثم تتصاعد تدريجياً حتى تصل إلى منتصف الأفق، فتنتشر سخونتها وتتركك تتقطر عرقاً وإرهاقاً. إنها شمس أغسطس الحارقة. تتساقط عمودياً على رؤوس مجموعة الطلبة ذوى الجنسيات المتعددة والذين ينتظرون خارج جامع "ابن طولون" ، بينما تقف المعلمة الأمريكية التى تكبرهم بأعوام قليلة بعد أن تقفز فى خفة من الأتوبيس الذى يقلهم، وتتفاوض فى حميمية مدهشة مع حارس المسجد. تناوله مبلغاً فيبتسم راضياً ويهيئ لهم بعض الوقت بداخل المسجد، فتنفتح الصفحة الأولى من كتاب للحواديت أوراقه صفراء وحروفه مخطوطة بعرق ودماء رجال ونساء ولت منذ قرون.

كانت مادة العمارة الإسلامية هى الخيار الوحيد أمام "مونى" فى الكورس الصيفى، فلم تكن لها، كطالبة مبتدئة، تلك الحرية المطلقة فى اختيار موادها مثلما سيكون الحال فيما بعد ..

اللعبة كبيرة وفاتحة للشهية. قديمة قدم الزمان. "قاهرة" العصور الوسطى. إحدى مدن ألف ليلة وليلة. كنوز معمارية. فتوحات وحواديت يضيف لها الخيال من المؤثرات ما يشتهى .. صليل سيوف .. سنابك خيول تثير غباراً .. مشانق فاجعة .. جثة رمز تاريخى محبب كطومان باى مدلاة على باب زويلة. مزيج

دماء وحروف وأجناس .. أرمن، أناضول، أتراك، مماليك، شركس. وحين تود خلايا العقل والقلب أن تأخذ هدنة من زمن صاخب، تتكئ قليلاً على الذاكرة القريبة .. "قاهرة" الحوارى الضيقة .. روايات نجيب محفوظ .. قصر الشوق، بين القصرين، السكرية. فتحات معشقة دقيقة .. عيون المشربيات. أرضيات رخامية كالحة تشع طراوة وقدماً. الأمكنة الحقيقية التى وطئها السيد أحمد عبد الجواد وتوالت عليها عشيرته. أزقة ودروب شهدت دلال "حميدة" فى "زقاق المدق" .. مقاه ودنيا فتوات بائدة. متشردون ومجاذيب ما يزالون .. أطفال رثة ثيابهم ، لزجة أنوفهم يمدون أيادى الاستجداء لينسجوا ألف أخرى من الحواديت .. أعلى نسبة استماع بلغتها "مونى" لحكايات ليست مروية على ألسنة أصحابها. فأبطالها إما رحلوا منذ قرون أو أحياء يرزقون ويستعينون على قضاء حوائجهم بالكتمان .. وما زاد الحكايا كثافة وغزارة هى تلك المدة القصيرة التى عرضت فيها .. شهرى يوليو وأغسطس .. مدة الدراسة الصيفية والتى تزامنت مع شهر رمضان .. فكانت الفتيات يتساقطن مغشيا عليهن، زيارة ميدانية بعد الأخرى، من فرط سخونة الجو ووعورة الطرق مع جفاف الحلق من أثر الصيام. أما ما كان يشد من أزر "مونى" هو ذلك اليقين برحلة عودة وشيرة فى المقعد المجاور لكريستين عدلى فى عربتها "الرينو" المكيفة .

كاسيت السيارة .. البطل الدائم للخلفيات والمؤثر غير المباشر فى إثارة الانفعالات المصاحبة للحدوتة، شجونا كانت أم أفراحا .. تديره "كريستين" فى حركة تالية لضغطها على زر المكيف. تنساب موسيقى فيلم "Love story" فتجتاحك عذوبة الحب الخالد بمستحيلاته ودراميته. والبطلة "كريستين عدلى" شاردة تماماً خلف عجلة القيادة ولائذة بالصمت. والبطلة نفسها ترقص فى مرح ومجون تحت أضواء متقطعة ومتداخلة أحمر أصفر أزرق والموسيقى صاخبة فى لقطات متتالية من الفلاش باك فى

ذهن "مونى" التى تستدعى لحظات فائتة لمقاومة جفاف اللسان والشفتين .. كريستين فى الصف الثانى الإعدادى تقفز أمام باب المدرسة على مقدمة سيارة صغيرة تغطيها أعلام حمراء يوم مباراة الأهلى والزمالك وتطير بها فى موكب يعج بعربات مشابهة. مشاهد أخرى لـ "كريستين" فى مؤخرة الفصل، تلهث فى فرح طفولى وتروى حوارات شبه سينمائية بينها وبين أحمد بطل قصة حبها الخالدة وزميل فريق السباحة بالنادى .. مع طغيان نغمات البيانو يفرض مشهد حار نفسه .. كريستين فى عيد ميلادها الأسطورى تحت إضاءة زرقاء تضع رأسها على كتف أحمد فى تانجو وحيد بين الرقصات الثعبانية وكأنهما عروسان فى رقصة افتتاح ليلة عمرهما .. ترى أى حفل باهر سيكونه زفاف كريستين عدلى"؟!

على صوت الفرملة تفيق "مونى" وتومئ "لكريستين" شاكرة على توصيلها بينما تحاول اجتلاب قطرات لعاب ترطب بها حلقها وشفتيها.

تصعد "مونى" برأس ممتلئ بتكوينات معمارية متداخلة لمآذن جامع المؤيد وقباب مسجد أبو الدهب ومقرنصات بيت جمال الدين وسبيل كتاب أشرف بارسباى الذين تكثفوا جميعاً فى زيارة ميدانية واحدة.

تصدعات وشروخ تكاد تشقق لسانها المتيبس فتحضرها النوافير الرخامية الرطبة بالقاعة الرئيسية فى بيت "جاير أندرسن" الشهير ببيت الكريتلية .. المكان الأكثر التصاقا بقلبها .. تنساب المياه من فتحاتها فى بطء فيحدث خريرها صدى مخدراً .. جسدها طلقة مصوبة نحو صنبور الحمام .. خمس دقائق ويرفع آذان العصر .. تنوى الوضوء .. تغسل كفيها ثلاثاً .. تضع حفنة من الماء فى كفها لتتمضمض ثلاثاً . واحد .. إثنان ..

مشهد تال يلح من بيت جاير أندرسن .. مياه توضع فى أحواض خلف شباكين برونزيين ألحقت بهما أكواب نحاسية يغطسها العطشان فى الأحواض ليشرب ويروى ظمأه .. حفنة الماء الثالثة فى كفها لا تزال .. تتجرعها دفعة واحدة .. والحفنة الرابعة والخامسة والسادسة .. يتردد على لسانها استغفار .. تغسل الوجه وتمسح على الشعر ثلاثاً .. ثم المرفق وخلف الأذنين والقدمين .. تتوجه للحاق بصلاة الظهر بينما تلملم شتات ذهنها فى كيفية التكفير عن ذنب يتطلب صيام شهرين متتاليين .. ترتمى على الفراش وتغيب تحت تأثير ضربة شمس لاهبة ..

فى السينما الصيفى نشاهد فيلمين دفعة واحدة .. الأول أمريكى فى الغالب والثانى قد يكون شديد المحلية. بعدها تستقبلنا الوسائد ليبدأ الحلم فى نسج أحداث الفيلمين معاً. قصة حب" LOVE STORY أو ".. الفيلم الأشهر فى كلاسيكيات السينما الرومانسية الحديثة .. خلدته الشاشة وبقى ورسخ فى الأذهان، لاستحالة اكتمال قصته فى الواقع .. على الشاشة كان العائق اقتصادياً .. عدم التكافؤ المادى والاجتماعى بين الحبيب ومحبوبته. أما "أحمد" فكان يرتكن إلى جدار مالى عتيد، يماثل فى سطوته صلابة جدار أسرة "كريستين" .. والحدوتة مستحيلة لأنها ببساطة قصة حب "كريستين" و"أحمد".

من الأبواب دخل البيوت. طرقها طالباً القُرب مرة واثنتين وثلاثا فقرعت الأبواب فى وجهه بلا هوادة. جرب المنافذ والطرقات الخلفية .. وساطات معارف مشتركين، ضغوطاً فى صفقاتٍ، مداخل عاطفية للأخوة والخالات .. والمتاريس تزداد إحكاماً على الأبواب لتغور القصة فى الاستحالة .. هكذا كانت "قصة حب" كريستين عدلى القابعة داخل صمتها فى المقعد المجاور لـ "مونى" فى محاضرات العمارة الإسلامية وبطلة الرواية الأولى فى تلك الفترة الصيفية..

ظلام دامس يغمر قاعة الدرس فى وضح النهار، إلا من الشاشة الصغيرة التى تتبدل عليها لقطات من نماذج لعمارة العصر الفاطمى .. باب زويلة، جامع المؤيد، وكالة الغورى، سبيل كتاب وكالة قايتباى. تسهب المعلمة الأمريكية فى شرح دهاليز وحوارى وأزقة ومآذن وقباب .. كمن كان يقوم بدور الراوى فى "أفلام زمان" فتعيش أحداث الفيلم العربى/الثانى فى السينما الصيفى .. خان الخليلى .. الأزهر .. الصاغة .. مفردات تجلب إلى ذهن مونى ذكرى زيارات نصف سنوية للأماكن نفسها برفقة العائلة الصغيرة لشراء تذكارات من الذهب الخالص تخليداً لأعياد الأم وأعياد الزواج .. كان هشام مهموماً دائماً بضبط قدميه فوق قوالب الطوب المصطفة فى الأزقة لتفادى مياه مجارى طافحة .. بينما كان رأس "مونى" الصغير مشدوداً دائماً إلى أهلة مآذن أو قلة ترتكن إلى مشربية طابق علوى ببيت عتيق يتكئ على أحجار مسجد .. وبينما كان هشام يضغط فتحتى أنفه بأصابعه لتحاشى عفونة الرائحة تحت قدميه، كانت مونى تسحب الهواء بعمق فتستجلب العبق البعيد المحمل بلسعة التوابل الهندية وأريج المسك والعود والصندل المتصاعد فى شرائط دخانية بداخل الدكاكين أو المكون لهالة ضبابية كثيفة تصعد من مبخرة فى يد مجذوب يطوف الأزقة والشوارع المتقاطعة مردداً "صلى على حضرة النبى "..

تبث الحياة فى أنوار الفلورسنت تباعاً، والتى تكسو قاعة الدرس بعد أن تعود الشاشة إلى حالتها الأولى .. قطعة ورقية صماء .. "كريستين عدلى" لا تحتل – كعادتها .. المقعد المجاور "لمونى" .. حصلت على إذن بالغياب لخمسة أيام ..

تتشبث "مونى" بالمقعد على الرغم من إمكانية الخروَج للكافيتريا فى فترة الاستراحة .. لم تكن الكافيتريا بالبؤرة الجاذبة فى تلك الفترة .. مكان شبه فارغ إلا من الطلبة الأجانب .. فعدد

الطلبة الذين يترددون على الكورس الصيفى لا يمثلون نسبة تذكر بالنسبة لمجموع الطلاب، فضلاً عن أن تزامن شهر الصيام والدراسة الصيفية جعل الكافيتريا كملتقى للمأكل والمشرب – أشبه بمطعم على وشك إشهار إفلاسه .. إلا أن المجموعة متعددة الجنسيات التى تتخصص فى دراسات الشرق الأوسط وتلتف حول المعلمة الأمريكية فى فترة الاستراحة آثروا التضحية بفنجان شاى وقطعة توست شهية ليتشابكوا معها فى حوار حول الأساطير التى تلف بيت الكريتلية بهالة من السحر والجاذبية .. البيت الذي وقع فى غرامه ذلك الطبيب البريطانى جاير أندرسون الذى أتى إلى مصر ليعمل بالجيش الإنجليزى، فأمهره مبلغاً محترماً ليصبح سيده وأسير حكاياه فى الوقت نفسه .. حواديت هى خليط من الخيال والخرافة والتاريخ المشكوك فيه أتت على لسان الراوى الذى يقطنه ويعمل خادماً لضريح سيدى هارون الكائن بداخل البيت. للضريح قبة لؤلؤية وبداخل جدران المقبرة البيضاء البهيجة تقطن عظام سيدى هارون – أحد أولياء الله الصالحين – تحت منصة التابوت المهيبة.

بيت يثير كل خيالات البهجة. مجتمع مزدهر لأحياء مزدحمة. أسقف خشبية ملونة. غرف استقبال تعج بالحركة. نوافير رخام مرصعة .. غرف نوم دمشقية فاخرة وتركية .. ومع ذلك تسكنه مقبرة تزيد غموضه جمالاً .. حينما يعاود "مونى" الحنين لزيارة ذلك المكان السخى بمظاهر الحياة والموت ، تتلفت حولها فى مبنى الجامعة الرئيسى لتجد نفسها جزءا لا يتجزأ من الأبهة نفسها. القاعة الشرقية بسقفها الخشبى الملون والمزدان بماء الذهب .. منطقة النافورة وخريرها المنعش .. مقرنصات قاعة إيوارت ناصعة البياض والواجهة الإسلامية الشاهقة التى تعانق ميدان التحرير..

بعكس جده البريطانى .. انجذب آدم إلى الثقافة الأخرى فى البلاد البعيدة .. بينما احتمى جده جاير أندرسون بدفء الوسائد الوثيرة والأكلمة القوقازية والشوارع الضيقة التى تحتض بين جنباتها بيت الكريتلية ..

كانت الكافيتريا بصبغتها الغربية خارجة تماماً عن السياق – كذلك آدم الذى ظهر مرة أو اثنتين فى صحبة "مايكل" ذلك الصديق القديم ذى الآراء الخاصة فى تصنيفات الجنس البشرى .. والذى فارقه "آدم" عن طيب خاطر .. ها هما الآن يعودان و يبحثان فى جنبات الكافيتريا عن منضدة مناسبة.

المقعد الشاغر بجانب مونى في قاعة الدرس يمتلئ مرة أخرى بملامح مألوفة كانت منذ أيام للآنسة كريستين عدلى .. تلهث كريستين فى نقل ما فاتها من مذكرات وتلمع فى يدها اليسرى دبلتان .. واحدة ذهبية والأخرى تعلوها وتزيد فصوصها الألماسية النهار ضوءاً .. وتلتف اليد نفسها حول عجلة قيادة لعربة أخرى .. مرسيدس موديل العام نفسه .. تتردد فى أرجائها النغمات نفسها .. موسيقى فيلم "قصة حب" بعد أن جردها أهلها من حقها فى العربة الرينو وحقيبة ملابسها ومفاتيح المنزل وتأشيرات الدخول إلى ديارهم وأماكنهم المقدسة ..

فى إجازة الأيام الخمسة، نزهة الأسرة السنوية إلى باريس، انسلت كريستين من بين أخواتها فى غرفة الفندق .. تعللت برغبة جامحة فى التسكع على مقاهى الشانزليزيه .. منفردة .. وبعد ساعات خمس أمضتها الأسرة فى مكابدة القلق، رن الهاتف ليحمل خبر زواج كريستين من أحمد فى السفارة .. زواج مدني. هكذا ببساطة بلا مأذون ولا قس .. وبلا زفاف ..

مازالت الأحداث موازية لما شاهدناه فى الفيلم الخالد .. البطل والبطلة يستذكران دروسهما بداخل الشقة المؤثثة بمقاعد وثيرة ولهيب مشاعر وجذور تفاهم ترتشق فى العقل والقلب الواحد المنقسم بين حبيبين ..

❖

ولد وبنت يتقاسمان الإسم نفسه ويتشابهان فى بعض الملامح والصفات الوراثية ويتشاركان فى المأوى والطعام والأبوين .. "هشام" و"مونى" .. الفارق بينهما فى تلك الفترة الزمنية إن "مونى" فى عرضها الصيفى تمتص وتختزن وهشام يعيش فى نوبة تبديد وبعثرة. يتناثر بين فريق النادى وشلة النخبة الجديدة بكليته من أبناء الطبقة فوق المتوسطة، ذوى الخلفيات التعليمية المتفرنجة. كلمات كان يستكبر أن ينطقها بلكنتها الغربية الصحيحة من قبيل الرجولة على حد قوله .. صارت تتخلل حواراته اليومية وكأنها لغته الأم .. مشاركته سباقات السيارات الدولية بالعربة التى ابتاعتها له أمه.. علبة سجائره المارلبورو وعطوره النفاذة أحاطته ببريق ولمعان يجعله فى معزل عن معظم زملائه فى الدراسة ولفظه هو وحفنة مماثلة له خارج حرم كليته ليقضى أوقات ما بين المحاضرات فى جامعة "مونى" الأمريكية، فيصير كجسم غريب فى مجتمع لا يمنحه سوى صفة الـ outsider التى تصلح مفردات عديدة ترجمة لها منها على سبيل المثال: "الآتى من الخارج" و"الغريب" و"الدخيل"!

❖

لا تدرى "مونى" لماذا لم تمثل لها سيارة "هشام" الجولف الحمراء شيئاً أكثر من كونها قطعة من الحديد المارقة – كما لم تثر فى نفسها موسيقى الكاسيت التى يديرها أية انفعالات خاصة.

لهشام مهارات خاصة نال عنها الجوائز فى الوصول إلى نقطة النهاية بأسرع وقت ممكن .. حتى فى ساعات الذروة كان يمكنها أن تطير معه فوق الكبارى أو تحت الأنفاق أو يعبرا الإشارة قبل إضاءة اللون الأحمر بثوان وتتجنب التوبيخ من جانب أمها عن التأخير بلا أعذار مقبولة، إلا أنها كانت تفضل أن تجلس صامتة بجوار "كريستين عدلى" .. وقد تتوقف "كريستين" طويلاً أمام كشك لابتياع أنواع شتى من الحلوى ثم تتوقف أمام باب مدرسة أختها الصغرى لتعطيها إياها مقابل قبلات متقطعة وحضن ممتد .. وقد تتوقف أمام محل الكوافير الذى تصفف فيه أختها الكبرى شعرها وتختفى كريستين بداخل الدكان لخمس عشرة دقيقة لتبادل الأخت خبر أو اثنين بعد أن أصدر زوجها فرماناً يمنعها من دخول بيته ..

❖

فى الأفلام الأمريكية يقفزون إلى المستقبل بأن يكتبوا على الشاشة Ten Years Later أى "بعد عشرة أعوام". وفى الأفلام القديمة كانوا يستعجلون الزمن بأن تتقلب على الشاشة أوراق نتيجة حائط بأرقام عربية ضخمة لتستقر على التاريخ المراد ..

كما يعلم الجميع سيهاجم الداء اللعين البطلة – وتغرق الدموع وجوهنا وتغلف قلوبنا بتلك الانقباضة التى قد لا تفارقنا لأيام، بعد كل مشاهدة لفيلم "قصة حب".

❖

Ten Years Later أى "بعد عشرة أعوام" ستجلس "مونى" فى مواجهة "كريستين" فى صالون فيلتها هى وأحمد والتى كانا قد انتقلا إليها توا .. تحملق فى وجهها صامتة بين نساء يرتدين السواد ويحاولن إقناع كريستين بتناول ولو قليل من العصير حتى

تقوى على إرضاع وليدها، بينما تزيح أيديهن وتشيح بوجهها لتواصل الحكى عن تفاصيل تغلغل المرض فى أوصال أحمد وكلمات النهاية التى لفظها قبل أن يفارق الحياة فى ذلك المستشفى الفرنسى الذى شهد لحظاته الأخيرة .. كريستين الآن توزع حكايا مجانية على صديقات وقريبات لا تعرفهن "مونى".

- "كان يتمنى أن يراك وطلب منى الاتصال بك".

- "صمم أن أتركه وأذهب لشراء عربة بالريموت لإبنك عمرو "

- "فاكرة لما ذاكر من مذكراتك وهو جاب "جيد" وإنتى طلعتى بمادتين؟"

تُقرأ فاتحة جماعية بينما ترتكن كريستين إلى كتف "مونى" وتتساندان حتى تصل بها إلى غرفة النوم وتتمدد على حافة الفراش. المساحة الفارغة البيضاء بجوار كريستين تزداد اتساعاً فى عينى "مونى". تتشكل دائرة ومستطيلا وقبة. جدران المقبرة البيضاء ذات القبة اللؤلؤية بضريح سيدى هارون فى بيت الكريتلية.

"كريستين" دار بضة تصطخب حياة ويسكنها ضريح .. ستهرب "مونى" من مواجهة فجيعة فقد، مثلما تفر من أية مشاعر ضاغطة إلى ملاذها الجديد/القديم. ستتلبسها روح "حميدة" فى "زقاق المدق" بتمردها على واقع يفرض نفسه. ستزهو بملاءة مشدودة حول جسد لين وكعب يدق بخلخال له رنين يجلجل فى أذنيها فقط، وهى ترفع رأسها على امتداد مئذنة جامع ابن طولون الحلزونية والمواجهة لبيت الكريتلية وحين تصدمها عبارات "هاللو - هاللو" التى يرددها الأطفال البائسون الذى يمدون أياديهم ليستجدوا "دولارا" ستدرك إنها ليست حميدة ويداخلها انبهار الوافد من البلد الأكثر تقدماً والممزوج بالرفعة وهو يعاين آثار حضارة

لهشام مهارات خاصة نال عنها الجوائز فى الوصول إلى نقطة النهاية بأسرع وقت ممكن .. حتى فى ساعات الذروة كان يمكنها أن تطير معه فوق الكبارى أو تحت الأنفاق أو يعبرا الإشارة قبل إضاءة اللون الأحمر بثوان وتتجنب التوبيخ من جانب أمها عن التأخير بلا أعذار مقبولة، إلا أنها كانت تفضل أن تجلس صامتة بجوار "كريستين عدلى" .. وقد تتوقف "كريستين" طويلاً أمام كشك لابتياع أنواع شتى من الحلوى ثم تتوقف أمام باب مدرسة أختها الصغرى لتعطيها إياها مقابل قبلات متقطعة وحضن ممتد .. وقد تتوقف أمام محل الكوافير الذى تصفف فيه أختها الكبرى شعرها وتختفى كريستين بداخل الدكان لخمس عشرة دقيقة لتبادل الأخت خبر أو اثنين بعد أن أصدر زوجها فرماناً يمنعها من دخول بيته ..

❖

فى الأفلام الأمريكية يقفزون إلى المستقبل بأن يكتبوا على الشاشة Ten Years Later أى "بعد عشرة أعوام". وفى الأفلام القديمة كانوا يستعجلون الزمن بأن تتقلب على الشاشة أوراق نتيجة حائط بأرقام عربية ضخمة لتستقر على التاريخ المراد ..

كما يعلم الجميع سيهاجم الداء اللعين البطلة – وتغرق الدموع وجوهنا وتغلف قلوبنا بتلك الانقباضة التى قد لا تفارقنا لأيام، بعد كل مشاهدة لفيلم "قصة حب".

❖

Ten Years Later أى "بعد عشرة أعوام" ستجلس "مونى" فى مواجهة "كريستين" فى صالون فيلتها هى وأحمد والتى كانا قد انتقلا إليها توا .. تحملق فى وجهها صامتة بين نساء يرتدين السواد ويحاولن إقناع كريستين بتناول ولو قليل من العصير حتى

تقوى على إرضاع وليدها، بينما تزيح أيديهن وتشيح بوجهها لتواصل الحكى عن تفاصيل تغلغل المرض فى أوصال أحمد وكلمات النهاية التى لفظها قبل أن يفارق الحياة فى ذلك المستشفى الفرنسى الذى شهد لحظاته الأخيرة .. كريستين الآن توزع حكايا مجانية على صديقات وقريبات لا تعرفهن "مونى".

– "كان يتمنى أن يراك وطلب منى الاتصال بك".

– "صمم أن أتركه وأذهب لشراء عربة بالريموت لإبنك عمرو "

– "فاكرة لما ذاكر من مذكراتك وهو جاب "جيد" وإنتى طلعتى بمادتين؟"

تُقرأ فاتحة جماعية بينما ترتكن كريستين إلى كتف "مونى" وتتساندان حتى تصل بها إلى غرفة النوم وتتمدد على حافة الفراش. المساحة الفارغة البيضاء بجوار كريستين تزداد اتساعا فى عينى "مونى". تتشكل دائرة ومستطيلا وقبة. جدران المقبرة البيضاء ذات القبة اللؤلؤية بضريح سيدى هارون فى بيت الكريتلية.

"كريستين" دار بضة تصطخب حياة ويسكنها ضريح .. ستهرب "مونى" من مواجهة فجيعة فقد، مثلما تفر من أية مشاعر ضاغطة إلى ملاذها الجديد/القديم. ستتلبسها روح "حميدة" فى "زقاق المدق" بتمردها على واقع يفرض نفسه. ستزهو بملاءة مشدودة حول جسد لين وكعب يدق بخلخال له رنين يجلجل فى أذنيها فقط، وهى ترفع رأسها على امتداد مئذنة جامع ابن طولون الحلزونية والمواجهة لبيت الكريتلية وحين تصدمها عبارات "هاللو – هاللو" التى يرددها الأطفال البائسون الذى يمدون أياديهم ليستجدوا "دولارا" ستدرك إنها ليست حميدة ويداخلها انبهار الوافد من البلد الأكثر تقدماً والممزوج بالرفعة وهو يعاين آثار حضارة

عريقة من باب الرفاهية – فتنفق فى بذخ وزهو على فضيات وعاديات وأوراق بردى .. (ولا تمشى فى الأرض مرحاً. إن الله لا يحب كل مختال فخور) يحوك فى صدرها شعور بالذنب فتتروى فى مشيتها مسيرة زقاق. وما أن يحتويها المنعطف التالى حتى تعاودها الخيلاء وتمشى فى الأرض مرحة.

❖

عادة ما لا تلاقى أفلام الجزء الثانى نفس الجماهيرية التى لاقاها الجزء الأول. إلا أن مقاومة استثمار النجاح تشق على الكثيرين. لذلك لم يكن لفيلم Oliver Story "قصة أوليفر" نفس الأثر فى إلهاب المشاعر التى أثارها الفيلم الأول "قصة حب". دخل "أوليفر" فى عدة علاقات بعد رحيل حبيبته كمحاولة لمواصلة الحياة إلا أنه فشل فى النهاية فى نسيان محبوبته فلم يضف الفيلم كثيراً ...

❖

كانت "مونى" أكثر إعجاباً بذلك المشهد الميلودرامى والتشبيه الشجى بين الدار الأثرية وصورة كريستين الممددة على فراش بارد يخلو من نصفها الآخر والمنغلق صدرها على ضريح. مشهد راق لنهاية تسيّد قيمة نادرة كالوفاء. لكنها الصدف التى لا تأتى مصادفة هى التى زجت بـ "مونى" فوق ذلك المقعد البامبو فى جلسة نميمة لتتشدق إحداهن بالجزء الثانى من الحدوتة، تماماً مثلما لم يقاوم بعضهم صناعة جزء ثان لفيلم "قصة حب".

❖

"Five Years later" أى بعد خمسة أعوام ستغير تلك الراوية مجرى الأحداث عما انتهت إليه "قصة أوليفر" – لتكتشف "مونى" إنه كان أجدر بها أن تتفهم إنه بعد مرور خمسة أعوام على وفاة "أحمد" ما كان يمكن لـ "كريستين" أن تتمسك بنهاية قصة "أوليفر" فما هى إلا حلم أمريكي آخر. وهم جميل مغاير لواقع الحياة. وكان عليها أن تستنبط أن فتاة تملك كل شىء مثل كريستين وأهمها القدرة على مواجهة عادات وقيم أسرية وطائفية من أجل تخليد حب تغذت وكبرت عليه منذ طفولتها المتأخرة. ما كان يمكن أن تهزم هذا العملاق الذى يتلبسها منذ الأمد .. داء العشق.

ظل الضريح قابعاً دوماً بداخلها، لكنها غريزة الحياة التى تجعل ساكنى القبور يوقدون النيران تحت أوانى الطهو وأباريق الشاى نهاراً ويتجرعون الأفيون ويمارسون الحب ليلاً، متباركين على مدار الساعة بعظام الموتى التى ترقد فى سلام تحت عظامهم.

الشائق أن الجزء الثانى من قصة كريستين كان أكثر إثارة وميلودرامية من Oliver Story . فما أجّل إتمام كريستين لزواج آخر لم يكن الضريح الذى يسكن تحت جلدها، بل ذلك الصليب الذهبى الصغير الذى لم يغادر سلسلتها ليمثل شرطاً جزائياً حددته بصراحة أسرة أحمد بعد وفاته "إن تزوجت سنأخذ الولد لضمان نشأة إسلامية خالصة" .. فكان عليها أن تدفن شبح أى عشق جديد بداخل ضريحها .. إلى أن تمرد وخرج من محبسه ليطالبها بمواصلة حقها فى الحياة.

❖

أحياناً ما نطمئن على أحوال وسلامة ما بحوزة الآخرين لنغذى شعورنا بالأمان على أنفسنا، خاصة إن كانت تمثل أشياء الآخر مرآة تعكس صورنا فى فترات ماضية ..

سؤالان طرحتهما "مونى" لغرض شخصى على تلك التى تطوعت بالحكى عن أحوال كريستين .. هل مازالت كريستين على جمالها؟ ما مصير الـ مرسيدس التى كانت تثير حقد المارة والمترجلين فى شوارع القاهرة؟ فى الإجابة كانت نهاية الجزء الثانى من الحدوتة والأقل جمالاً وانسيابية من جزئها الأول ..

"كريستين الآن تمتلك بشرة كابية مشربة بالصُفرة. زرقة عينيها تختلط بإحمرار البياض المحيط بها ويتوهان تحت الأجفان المتورمة من أثر الليالى الأرقة وبكاء على فترات متقطعة من النهار. فضلاً عن العطب الذى يداهم الأحبال الصوتية وليونة أصابع كل من تصر على مصادقة دخان سيجارة.

أما الـ "مرسيدس" فمازالت تقودها بموديل القرن الماضى لأن الميزانية لن تسمح سوى بتجديد سيارة بطلها الجديد الذى داهم المساحة البيضاء فى فراشها. ووفقاً لما قالته الراوية .. فإنه يتخذ من ذلك الفراش مركزاً للراحة الصباحية بينما تسعى هى إلى إدارة أعمالها لتغطى حاجاته ورغبات أبنائه من زيجة سابقة، ولمقايضته على لحظات سلام، صافية من الإهانات وقليل من اللكمات. وقد تجزل العطاء بصورة مضاعفة فى أحايين كثيرة لتستجلب من بين شفتيه عبارات حانية توقد شرارة حب انطفأت فى صدره .. لكى تبعث دفئها فى روحها وأوصالها العطشى ..

ليت البشر يتوقفون عن استثمار النجاح ويكتفون بروعة الأجزاء الأولى فى قصص الحب !

أيامنا الحلوة

كفصول الكتب التى ننتهى من قراءتها لتترك فى نفوسنا آثاراً عميقة إنما وقتية، تكون حكايا معظم البشر الذين يتخللون فصول حياتنا .. إلا أن هناك من يسيرون فى خطوط موازية لأيامنا ، ننظر إليهم وينظرون إلينا فلا نتقاطع أو نصطدم إلى أن تنتهى حيواتنا .. هكذا كانت فاطمة ..

فى فصل "اللغة الإنجليزية ٢٠٢" تتوسط مقعدها الخشبى فى مواجهة مونى بجسد طفولى يؤكده الـ "تى شيرت" المقلم والشورت الأحمر الذى يجاوز الركبة بقليل. تتلاقى عيونهما فيتبادلان تحية بالرأس وابتسامة تآلف يسمونها فى الغرب chemistry.

تتلبس مونى براءة طفولية ورغبة فى ممارسة طقوس التعارف فى سنوات العمر الأولى حين كان الأمر لا يتطلب سوى كلمتين فى لب الموضوع .. "ممكن تصاحبينى؟"

تدخل مسز "دوريس ماكبين" الفصل بتؤدة، تسبقها تلك الابتسامة المحايدة التى يتولاها طاقم الأسنان عن معظم كبار السن. تبدأ فى تشغيل جهاز العرض . تعرض ورقة تلو الأخرى بعد تصحيحها ليستفيد كل طالب من أخطاء زملائه.

واجب الأمس كان اختيارياً بين موضوعين "هل كنت تود أن تعيش فى زمن آخر؟ " أو "أكتب عن إنسان حميم طرأ عليه تغيير ".

هل تختارين العيش فى زمان آخر يا "مونى" أم تفضلين الكتابة عن إنسان حميم طرأت عليه تغيرات؟ توليت الإجابة عن هذا السؤال عمليا حين اخترت مادة "التاريخ ٢٤٦" الثقيلة فى بداية حياتك الجامعية لترطبى بها جفاف المادتين العلميتين اللتين عليك أن تختاريهما كطالبة أدبى حتى تتخرجى إنسانة مثقفة .. تعرفين بعض الشئ عن كل شئ .

أمس كنت ترغبين بشدة فى اختيار الموضوع الثانى وكتابة مقال عن "إنسان حميم طرأت عليه تغييرات"، لكنك أمسكت بالقلم وانخرطت فى كتابة الموضوع الأول واضعة نصب عينيك أصول الكتابة التى علمتها لكم مسز "دوريس ماكبين": لابد أن يكون للموضوع رأس وجسد وذيل .. تمهيد يتلوه شرح باستفاضة ثم نهاية منطقية. الجمل لابد أن تحافظ على تماسكها بأن تتواصل جيدا بأدوات الربط مثل "فضلا عن" ، "بالإضافة إلى" ، "من ناحية أخرى" .. واللوم كل اللوم على من يقع فى أخطاء نحوية ..

تتقلب الصفحات على شاشة العرض ليظهر موضوع الزميلة التى تبادلت معها الألفة منذ قليل. اختارت الموضوع الثانى. ستعبر عما كانت مونى تريد البوح به وأحجمت عنه. تنوه مسز "دوريس" بأن فاطمة كاتبة الموضوع ستحصل على تقدير امتياز وفى الوقت نفسه تحذر من أن يحذو أحد حذوها فى تناول أى موضوع فى المستقبل. حصلت فاطمة على الامتياز بصفةٍ استثنائية تقديرا لها على الصدق الفنى .. يظهر الموضوع مكبرا بعرض الحائط تحتَ عنوان "الزيارة انتهت":

"الزيارة انتهت"(*)

"حجرة ٧١٥ – إنه بانتظارك .. لقد حذرتك من قبل، لكن كونك ابنته سُمح لك بهذه الزيارة".

صعدتُ السلم المؤدى إلى المصعد وضغطتُ على الزر المؤدى إلى الطابق السابع. أحس بشعور المقبل على عالم غامض يدخله الإنسان ولا يعرف له نهاية. خائفة..؟ نعم .. فما فائدة تحذيرهم لى؟ لاشك إنه تغير. المرض لا يرحم وسفره منعنى من رؤيته فى المدة الأخيرة. كيف وأنا طفلته المدللة أكون بعيدة عنه فى تلك اللحظات؟

الطابق الأول .. يفتح المصعد بابه .. مجموعة من الناس تدخل ومجموعة أخرى تخرج .. يغلق المصعد بابه.

أتذكره وأنا طفلة صغيرة. أعود من المدرسة لأحدثه عن نوادرى فيها. كم كنت طفلة شقية لا تهتم بدروسها. يصحبنى إلى النادى. يعلمنى الرياضة. لن أكون الشبل من ذاك الأسد. تحسدنى زميلاتى عليه. يبدو كشاب فى الثلاثين. وسيم وأنيق متفان فى حب أسرته. يبعدنا دائما عن الحياة ومسئولياتها.

الطابق الثانى .. مجموعة تخرج وأخرى تدخل.

"ظننتك ستتفوقين فى الدراسة" بكيت لأنى خيبت آماله لكن سرعات ما عوضته عن خيبات سابقة بنجاح باهر فى الثانوية العامة. افتخر بى فشعرت بالفخر لنفسى.

(*) قصة لم تنشر لـ "عائشة سليم"

الطابق الثالث .. مجموعة تخرج وأخرى تدخل.

"أثق بك لكن دققى فى اختيارك لأصدقائك. لا أريد أن أندم على الحرية التى منحتك إياها". طاوعت كلامه تارة وطاوعت مراهقتى تارة أخرى.

الطابق الرابع .. مجموعة تخرج وأخرى تدخل ..

بكيت بحرارة ولم يفهم أحد. فلأول مرة أذهب للبيت بدونه. إنه مسافر. أقوم بجبر يدى المكسورة دون وجوده وأبكى لافتقاده وهم لا يقدرون.

الطابق الخامس .. مجموعة تخرج وأخرى تدخل ..

علم بإعجابى بصديق لى .. تابعنى عن بعد ولم يتدخل. تركنى أتصرف كما ربانى وخرجت من التجربة وأنا أعلم ماذا أريد لنفسى.

الطابق السادس .. مجموعة تخرج وأخرى تدخل.

كم ألعنك أيها اليوم المشؤوم. جئت لى بخطاب منه .. فرحت، فلم يرسل لى منذ فترة ولكنى سأعاتبه على هذا الجواب القصير .. سالت دموعى على الورق. تناثرت الكلمات وضاعت. لم أفهمها. أهو مريض؟ أيخفى عنىّ علة المرض؟ حتى فى أصعب أوقاته يخفى علىّ حتى لا أتألم؟ حتى لا أكلف عقلى الصغير قليلا من التفكير؟ حتى لا أثقل على قلبى الصغير بقليل من القلق؟

الطابق السابع .. توقف المصعد ومعه قلبى عن الخفقان. مجموعة تدخل وأخرى تخرج ، أنا من بينها.

بخطوات مرتعشة أمر فى الدهليز .. ٧١٢ – ٧١٣ – ٧١٤ – ٧١٥. هاهنا! دق قلبى. طرقت الباب. مرة خفيفة وأخرى حتى سمعت "أدخل".

تشجعى لابد ألا يشعر بضعفك فى هذه اللحظة بالذات.

هناك على الفراش وجدته ممدداً. كم تضاءل حجمه. لم أكن أعرف أن الكيميائيات تسبب كل هذا الهزال. لم أكن أدرى كم يهد الدواء تماماً كالداء. فقد وزنه. برزت عظام وجهه. تساقط جزء من شعره. تحول اللون الأسود إلى لون أبيض. بدا عليه العجز واعتراه الضعف وهو الذى طالما أمدنى بالقوة. كم هو مرض لعين لا يرحم. فهمت الآن لماذا يمتنع الناس عن ذكره ولو حتى من بعيد. احتضنته وبكيت. بكيت عليه وعلى نفسى. ليس هو الذى تغير وإنما أنا .. تغيرت من خلاله وسيظل هو الأقوى بالرغم من ضعفه.

تحدثنا طويلاً. أزال حائط الخوف الذى تملكنى ورهبة الموقف. حدثنى عن العلاج وموقفه منه كأنه يحدث ندا له. إستمعت إليه. تمالكت أعصابى. منعت دموعى من الانهمار. فهو يستمد قوته منى الآن.

يدق الباب .. "الزيارة انتهت" .. ودعته. أغلق الباب من خلفى.

بخطوات ثابتة سرت فى الممر عائدة. كم تغيرت فى تلك اللحظات. نعم انتهت الزيارة ولم تنته. إنه لا يعرف كم نضجت فى تلك اللحظات. لا يعرف أن التى دخلت عليه منذ لحظات طفلة فى العشرين وخرجت من عنده فتاة ناضجة تتحمل المسئولية وإن كانت فى العشرين. الدرب طويل أمامها والحياة صعبة والظروف معاكسة ولكن الأزمات وُجدت لتخلق أو تهدم الإنسان وأنا اخترت أن أخلق من جديد. سأجعله يفتخر بىَ .. سيرى ابنته برجاً شامخا .. بل قلعة من القوة. سامحنى يا أبى إن سمحت لنفسى أن أغير من دلوعتك. سامحنى إن قسوت عليها .. سامحنى .. لقد

أعطيتنى الكثير وحان دورى للعطـــاء .. قـــد تكـــون الزيارة انتهت بالفعل ولكنها أبداً لن تنتهى."

فاطمة رشيد

"اتبعت قلبك ففزت بالصدق الفنى والدرجة النهائية حتـــى وإن خالفت أصول المادة" "قالت مسز "دوريس ماكبين". هل دائماً ما يفضى اتباع القلب إلى قبول الآخر أم أن الأمر يحتـــاج إلـــى مصادفات سعيدة؟ ربما لو لم تكن المعلمة هـــى مـــسز دوريـــس ماكبين لفقدت فاطمة الدرجة بالكامل .. فاسم "دوريـــس مـــاكبين" يتصدر بخط عريض أحد أغلفـــة كتـــب مطبوعـــات دار النـــشر بالجامعة ويحتل المنافذ الزجاجية لعرض الكتب، المجاورة لبـــاب قاعة إيوارت. "دوريس ماكبين" هى مؤلفة كتاب "الحياة بعد الفقد" الذى بالانتهاء من كتابته فازت بسكينة النفس وبعض التعـــويض عن فقد ابنتها الوحيدة بسبب الداء نفسه الذى ذكرته فاطمة.

إتبعى قلبك يا "مونى" وربمـــا حظيـــت بمـــصادفات سعيدة.

بانتهاء الساعة المحددة للدرس تتجه مونى نحو فاطمـــة. تعبر عن إعجابها بالقصة وذلك الارتياح الذى انتابها عندما تلاقيا عن بعد ..

– "شعرت أيضاً أننا سنصبح صديقتين" قالت فاطمة

– هقولك حاجة بس ما تزعليش .. ممكن أندهك بإسم تانى غيـــر فاطمة؟ أصله تقيل أوى!"

- "على فكرة أنا إسمى فاااطمَة .. يعنى لازم يتنطق صح .. لكن ممكن تقولى لى "طومى"

- القصة دى حكايتك إنتى؟

- "لأ. حكاية بنت خالتى نرمين .. معانا فى الجامعة"

❖

فى منطقة النافورة قدمتها طومى لـــ "نرمين" ...

أن يخلق الله من الشبه أربعين أمر جائز، لكن أن يكـــون التطابق بين اثنتين وليستا توأمتين إلى هذا الحد، فهذا هو الإعجاز .. القد القليل نفسه - سمرة البشرة، سواد العينين واتـــساعهما - الأنف الدقيق والفم المرسوم. إختلافات طفيفة فى طريقة الملـــبس واللفتات لن يلحظها إلا المقربون .. تماماً مثلما يكتشف المقربون من التوائم الفروقات بينهما من اللحظة الأولى، لكن بعـــد طـــول خبرة ومعاشرة ..

- "Excuse me .. عندى اجتماع مـــع (نـــادى أنـــصار الأقصى) دلوقتى". تقول فاطمـــة. تتـــرك مـــونى لتنـــضم إلـــى المجموعة الهائلة من الطلبة الفلسطينيين الذين يتكتلون فى أرجاء منطقة النافورة ويتخذونها مستوطنة دائمة لهم، ومـــا أن تـــشرع مونى فى الصعود إلى الكافيتريا حتى تبادرها طومى: "على فكرة نرمين مش بنت خالتى - إحنا بس أصحاب من سنة حـــضانة - أجبرنا كل المحيطين على الدخول فى هذه اللعبة. لم يجـــر علـــى لسان أى من يرانا سوى سؤال واحد "إنتو اخوات"؟ وحين نجيـــب بالنفى يرفضون الحقيقة ويصرون على أننا لابد مازحتان. رسموا لنا ملامح لغبة عمرنا التى كنا نلهو بها حين ينتابنـــا الملـــل مـــن

اللعبات التقليدية، شاعرين بالمتعة والعرفان لكل من خدعوا أنفسهم برضاهم."

"أرجو أن يظل الأمر سراً وتحافظى لنا على لعبتنا الكبيرة" تضيف طومى.

❖

على منضدة خالية بوسط الكافيتريا تقبض على فنجان الشاى بكلتا يديها. تدير رأسها إلى الجهة اليمنى، بينما تتابع عيناها تحركات آدم على الجهة اليسرى حتى لا يلحظ شغفها. يشتبك فى حديث صاخب مع "ندى" ، تلك التى ساهمت فى إذابة الجليد بينهما فى فترة قطيعة سابقة، وآخرين كثيرين لا تعرفهم.

يغادرهم "آدم" ويتجه نحوها. تتصنع انشغالاً بإفراغ محتويات حقيبتها على المنضدة وكأنها تبحث عن شىء ما. تخشى أن تغطى ضربات قلبها على ضوضاء المكان.

تتوقين لضحكات طفولية فى فصل مدرسى. محاكاة وسخرية تثير حنق الأساتذة.. ترديد أغنيات طازجة ودق الكعوب فى خطوات راقصة. تحتاجين لأن تتبعى قلبك وأن تكتبى عن" إنسان حميم طرأت عليه تغيرات" ومصادفات سعيدة تفضى إلى قبول الآخر حتى وإن خالفت العرف السائد .. أو ربما تشتاقين إلى لعبة جديدة تملأ اللحظات الفارغة بهجة ..

تقترب خطواته فتغوص برأسها ويديها بداخل حقيبة يدها بحثاً عن الشىء الوهمى ولا تكاد ترى ما حولها ..

– مش حضرتك اسمك الآنسة منار؟ أنا إسمي آدم.
لسه جاى جديد ومعنديش أصحاب. ممكن أقعد معاكى؟

– إمم .. أفكر .. إنت كنت ف مدرسة إيه؟

– الـ British College وكان معايا فى الفصل واحدة شكلك بالظبط بس يا خسارة!

– إيه .. ماتت؟

– لأ. مش راضية تخلينى أقعد معاها !

ما أروع ما تمنحه لنا الأقنعة. تلغى الأزمنة الأليمة وتضيف إلى أيامنا لحظات – قد تكون وهمية – لكن حبيبة. تماما كأصول اللياقة الاجتماعية وآداب الحديث. وجوه نرتديها تغاير ما فى النفوس، لكننا بدونها لن نقوى على مكابدة آلام الصراحة.

تمتلئ اللحظات بحوارات ارتجالية حملت عن عاتقهما عناء المواجهات. ستون دقيقة من حكى متواصل تتخلله ضحكات مفتقدة ومحاكاة للمارة وبضع أغنيات رددتها "مونى" واقفة بجوار آدم الذى توسط المقعد المتحرك المستدير أمام البيانو العتيق بمسرح "هوارد" الملاصق للكافيتريا – ليصاحبها بنغماته فى أغنية Endless Love.

❖

حينما وصل الميكروباص الذى أقلها من موقف التحرير إلى آخر الخط بميدان روكسى، كان عليها كالعادة أن تناول السائق الأجزة. وما أن مدت يدها داخل حقيبتها لتتحسس موضع كيس نقودها ولم تجد له أثرا حتى شعرت بخيبة شديدة. ربما الفقد الحقيقى الأول فى حياتها. لم يكن المبلغ الذى يحتويه الكيس

بالضخامة التى يحزن المرء عليها، ولا حتى الحرج الذى قد ينتاب من فى مثل موقفها، فقد تولت زميلة لها دفع الأجرة الزهيدة عنها. كان الكيس مجرداً من محتوياته هو الفقيد. الجائزة الرمزية التى قدمتها المدرسة لها فى حفل الخريجين العام الماضى.

إنسانة تمجد اللحظات الفائتة وتصنع منها الأساطير – تشيد معابد للماضى وتقدم له القرابين .. فكيف لها حين يمنحها الماضى هدية عن أيامهما سوياً أن تفرط فيها هكذا .. أن تسمح لأصابع دنيئة أن تتسلل إلى حقيبة يدها وتقتنص رمز عرفان الماضى لعشرتهما معاً؟

الثقة الزائدة التى منحتها للمكان الجديد الذى بدأت تحتويه بداخلها، كانت لتجعلها تترك أى شىء عزيز فوق منضدة الكافتيريا وتذهب لقضاء حاجاتها .. لذا كانت حقيبة يدها والكثير من حقائب الأخريات تتدلى على أكتاف المقاعد وكأنها فى مأمن على أذرع صاحباتها. لم يكن إبلاغ أمن الجامعة ليُجدى فى إعادة ما قد فقد وإن كانت قد فعلته كإجراء روتينى. ولن يليق البكاء والصراخ بمن فى مثل عمرها على مربع صغير من الجلد الصناعى.

تدعوها المساحة الناصعة فى كشكولها الجديد إلى تفريغ شحنتها على سطورها. تضع عنوانا لشىء مبهم "احذروا السرقات فى أرقى الجامعات". وأسفل العنوان تمتلئ صفحات خمسة من القطع الكبير بكل ما فجرته الواقعة من أحاسيس – أضافت إليها تحريات قامت بها لاحقا مع آخرين فقدوا أشياء مماثلة، أقوال مكتب الأمن، تحليل أساتذة علم النفس لظاهرة الكليبتومانيا أى داء السرقة – وأساتذة علم الاجتماع عن التركيبات الطبقية بداخل الجامعة. تبدو الصفحات الخمس كموضوع صحفى متكامل يبحث عن جريدة تحتويه. تحتضنه وتذهب به إلى مبنى العلوم

الاجتماعية حيث مجلة القافلة الأسبوعية التى يصدرها طلبة الجامعة .. كصرخة استغاثة وحيدة تهدهد بها فقدها ..

فى العددِ التالى كان "إحذروا السرقات فى أرقى الجامعات" عنواناً يتصدر الصفحة الثانية التى امتلأت عن آخرها بصرختها المكتومة. وفى ذيل الموضوع يصطك اسمان "منار وهبى" .. إسمها يجاور إسم والدها .. كان لتلك التركيبة الإسمية وقع مختلف تماماً وهما يتجاوران بحروف مطبعية .. شئ غامض يجعلها تنظر له ملياً .. ثم تعود وتنظر إليه .. لم تكن الوحيدة التى لتملأ عينيها منه بل كان فى حوزة المئات من الطلبة وربما احتل موقعاً فى رأس أو قلب بعضهم .. حالة مشابهة لحالتها وهى تحتشد تحت نخلتها قبل محاضرة التاريخ .. تستشعر امتلاء صدرها بنسيم يدغدغ حواسها فيتسع قلبها لمزيد من الهواء .. هل يمكن أن تتضخم الأنا من مجرد صفحة واحدة تعلو اسمها؟ صدق الفيلسوف حين قال بأن الأفكار تأتى من القلب وأن الدماغ لا يعدو أن يكون القائم على تبريد الحرارة الصادرة من القلب .. تترك لقلبها العنان فتمتلئ صفحات ثانية وثالثة ورابعة بأفكار قلبها فى أعداد متتالية من "القافلة" حتى تتخذ من مبنى العلوم الاجتماعية مستقراً لها بعد أن صارت نائبة لرئيسة تحرير المجلة.

كتاب "الحياة بعد الفقد" بعث الرضا فى نفس امرأة على مشارف الشيخوخة مثل "دوريس ماكبين" بدلاً من السخط على القدر الذى انتزع فلذة كبدها .. ومع فارق القيمة المعنوية والمرحلة العمرية كانت شجون مونى الممهورة باسمها، كمن سقطت منه عملة معدنية على الرمال، فأخذ يفتش عنها وينبش ليعثر بدلاً من عملته على كنز نادر ..

حينما نتبع قلوبنا علينا ألا نخجل من التحسر على آلامنا .. فقد يحمل الأسى فى طياته مصادفات سعيدة !

وحدوتة مصرية

نقلة هائلة فى المساحة المحيطة بها .. تتمـــدد .. تتـــسع وتستدير لتستقر على صورتها النهائية. الشكل التقليدى المحبـــب القديم. دائرة تعج بالآخرين تحتويها فى أية نقطة فتستمتع بفكـــرة أنها دائماً فى المنتصف.

شلال هادر من الصيحات والضحكات. همسات الحب ونحيب الهجر. بوتقة تجرفها مرة أخرى إلى دوامة آدم وتلصقها بـــ طومى ونرمين، ندى عبيد ومهاب. شانتال وهشام ..

الظهور تستند إلى الحوائط الأربعة بغرفة "طـــومى" مـــا بين ممدد لساقيه على الأرض أو جالس على السرير أو متخذ من كرسى مكتبها منبراً. بينما يهدر محمد منير فى الخلفية ..

وسط الدايرة يا أجمل نايرة

خلى قلوبنا تطير

وإرحلى بينا .. فراشة حنينة

بين زينات وعبير

فى الفترة ما بين الثالثة ظهراً والسادسة مساء مـــن كـــل خميس لم يكن هناك مكان أقرب من منزل "طومى" بحى الزمالك ليحتضنهم بتلك الحميمية. غرفتهـــا الدافئـــة بمكتبهـــا الـــصغير وسريرها الرفيع وأرففها المنسقة بأغلفة الكتب الملونة وتذكارات

من كل بلاد الأرض. القطع تحتل مساحات ضئيلة وموظفة بعناية وكأنها قد خرجت توا من بين صفحات قصة الأقزام السبعة ببيتهم المريح بعد أن رتبته لهم سنووايت. أما ما تبقى من مساحة الغرفة فتحتله تلك الرقعة الهائلة من الموكيت الأزرق الداكن برحابته وحنان ملمسه وكأنها أرض طيبة تفتح ذراعيها للمزيد والمزيد من أبنائها.

يقرع والد طومى باب الغرفة ويبتسم فى هيبة جميلة: "عايزين حاجة؟"

- "مرسى يا أونكل" ترد الأغلبية باستثناء طومى
- "طيب. أنا نازل يا فاطمة !

تدخل الطاهية بصينية هائلة يعلوها هرم من السندوتشات وفناجين الشاى والنسكافيه.

فى تمام السابعة تتشكل الدائرة على هيئة خط مستقيم من المقاعد المتجاورة فى سينما ليلة الخميس بقاعة إيوارت.

الحرية المطلقة فى التحدث أثناء العرض وتناول المأكولات وتبديل الأمكنة والدخول والخروج المستمر من البابِ الخلفى يجعل المكانِ أشبه بسينمات الدرجة الثالثة، ومع ذلك قلما يعترض أحد ونادرا ما تجد من يخرج ساخطاً أو غير مستوعب للأحداث بسبب الضوضاء ..

أما هذه الليلة، فيعم هدوء نسبى ربما لأن الجميع يحاولون فك طلاسم الفيلم الذى يعرض ويربك الرؤوس : كل هذا الصخب All that Jazz!

البطل يستلقى تحت تأثير المخدر فى غرفة عمليات. صدره مشقوق وتعتمل مشارط الجراحين فى قلبه. يظهر على الشاشة شاب يحمل نفس إسم البطل. يحاسبه على أحداث ماضية.

مازال الأطباء يعبثون بالقلب المفتوح. يظهر الشاب ثانيةً لكنه الآن يشكر للبطل انجازاته. تتخلل الأحداث رقصات ومشاهد من بروفات فالبطل مخرج كبير ومدرب لفرقة استعراضية. مرة أخرى يظهر الشاب و...

تخذل "مونى" أحساسيس سلبية بعدم الكفاءة لعجزها عن حل شفرات الأحداث. تظل على صمتها وتحديقها فى الشاشة على أمل ظهور بادرة أمل تفسر ما يجرى. تهمس "طومى" فى أذنيها "على فكرة الفيلم ده صعب، بس أنا لولا شفته مع مامى وشرحته لى ماكنتش فهمت حاجة. البطل ده بيعمل عملية وبيتخيل مراحل حياته اللى بتدخل مشوشة على بعضها و..."

لولا تصادف جلوس "طومى" إلى يسارك أثناء العرض وقيامها بعملية تفكيك الأحداث وإعادة ترتيبها، ما تلذذت بعد أعوام خمسة بالنسخة العربية من الفيلم نفسه الذى عرض تحت اسم "حدوتة مصرية". تلك التوليفة السينمائية المعقدة والجديدة على السينما المصرية جعلت كل من كانوا يشاهدون الفيلم حولك يلعنون التقنيات الفنية الحديثة وأفلام المهرجانات والمخرجين المصريين الذين صعدتهم عبقريتهم إلى سماء العالمية، لكنها تلك الـ "فاطمة" بأعوامها العشرين التى تبرعت بإضاءة بؤرة نور فى رأسك جعلتك تعشقين الفانتازيا ومزج الحلم بالواقع وتمتصين رحيق متعة كاملة تثير الحنق فى نفوس كل من كانوا يتحلقون حول جهاز الفيديو معك وتجعلهم أعداء لما يجهلون.

حالة من التململ تسرى كالعدوى فى القاعة فيكسرها الطلبة بتغيير أماكن الجلوس بين الحين والآخر كأطفال يلهون بلعبة الكراسى الموسيقية. يهمس لها آدم من على يمينها: "مش هقدر أقعد لآخر الفيلم. عندى ميعاد مع نادر ومايكل ف مصر الجديدة".

يفرغ مقعده لتنتقل "شانتال" كرسيا وتصير ملاصقة لها. يفرغ أيضاً المقعد المجاور لـ "طومى" على الناحية الأخرى. كان يشغله "ظافر". يغادره بعد أن يهمس له أحدهم بأن فرقة التراث الفلسطينى اعتذرت عن إحياء الاحتفال بيوم الأرض .. فينصرف للتفاوض مع فرقة أخرى. ينتقل هشام شقيق "مونى" من آخر الصف ليحتل المقعد الملاصق لـ "طومى" كموقع أفضل لمشاهدة وجهها من الجانب، بدلاً من النظر إليه عن بعد.

أما ندى عبيد فكادت تنتقل إلى المقعد نفسه الذى يشغله مهاب لتتزحزح بجسدها النحيف ناحيته، تاركة ثلاثة أرباع مقعدها شاغراً. يحاول مهاب التركيز فى الشاشة ليلملم شتات الموضوع، أما ندى فقد انخرطت فى مداعبة شعره وتحسس وجنتيه وأخيراً وضع قبلات صغيرة على أصابع يده، فلم يسعه سوى أن يحتويها بذراعه اليمنى لتغوص فى صدره المدة الباقية من العرض.

❖

الثامنة صباح كل سبت، داخل مقر المجلة بمبنى العلوم الاجتماعية يشع وجه مونى بهالة من الأزرق السماوى .. إنعكاس الضوء الآتى من داخل المنضدة الزجاجية التى تنحنى بكامل جسدها أمامها، لتجميع العدد الأسبوعى من المجلة، قبل إرسالها فى نهاية اليوم إلى المطبعة لتصدر صباح الاثنين.

طومى: هشرب معاكى نسكافيه بسرعة وأجرى على كلاس السيكولوجى الساعة تمانية ونص!

مونى: مش هتخلى عندك دم وتيجى تشتغلى معانا فى الكارافان؟

طومى: ما ينفعش. مواعيد اجتماعاتكوا نفس مواعيد اجتماعات "أنصار الأقصى".

مونى: يا بنتى إنتى بتكتبى كويس أوى. وكمان هنديكى مرتب شهرى لو جبتى لنا موضوع واحد كل أسبوع!

طومى: القضية الفلسطينية أهم. كل مصرى لازم يشارك ولو وجدانياً على الأقل!

مونى: يشاركهم ولا يشارك سى ظافر بتاعك؟ إنتى فاكرة ظافر ده "شادى" بتاع فيروز؟ "شادى" يا ماما هناك .. "عم يلعب ع التل!"

طومى: يا غبية إفهمى! "ظافر" ملهوش أى علاقة بتعاطفى مع القضية. لو جيتى معايا البيت ممكن أوريكى كمية الكتب اللى عندنا عن الموضوع وممكن أديكى عرض عملته عن أكتر كتاب تأثرت به فى حياتى. وممكن أسمح لك تنشريه، عشان بس تعرفى إنها مش حكاية "ظافر"!

مونى: "ظافر"! يا سلام – فاطمة وظافر! كمية الـ "ط" والـ "ظ" اللى ف أساميكو مالهاش حل! مش عارفة ليه ما سموكيش "دينا" ولا "داليا" بدل العذاب اللى احنا فيه ده!

طومى: مامى كانت عايزة حاجة مختلفة .. دى أسماء العامة أمثالك !

❖

انكفاءة ممتدة قد يخترقها دخول وخروج بعضهم لإلقاء السلام أو للتقدم بموضوعات فى الدقائق الوجيزة ما بين محاضرة وأخرى ..

استغراق تام فى كيفية تنسيق المواضيع على الصورة الأكثر جاذبية وقد تستقيم لثوان لإراحة عمودها الفقرى فتتشتت قليلاً، اشتهاء لحياة أكثر رحابة خارج جدران المجلة فى ساعات التفرغ النهارية ..

ترى نفسها عضوة ناشطة فى "جمعية بولاق" ... تروح وتجيء مع زميلاتها بين أطفال طحنتهم ظروف الفقر والجهل فى الأحياء المعدمة. تغمض عينيها على صورتها وقد مسحت على شعر طفل يتيم أو أدخلت البهجة إلى قلبه بلعبة أو كرة جديدة مثلها مثل عضوات جمعية "بلدى".

وعندما تفتح عينيها على خبر نسقته عن "مشروع البسايسة" ترى نفسها تسامر فلاحة وتفرحان سوياً بسخونة فطيرة مشلتتة خرجت تواً من فرن يعمل بالطاقة الشمسية فى قرية مصرية حديثة.

تحلم بأن تمسك بالفرشاة وتشكل عالماً ملوناً فى دروس "جماعة الفن التشكيلى" أو أن تترك عنان خيالها للمنظوم من كلمات "نزار" ونازك الملائكة" و"بدر شاكر السياب" فى جماعة الشعر العربى ..

عالم زاخر بالأنشطة يمور بالحركة والإنتاج خارج غرفتها تلك؛ لكنه سحر تلك المنضدة الزجاجية التى تداعب وجهها بضوئها .. أو قد تكون قداسة المهمة التى تؤديها هى ما يبقيها بين تلك الجدران الأربعة .. أخباراً تراجعها وتنسقها وتوفر

لها مساحات ورقية لتبرز أهداف صانعيها وتستجلب المزيد من العطاء. تزفر تنهيدة وتتردد فى ذهنها كلمات شريفة: "من جهز غازيا فقد غزا !"

بكفوف متشابكة وتؤده يدخل مهاب وندى عبيد ..

– إنتظرينا قدام باب إيوارت الساعة تلاتة بالظبط. هنعدى عليكى أنا و"هووبى". مش تلاتة كويس يا حبيبى؟ تسأله ندى بحنان أموى وهى تهدهد خصلات شعره وقبل أن يجيب أو تفكر "مونى" تكون ندى قد اختفت كطلقة كاتمة للصوت. تماما كاليوم الأول الذى تعرفت فيه إلى مونى – لكن ليس قبل أن تربت على كتفها وتشملها بتلك الرعاية الأمومية الموجزة.

على الرغم من نحافة ندى عبيد المفرطة، تعطى انطباعاً بأنها تكبرهم سنا، ليس فيما يخص تقاسيم الوجه. لكن لنطقها بكلمات وإتيانها بلفتات تقوم بها صديقات الوالدات فى الصالونات. مودة ممزوجة بملاطفة من لا ينوى البقاء كثيرا. من ليس لديه الاستعداد لأن يتحمل سخافاتك وسقطاتك.هل تشملها أمها بحنان زائد عن حاجتها فتفرغ ما يفيض على "مهاب" ومن تبقى من أصدقائهما؟

❖

كأم تحمل ثوب زفاف ابنتها بعد أن فرغت توا من تطريزه، تحمل "مونى" صفحات المجلة الأربعة بكلتا يديها. تكاد لا تشعر بقدميها فى الخطوات القليلة التى تقودها إلى المطبعة. إنها خفة الإنجاز التى تلغى الإحساس بثقل الجسد وحركة السيقان.

باب صغير ينقلك من عالم إلى عالم آخر. الهدوء المطبعى يشبه السكون المتحفى فيما عدا ذلك الطنين الخافت

المتواصل لماكينات الطباعة. وأول ما يصدمك هو تلك الرائحة النفاذة المميزة للمكان. خليط من روائح الصفائح، مطاط الأوفست، الأحبار ورزمات الورق. مزيج تتشربه حواسك فيملؤك رهبة غامضة .. تماماً كالذى يحدث لك حين تجتاز باب مستشفى. قد لا يكون سبب الزيارة باعثاً على الألم. فربما تكون ذاهباً للمباركة بمولود جديد، إلا أن توليفة رائحة المخدر وكاوتشوك الأرضيات والهمهمات الرتيبة هى التى تشملك بتلك الرهبة المقدسة.

إنها مهابة المكان نفسه الذى يعين البشر على الخروج إلى الحياة أو الخروج منها. مثله مثل المساجد والكنائس حين تتبدل على أيامها طقوس الوداع بورود بنفسجية أو فرحة الدخول إلى دنيا جديدة بزهور ملونة.

❖

فى غمرة الاستغراق فى المهمة الأسبوعية تنسى "مونى" أن تخبر ندى ومهاب أنها ذاهبة اليوم إلى الزمالك لأخذ عرض الكتاب من "طومى" حتى يأخذ دوره فى النشر فى العدد القادم. تتذكر فقط حينما يمر آدم من أمامها وقد اعتلت قسماته كآبة ظاهرة يرفض التصريح بسببها، أو بمعنى أدق ينفى وجودها ويغير دفة الحديث.

- هتروحى لطومى إزاى؟
- لسة مش عارفة
- أوصلك؟
- بالموتوسيكل .. لأ طبعاً مش ممكن !!

إحساس مرعب أن تطير فى العراء تجاور جسدك هياكل السيارات بكل تفصيلاتها الخارجية. الأبواب المعدنية الضخمة. زجاج النوافذ يعلو ويهبط. لفات الإطارات التى تثير الأتربة. وأنت بلا ساتر يحجب عنك المهالك. حتى وإن كانت ذرة رماد تهاجم عينك المكشوفة. والفزع كل الفزع حين يتبختر بجوارك حنطور فى الشارع المؤدى إلى برج القاهرة فتجد وجهك ملاصقاً لرأس حصان.

تتزايد ضربات قلب "مونى" مع اتساع الفراغ حولها فتتشبث بجسد آدم بكلتا يديها وما أن تأخذ الدراجة البخارية سرعتها حتى تكون قد احتوته تماماً. هل الفشل فى الاحتواء المعنوى يعوضه أن تقبض على الشخص جسدياً؟ أن تتلامس معه فترشدك نبضاته إن كان ملكاً لك أم هارباً إلى مجهول لا تعلمه؟

تغمرها تجربة التوحد مع كل جزيئات الكون بلذة المغامرة. هى الآن تتحرك بسرعة المعادن المارقة بجوارها وتتبختر كالخيول وتتناثر كذرات الهواء وتمسك بعنصر زئبقى سريع الإفلات .. آدم.

❖

الصوت الهادر الذى تطلقه الدراجة وهى تنفث بخارها وضجيج الأفكار يطيحان برأسها.

"تيجى نغنى؟" يسألها آدم بصوت مرتفع وهو يثق من أن الإجابة ستكون انخراطاً فورياً فى ممارسة الطقس الأجمل لديهما .. متعة الفرار من اللحظة ..

حيرتنى بهواك .. رقصت قلبى معاك
أما ده شىء ولا الخيال
طول ما الحياة بتدوب .. وطريقنا مليان دوب
عمرى ما بطّل رقص معاك !

مع تعالى نبراتهما لمقاومة تيار الهواء المعاكس وتناثر خصلاتها وتبعثر ضحكاتهما، تشعر بأن تلك المغامرة جديرة بأن يخوضها المرء ولو لمرة وحيدة وأخيرة.

أمام منزل "طومى" تنزل وهى ممتلئة إجهاداً وفرحاً.

– مرسى يا "دودى"!

– ما بقتش أحب الإسم ده. قولى لى آدم .. بس !

يفرض الواقع نفسه مرة أخرى. حفنة التراب التى ينثرها آدم فوق مياههما التى قلما صارت تصفو، فيلوذ بفرار أو غضب حتى لا تستمر البهجة.

❖

يستقبلهما والد "طومى" بنفس الهيئة المهيبة والملابس الكاملة. قسماته التى تشبه إلى حد كبير ملامح فاطمة، فلا تدرى إن كانت تنجذب إليه أم إلى ملامح أخرى أحبتها. شعره وهج قطنى يحيط رأسه بهالة من ضياء وكتاب لا يفارق يده كلما تواجد بالبيت. نبرته الهادئة الراسخة تدعوك إلى قول أى شىء ، لكى تحصل فقط على رد فعل صوتى من تلك الحنجرة الأبوية الحنون ... هكذا أنت يا "مونى"، مثلك مثل أية دلوعة لأبيها وشقيقة لأخ يكبرها .. كل كهل أب عطوف وكل شاب هشام .. أو ما تتمنين أن يكونه هشام ..

– إزيك يا ست "مونى". وحضرتك بأة صحفية كبيرة زى ما فاطمة بتقول؟

– يعنى مش أوى يا أونكل .

– يبقى لازم تقرى كتير وتشوفى مسرح وسينما .

يختفى لثوان فى غرفة مكتبه ويأتى بكتابين على غلافهما اسمه بخط عريض. الكتاب الأول مجموعة قصصية، والثانى مسرحية عالمية قام بترجمتها. ينقش إهداء أعلى الصفحة الأولى.

"إلى الإبنة العزيزة والصحفية الواعدة الآنسة المحترمة منار وهبى"

عادل رشيد

للمرة الثانية يدوخها إسمان يتجاوران. فلأول مرة تحظى بنسخة كتاب موقعة بإسم المؤلف.

تسألها فاطمة: هتشربى شاى ولا تاكلى؟

ترد مونى: إمشى يا بنت إعمليلى شاى. إحنا هنا كُتاب قاعدين مع بعض. مش عايزين إزعاج!

❖

فى حجرة سنووايت المحببة تتصفح "مونى" العرض الذى قدمته لها فاطمة عن رواية "رجال فى الشمس" لغسان كنفانى.

يقشعر جسد "مونى" بينما تمتصها أحداث حكايا رجال ثلاثة تشوهت أحلامهم ثم ماتوا إحتراقا بوهج الشمس وهم يقطعون الصحراء الشاسعة هرباً إلى دولة نفطية بداخل خزان حديدى ليحققوا حلم البيت والأمن ولقمة العيش .. تنحبس أنفاس "مونى" بين كل بضعة مقاطع فتعود للكتابين الذين أهداهما لها والد طومى وتعاود النظر إلى الإهداء ...

أن تجد توقيع المؤلف على الصفحة الأولى من عمل أدبى يشعرك بمكانة خاصة. بأهمية دورك المنتظر فى إكمال ما بدأه. بأنك الولى والمتعهد بأن تعتنى وتهدهد ما أفرزه عقله وقلبه ليتناثر بين يديك على الورق .. تعود لـ "رجال فى الشمس" وتستشعر الرياح الجافة اللاهبة. ذرات الرمال. صحراء الموت الصامتة.

أى تحليل رائع لأديب فلسطينى لا يعرفه من فى مثل عمرك وأى انتماء لقضايا الوطن وأى غباء فى عدم إمتاع الكثيرين بتلك الهبة التى منحك الله إياها يا طومى!

- "عارفة دماغك فيها إيه. هتقولى إنتى اهتميتى بالأدب الفلسطينى عشان تعملى منظر قدام ظافر! عشان ترتاحى ظافر راجع أمريكا لأهله الأسبوع الجاى". تقول طومى بنبرة تحد لـ "مونى"
- لأ. عايزة أقولك إنى بجد منبهرة بيكى. إنتى عملتى الكلام ده لوحدك؟
- "لأ. مامى ساعدتنى فيه."
- بذمتك مش عايزة تبقى زى أبوكى؟

ربما لهذا السبب تحديداً كانت فاطمة قاطعة فى رفضها لفكرة النشر. فأن يكتب الإنسان اسمه بالكامل هذا لا يعنى أنه

يصف نفسه فقط، بل أن يكون شاعراً بكنز الألفاظ الذى يحتويه هذا الاسم وأن يحس بموقع الأب الذى يجاور موقعه وغياب هوية الأم وأن يواجه هذه الواقعة المؤلمة. هكذا يأتى الاسم المستعار ليعبر غالباً عن رفض إسم العائلة.

مونى: إنتى فاكرة نفسك بتناضلى برقص الدبكة وأمسيات الشعر والشال اللى إنتى لفاه حولين رقبتك ده؟ فى الكتابة هتحققى نفسك وتوصلى أفكارك !

طومى: مش هاكتب !

❖

كأديب ومفكر نجح الأب فى إيقاع أستاذة النقد الفنى بجامعة السوربون فى حبائله وأثمرت الزيجة "فاطمة". وبعد فترة اغتراب فى بلاد أهم ما يعنيها الجوهر .. كان عليه بعد العودة أن يثبت جدارته فى منح الحماية المادية وتوفير عيشة وثيرة لسليلة العائلة الكبرى.

فى زمن ما بعد النكسة لم يكن هناك بديل عن الموت جوعاً سوى كتابة سيناريوهات لتمجيد تلامس الشفاه وحرارة البكينى وبريق السلاسل الذهبية على صدور مشعرة لرجال يطيلون السوالف ويرتادون المراقص بالشارلستون والقمصان اللاصقة المفتوحة لإظهار العضلات المفتولة لتتم المتاجرة بأجساد الرجال جنباً إلى جنب مع أجساد النساء. أجساد فشلت فى صد العدوان ونجحت فى جذب عيون نهمة ونفوس تواقة للذوبان فى أى شىء يطمس الوعى ولو للحظات هى مدة عرض تلك الأفلام.

أما حاملة دكتوراه السوربون فى النقد الفنى فلم تجد ما يستحق النقد وكان عليها إما أن تخضع الجسد لمضادات الاكتئاب وجلسات التحليل النفسى على أسرة العيادات النفسية، أو أن تأخذ أفكارها وقلمها وترحل بعيدا كلما واتتها فرصة للتدريس كأستاذة زائرة لأسابيع أو شهور فى أى من بقاع الأرض، تاركة خلفها شقتها الفاخرة على نيل الزمالك التى كانت تطل من شرفتها على الآلام المنسية للمطحونين الذين يتكدسون على الضفة الأخرى من النهر.

لم تستطع "مونى" سوى أن تكون وثنية فى مشاعرها تجاه والدة طومى فالبرغم من تقديس "طومى" لها كإلهة أسطورية وتقديم البراهين والدلائل فى كل لحظة على يقين وجودها وصدق رسالتها، لم تقدر "مونى" على أن تؤمن بهذا الغيب وآثرت الاعتقاد فيمن يستقبلها مستبشرا ويرد عليها فى الهاتف وينقر عليهم باب الغرفة ويحمل لهم أكواب الشاى فى كامل أناقته – وأخيرا يدمغ وجوده بإهداء وتوقيع على الصفحات الأولى من كتابين دفعة واحدة.

لكنك فيما يخص تلك المسألة ستلوذين بشهرزادك العصرية الساكتة. تتلقين الحكايا من فاطمة، والتى ستأخذ فى التطور لتصير صداما وعراكا واستحالة معاشرة بينها وبين والدها، فتحرمين من غرفة سنووايت بعد أن تلملم فاطمة أشياءها الصغيرة وتسكن المدينة الجامعية. عندما أرادت فاطمة أن تخلد والد صديقتها نرمين، عاكست رغبتها الدفينة فى رفض الكتابة وأمسكت بالقلم لترسم حياته الآفلة فى سطور قليلة. أما أنت يا من تدمنين على الإمساك بالقلم وتستنشقين رائحة الورق بعشق فلم تقوى سوى على أن تنحنى تبجيلاً لوالد طومى بداخل نفسك فقط. حتى عندما منحت نفسك حق المجادلة وقاومت استغراق طومى فى شق دروبها لمناصرة القضية برقص الدبكة وتنظيم الأمسيات

لأعمال "محمود درويش" و"معين بسيسو" و"غسان كنفانى" فى مجتمع يضم أبناء النخب المنعمة. أسماء عائلات تتردد كصانعى قرارات فى نشرات الأخبار. رجال ترينهم على الشاشات من ذوى الياقات البيضاء والسترات الأوروبية البراقة. يسكنون القصور ويسيرون فى رفقة الحرس الخصوصيين .. ولأنهم ليسوا الأطفال الحقيقيين لأغنيات فيروز .. ليسوا من بكى عليهم الطفل فى المغارة وأمه مريم .. ليسو أطفالا بلا منازل .. ليسو من دافعوا واستشهدوا فى المداخل". حين فعلت هذا بـ "طومى" كنت تناقضين نفسك لأنها الروح نفسها التى انقسمت بينك وبينها هى التى ستجعلك تفعلين الشىء نفسه فترتدين الجلباب الفلاحى ذا الورود الزاهية ومنديل القوُية المزركش وأنت تروجين لتذاكر حفلات "منير" و"إيمان البحر" و"فؤاد عبد المجيد" و"محمد نوح" بعد أن تصيرى عضوة ناشطة فى نادى "مصر حبيبتى"، وبدلا من أن تمسحى على رأس يتيم فتنالين بعدد شعره حسنات أو أن تمنحى بسمة أو حضنا لطفل معاق فى جماعة "بلدى"، ستغادرين قاعة إيوارت وأنت تتقترين عرقا وتحاولين ترميم أحبالك الصوتية بعدما فقدت كفاءتها تماما لسوء استخدامك لها على مدار ساعات ثلاثة وأنت تهتفين وراء "نوح":

مدد مدد .. شدى حيلك يا بلد

إن كان ف أرضك مات شهيد .. فيه ألف غيره بيتولد

وقد تتمكنين من كتم صرخاتك لكنك لن تكبحى دموعك وهى تنهمر بينما يختتم "منير" صرخته الطويلة الجميلة المنغمة منشدا:

يا ناس يا ناس يا مكبوتة .. هى دى الحدوتة

حدوته مصرية .. حدوتة مصرية

❖

يرن جرس البيت فى إلحاح متواصل مع نقر خفيف على الباب "يمكن ده هشام. أنا خليت ياسر صاحبه يقوله يعدى علـــىّ عندك". يبدو على هشام وكأنه صعد الأدوار الخمسة عدوا علـــى السلم دون انتظار للمصعد العتيق. يبادر طومى بأنفـــاس لاهثـــة: "إنزلى معانا بسرعة يا "طومى". الونش هيشيل عربيتك ولزقـــوا لك مخالفة ع الإزاز!".

ترافقهما طومى منزعجة لتجد سيارتها تستظل فى أمـــان بأغصان الشجرة المواجهة للعمارة كما تركتها تماما. يشير هشام إلى مساحات الزجاج الأمامى ويقول: "المخالفة آهه!"..

—

ترفع طومى المسّاحة لتجد وردة حمراء يفوح منها أريج طازج وتطرزها حبات الندى التى تبلل الكارت المـشبوك فيهـــا والمرسوم عليه قلبان .. ترفع طومى حاجبيها غيظاً وتهز رأسها دلالا. تحمل الزهرة وتصعد إلى شقتها !

❖

مونى: إنت عايز إيه من طومى؟ إنت مش بتقعـــد مـــع البنت الغريبة دى اللى اسمها كريمة؟

هشام: عادى .. عادى .. قولى لى بس طومى هتلبس إيه فى الحفلة التنكرية ؟

—

مونى: أظن بدوية !

❖

لولا أن هشام يتواجد بكثرة بصحبة كريمة تلك، ما استرعت انتباه "مونى" بأية حال. فهى من هذا النوع الذى يمر أمامك دون أن تلحظه. ملامح هادئة وخطوات خفيفة ووحدة قد يكون مبعثها استعلاء أو انطواء وعدم اشتباك فى أية أنشطة طلابية. ففى مجتمع كهذا يميزه التكتلات والجماعات العرقية لا يمكن أن يسطع نجمك إلا إذا كنت عضواً فى جماعة. واحد ضمن فريق، فيشحذك ويلمعك فعل التوحد بالكثيرين. أما إذا طلبت إنطفاء وأفولا فانفرد بذاتك.

تقطع الجولف الحمراء الطريق من الزمالك إلى مصر الجديدة فى صمتٍ تام. تشعر بحاجز شفاف يفصلها عن هشام يتزايد كثافة يوماً بعد يوم. هل ما كان يقربهما فى الماضى هى المدرسة وليست رابطة الأخوة. إنه يتواجد أيضاً فى عالمها الجديد ومع ذلك تتوطد أواصر الغربة بينهما .. غربة من تعرف على أشياء وابتعد عن أشياء مازال الآخر على عهده بها. ليتك يا هشام لا تربك علاقتى بـ "طومى" وأن تعيش دنياك الخاصة بك. فأن تدخل هذا المكان لا يعنى أن تسترخى على مقاعده فى الفناء أو أن تتمايل رقصاً أو طرباً فى حفلاته. عليك أن تكون قطعة من كبده وقلبه. نزيلاً منتظماً فى قاعاته. مسخراً عقلك ووجدانك لتلقى مفرداته والتى تشكل شفرة عاطفية تجعل كل أرواح المنتمين إليه تتلاقى دون أدنى حاجة إلى حروف أو كلمات.

❖

فى المساء تهاتفها ندى عبيد لتخبرها أنها ستمر عليها فى السابعة صباحاً بسيارة "مهاب".

كأم تمنح الحماية والتأمين المستقبلى تسألها ندى إن كانت ترغب فى أى شىء الآن ثم تستطرد بسؤالها التقليدى الذى تختتم به أية مكالمة:

"طب مش عايزة حاجة من هووبى؟"

وكما ظهر صوتها الخفيض يختفى. طقس يتكرر فى اليوم عدة مرات كنسمة مارقة من أمامك وقبل أن تستمتع بمداعبتها لوجهك، تكون قد تبخرت بعيداً.

ثوان لا تحمل أية تفاصيل حميمة وفى الوقت ذاته تمتلئ بالرعاية المفرطة والاهتمام الشديد وتأمين الطريق ووعد بصباح جماعى زاخر بالحكايات.

❖❖❖

Too Good To Be True

أجمل من أن يكون حقيقياً

"أنت أجمل من أن تكـونى حقيقيـة" .. مطلـع أغنيـة إنجليزية يداعب خيال "نرمين" تتغنى به دائماً وترددده على سـبيل المزاح مدعية أنه موجه إليها.

لم تكن نرمين تعلم أن الجملة تحمل فى طياتهـا بعـض الحقيقة. فنرمين تقف على الحافة بين زمنين .. زمن ما قبل كتابة طومى لقصة "الزيارة انتهت" حيث الطفلة الشقية المدللة الكامنـة تحت جلدها .. وزمن ما بعد القصة حين تكون الزيارة قد انتهـت فعلاً وتحولت نرمين إلى فتاة ناضجة تتولى نفـسياً أمـر نفـسها ووالدتها وتحمل على كاهلها هم شقيقها الأصغر.

فحينما ترى نرمين فـى ملابـسها الكلاسـيكية الأنيقـة وحذائها المدبب ذى الكعب المرتفع وبشرتها البرونزيـة التـى لا يمكن أن تكتسب تلك الانعكاسات الذهبية الـسمراء إلا بمعاونـة مستحضرات عالية الجودة وتعرض محسوب لأشعة شمس أوقات بعينها، ستجزم فوراً بأن "نرمين" ليست إلا صـورة فوتوغرافيـة لفتاة مهندمة خرجت منذ قليل من إحدى صفحات كتالوج للأزيـاء الفرنسية، ولن يجول بخاطرك أنها طالبة قسم علـوم الكمبيـوتر التى غادرت توا مبنى العلوم بعد أن قضت فيه ساعات مطولة فى التدريب أمام برامج الكمبيوتر المعقدة.

وحين تطالعك بابتسامتها الرائقة وطرافة تعليقاتها لن تدرى أنها تمتلئ هما بأمور غير مسبوقة فى عائلتها بعد أن تلقف شقيقها دوامات تيارات متطرفة دارت برأسه وجلبت أفكاره الجديدة إلى البيت نفسه الذى طالما تنفس نسيم الحياة العصرية المتفتحة. وحين تحاول البحث فى وجهها عن ملامح أخرى مغايرة لقسمات وجه "طومى"، ستحملك عيناها اللامعتان إلى زمن الأربعينيات حيث كانت نعيمة عاكف تربكك وتجهدك بحيويتها بينما أنت قابع مكانك أمام جهاز التليفزيون .. لذا أطلق عليها آدم اسم "لهاليبو" حيث تكون نسخة طبق الأصل من نعيمة عاكف فى الأوقات التى لا تتطابق ملامحها وملامح "طومى".

وحين تجلس تلك الحسناء الأنيقة واضعة ساقاً فوق الأخرى فى أحد المطاعم الخمسة نجوم برفقة المجموعة، لا يمكن أن يتصورا هم أنفسهم أنها ستكون مصدر البهجة والهزل بعد لحظات قليلة، حين تنتقل بكل تلقائية وبساطة إلى آخر المطعم لتحادث شخصاً قد انتهى من غدائه تاركاً كل الخس بطبق السلطة، فتسأله فى منتهى التأدب أن يمنحها الخس الذى تعشقه طالما لم يعد بحاجة إليه وتعود بكل الرفعة والبساطة نفسها حاملة طبق الخس وسط ذهول الرجل والضحكات الهستيرية للمجموعة فتسكتهم بجملتها المغناة "أنا أجمل من أن أكون حقيقية"!

❖

وحين تشاهد "مهاب" وهو فى رفقة ندى عبيد أو "هووبى" كما تفضل أن تناديه هى، تجزم بأن هذا الفتى قد خلق فقط لتبادل المداعبات والتلامس معها. أو لكى ينفذ تعليماتها التى تصبها بنعومة فى أذنه بأن يمر على هذا ويوصل تلك أو أن يصاحبها إلى الخياطة أو ينتظرها إلى أن ينتهى الكوافير من تصفيف شعرها. وقد تحكم عليه بأنه من هذا النوع من الفتيان

المدللين الذين تُقابل كل شطحاتهم بموافقة الأهل حتى وإن كان إيواء فأر بالبيت يمنحه الإسم والرعاية إلى أن يمرض ويتوفاه الأجل، فيقيم له مهاب مراسم جنائزية داخل البيت ويحمله فى صندوق ويحفر له قبراً بحديقة المنزل واضعاً فوقه خشبتين على هيئة صليب ناقشاً حروف اسمه تحتها "الحبيب ساويرس"!

أما إن رأيته بداخل فصل الأحياء وهو يجاور "مونى" و"طومى" وتهتز كل ذرة فى جسده وتنهمر الدموع من عينيه ضحكاً من جراء دعابة تمر على خاطره أو ساخراً من طريقة مشى الدكتورة – ليضيّع على الفتاتين الشرح النظرى لتشريح جسد الأرنب الذى سيكون عليهما أن يقوما به عملياً فى الحصة التالية بداخل المعمل، فربما تساورك الشكوك بأن هذا الـ "مهاب" من النوع الذى لا يلقى بالاً بشئون العلم ولا تشغل رأسه الجميل مسألة التقديرات.

فى المعمل الغارق فى الألوان الباردة ورائحة الفورمالين تقف "مونى" و"طومى" معدومتى الحيلة فى المجموعة "B": تتمدد أمامهما جثة الأرنب الملقى على ظهره فى انتظار من يمزقه وفق ما شرح لهما.

يرمقهما "مهاب" عن بعد وهو منخرط مع زميل فى تشريح أرنب آخر فى المجموعة "D" فيهمس لزميله ببضع كلمات منتهزاً إنشغال المشرف فى مشكلة ما خارج المعمل. يتسلل إليهما عاملاً مشرطه بكل مهارة فى الجسد المسجى أمامهما ويعود مسرعاً إلى مكانه، فتحصل الفتاتان على تقدير امتياز فىّ الجزء العملى من المادة، دون أن يتطلخ قفازاهما الكاوتشوك بنقطة دماء واحدة.

يظلل "مهاب" بالحنو نفسه باقى أفراد الشلة فى مواد العلوم الإنسانية التى يختارونها سوياً ليحافظوا على دائرتهم الخاصة أطول قدر من اليوم.

بعد انتهاء اليوم الدراسى يندس مهاب فى غرفات الأساتذة ويقوم بدور اللص الشريف، فيلتقط أبحاثاً قديمة بعدد أفراد المجموعة ويبقيها فى حوزته، حتى إن صادفت أحدهم عثرة ما فى القيام ببحثه، يوزع عليهم ما لديه من أبحاث حتى وإن لم يستعملها هو!

"مهاب عزيز إسكندر"، زميل الدفعة نفسها إلا أنه يصغرهم بعامين كاملين. أخذته عبقريته فى التحصيل إلى سنوات تعليمية أعلى من عمره فماثلهم فى الصف.

لا تدرى "مونى" كيف وممن تلقت تلك المعلومة المتداولة عن "مهاب"، فقد كانت فى حد ذاتها صاعقة كفيلة بأن تهمش قائلها "مهاب ليس له دين". أكان آدم هو الذى أخبرها أم فاطمة أم نرمين أم شانتال؟ الأكيد إنها لم تكن ندى عبيد، فهى الوحيدة التى يراودها الأمل فى أن يتخلى "مهاب" عن فكر ماركسى توارثه أبا عن جد وديانة ينتمى إليها بالاسم فقط، فى مقابل قبلاتها ولمساتها التى تغمره بها، كمن يزود شخصاً بجرعات مخدرة إلى أن يأتى اليوم الذى لا يستطيع فيه الاستغناء عن تلك الضروريات.

وبقدر ما كانت تنطوى العبارة على فداحة بقدر ما كانت تحمل فى طياتها بشائر أمل. فطالما مهاب ليس متمسكا بعقيدته المدونة فى بطاقة هويته فسيكون من الأسهل أن تحاول الشلة زجه فى جبهتهم الدينية، ويكون زواجه من ندى عبيد ليس بالأمر المرفوض.

أن تقرأ عن شخص يتبنى تلك الأفكار فهذا أمر جائز وربما رسمت له صوراً فى خيالك أو كونت عنه آراء. ربما تصورته متجهم الوجه. يرتدى اللون الأسود. يكره نفسه ويضخ كراهيته على الناس جميعا. أما أن يكون هذا الشخص هو "هووبى"، ذلك القماش الطيع فى يد "ندى عبيد" أو صاحب تلك الابتسامة التى تكشف أسنانه البيضاء واليد الحنون التى تربت على أكتافهم جميعاً فى مودة أصيلة، جعلت الجميع يجتهدون فى تحقيق المأرب نفسه الذى تسعى إليه "ندى عبيد" .. كل على طريقته. إنتهت الاجتهادات بالإجماع على ترشيح شخص متاح تبنى أيديولوجيا مماثلة فى وقت مبكر من حياته إلى أن أهداه الشك المتواصل إلى اليقين الكامل.

إمتلأت أرفف مكتباتهم وحقائبهم ومقاعد سياراتهم بمؤلفات الدكتور مصطفى محمود. يقرأ الواحد منهم النسخة ويبدلها بأخرى مع زميله، ليس ليبارزوا مهاب بما ورد فيها، بل ليكونوا أهلاً للمقابلة التى يسعون إليها مع المؤلف. دعوا له فى صلواتهم. تمنوا ألا تضرب بينهم الحواجز فى الحياة الآخرة. زينوا له نعيم الجنة مثل أم تحث طفلها البخيل على أن يعطى قطعة من فطيرته لولد فقير. لكن مهاب ليس بالطفل الصغير المتشبث بفطيرته. إنه ذلك الشاب اليافع الذى يضرب بساقيه الطويلتين عرض شارع محمد محمود ليعبر إلى المكتبة ويخرج منها حاملاً خمسة أو ستة كتب على الأقل من مؤلفات "دوركايم" و"ماكس فيبر" و"هاملتون" و"نيتشه"، ينتهى منها فى ليلتين أو ثلاث ويعيدها ليقوم باستعارة الأحدث من مؤلفات عالم الاجتماع الأمريكى "بيتر برجر" محلل العلمانية فى العالم الثالث. وهو نفسه الطالب "مهاب عزيز إسكندر"، الوحيد بينهم الذى حصل على A+ (امتياز بجدارة) فى مادة الاجتماع ٣٢٥، حين وقف مجادلاً الأستاذ الأمريكى إنه ليس بالضرورة أن يكون أى منتم للكنيسة قاطعاً فى تقسيمه للعالم إلى مجال مقدس ومجال علمانى وبرهن "مهاب" بـ

"سكافا رودنا" الذى أسس فلسفة مسيحية علمانية فقد كان عضواً فى الكنيسة ولكن كان حراً فى تفكيره. رفض التفسير الحرفى للإنجيل وانحاز للتأويل الرمزى فانتهى إلى وحدة الوجود ومن وحدة الوجود انتهى إلى إنكار الثنائيات المتضادة .. الخير والشر .. الحياة والموت".

فى هذا اليوم كان هناك ثمة ميثاق غير مكتوب فى رؤوسهم جمعياً بأن يريحوا عقولهم التى أجهدوها على مدار ثلاثة أشهر وأن يرفعوا ما لديهم من مؤلفات عديدة لكاتب واحد فوق أرفف مكتباتهم، مكتفين بأن يتركوا مهاب لحجج قلبه، فالجملة التى حفظوها عن ظهر قلب فى هذه المادة هى مقولة باسكال الشهيرة بأن "للقلب حججاً لا يعرفها العقل".

❖

لو سمعت أحدهم وهو ينطق باسمها دون أن تكون على علم مسبق بصاحبته، فستتطبع فى ذهنك صورة لفتاة بشعر أشقر متهدل ولكنة فرنسية وجسد أهيف رشيق. إنها "شانتال" التى لا يعكس اسمها سوى التعليم الفرنسى الذى تلقته والدتها فى مدرسة الراهبات بأسيوط. أما هى بهيئتها المفرطة فى الاحتشام فيبدو مظهرها خارجاً عن السياق العام للشلة والذى يتخذ من الوسطية منهجاً.

آذان الظهر. آذان العصر. تلفظهما فى اليوم مرتين وتهب واقفة وكأنك تستمع إلى إذاعى يعلن: حان الآن موعد آذان الظهر ويشفعه بدعوة الآذان ثم حديث شريف.

لم تكن "شانتال" تقوم بدور المذيع فيما يخص شئون الدين فحسب، بل أنك تستشعرها موجة كهربية تتدفق إخباراً. لذا لم يكن من غير المعقول أن تنتمى لتخصص آخر سوى كلية الإعلام.

تفرغ شانتال من أداء صلواتها وتقبل بنشاط زائد نحوهم قائلة: "يالا نهرتل بأة" ثم تبدأ فى إطلاق ضحكاتها وملء الأرجاء مرحاً وكأنما تريد أن تنفى ما كانت تحاول أن تثبته منذ دقائق .. الجميع اليوم مستغرقون فى سماع التفاصيل السعيدة الخاصة بحفل خطوبة شانتال إلى حب عمرها بالفندق الفاخر. ستكون الموائد مغطاة بمفارش من الأورجانزا البيضاء ومحلاة بشرائط من الحرير الوردى. الزهور مجلوبة من هولندة ومزمومة بحرير من اللون نفسه مع الشموع المعدة خصيصاً على هيئة قلوب متداخلة. الكوشة أرجوحة بيضاء مدلاة من السقف بأشرطة الحرير والدانتيلا. والبساط المؤدى إليها تعكف على نسجه كبرى مصانع السجاد لكى يليق بكبار الزوار من المعازيم والذين يمثلون الطبقات التى تمسك بمقاليد الأمور بأطراف أصابعها. لم تمثل تلك الكماليات لـ "شانتال" أكثر من إطار يبروز فرحتها الحقيقية. رباطها برجل أحلامها. تشابك أيديهما وسيرهما جنباً إلى جنب فى ممر يؤدى بهما إلى تلك الأرجوحة الأسطورية والورود تتطاير وتتناثر أمامهما.

السنون التى تسربت من طفولة ومراهقة شانتال فى البلد الخليجي هى المفتاح الذى يفك شفرة أى فعل قد يستغلق على الفهم تأتى به. فرط الحشمة فى المظهر. الصلوات المعلنة التى كانت ضمن منهج الحياة اليومية فى المدرسة. المرح الذى يتلو الطقوس كإجراء تعويضى عن السنين المفقودة وأخيراً "رائد" .. الحبيب الذى يكبرها بما يزيد على العشر سنوات.

المجتمع النفطى المغلق والأب العسكرى وأصول اللياقة والسلوك المنتظر من بنات العائلات الذى تلقنه لها الأم، جعلوا من "رائد" قريب الأب، والذى كان يعاونها فى شرح مالا يخترق تلابيب مخها من معلومات، جعلوا منه رجلا فوق العادة، مستعداً دائماً للقيام بكل شىء وأى شىء.

الثقة اللامحدودة التى منحه له الأبوان جعلتهما يقومان بسحب الباب عليهما أثناء المذاكرة حتى لا يعوق تركيزها عائق. فصار الباب مغلقاً دوماً مثلما صارت شائتال قطعة حلوى ذائبة فى فم معلمها.

فى بهجة هيستيرية تخرج حزمة من الكروت الوردية المفضضة وتوزع كل منها على صاحبه قبل الموعد المحدد بشهر كامل ثم تلملم فرحتها وتنطلق مهرولة إلى محاضراتها.

❖

كروت حمراء وصفراء وخضراء معقوصة بورود بألوانها، تشتبك يومياً فى مسّاحة زجاج سيارة فاطمة. يغير هشام اتجاهه صباحاً قبل أن يذهب إلى جامعته لكى تكون أوراقه الملونة أول ما تقع عليه عين فاطمة. المحتوى هذا الأسبوع كان واحداً تقريباً: "هل تقبلين أن تكونى نصفى العذب فى الحفل التنكرى؟" مكتوبة مرة بالعربية وأخرى بالإنجليزية وعلى كارت ثالث بالفرنسية.

❖

فى السابعة مساء يوم الحفل التنكرى، كانت المرة الأولى التى تجلس فيها مونى إلى جوار آدم فى سيارته البيجو الرمادية

الجديدة، لكنها فى هذا اليوم لم تكن سوى حكمت هانم .. ولم يكن هو سوى ناظم باشا. تقطع السيارة الجديدة الطريق ببطء الأربعينيات فما كان يمكن لإنسان رزين مثل ناظم باشا ببذلته الشاركسكين وكاتينته الذهبية التى تتدلى على وسطه وطربوشه النبيذى المنشى أن يقود سيارته برعونة شباب هذه الأيام. وما كان يمكن لليدى فى أناقة حكمت هانم بفستانها الدانتيل الأسود ذى الفيونكة الساتان الحمراء والفولار التل الذى يتدلى على نصف وجهها ويحجب جمال عينيها والفم الذهبى الذى تشتبك فى آخره سيجارتها إنجليزية الصنع .. لم يكن لامرأة بهذه المكانة عاشت نصف عمرها ما بين بريطانيا العظمى وباريز أن تتحمل مطبات الشوارع الرديئة فى قاهرة الثمانينات.

عملية التحول السحرية التى أتقناها إلى حد تصديق نفسيهما هى التى جعلت أصابع راكبى السيارات المجاورة تشير إليهما فى ارتياب فى شبهة جنون أو خلل مرضى حل بهما، لكنها عملية الانقطاع عن الذات فيما يشبه الغيبوبة المؤقتة هى التى جعلتهما لا يريان أو يسمعان سوى بعضهما البعض فى حوار متواصل حول كفاءة ناظر العزبة فى إدارة الأطيان مع الحفاظ على لقبى باشا وهانم طوال المناقشة برغم الاختلاف فى وجهات النظر.

❖

الحرم الجامعى يعج بفقراء ونبلاء، عرابيد وأمراء، عوالم ورعاة بقر وراقصى كان كان. الكل يتركون أجسادهم للموسيقى الصاخبة وضحكات بعضهم على بعضهم الآخر تجلجل فى الأرجاء. "مونى" تتوسط كرسياً تضع ساقاً فوق الأخرى. ترفع أنفها وتنفث سيجارتها غير المشتعلة فى رفعة وكذلك آدم. تلتف حولهم الشلة. ندى ومهاب. نرمين وشانتال وآخرون. تنضم

إليهم فاطمة فى زيها البدوى يرافقها هشام فـى جلبـاب قـصير وسروال وعقال.

" والله لو ما كنتوش هتتعدلوا وتقوموا ترقـصوا معانـا هننزل فيكو ضرب!" يوجه لهم المحيطون التهديد.

فى اللحظة نفسها ينظر آدم إلى مونى ويرددان "رعاع!"

يظهر "مايكل" صديق آدم يرتدى سترة بنية كالحة علـى سروال أزرق ينحنى فجأة أمامهما ويسأل "مونى" فى أدب: "الهانم متضايأة؟" (متضايقة). توأد ضحكتها حتى لا تفسد الدور.

تعلو أغنية قديمة تعشقها "مونى". تشعر دائماً أن كلماتها موجهة إليها. Dancing Queen "ملكة الرقص" لفريق آبـا. فالكـل يدللونها بـ Dancing Queen منذ أتمت السابعة عشرة من عمرها.

أنت ملكة الرقص .. شابة ومليحة
فى السابعة عشرة من عمرك
أنت ملكة الرقص .. لأنك تشعرين بإيقاع الدف
فارقصى رقصة جازية .. وامرحى
واقضى أسعد اوقات حياتك

تجاهد كل ذرة فى جسدها. تكاد تـسد أذنيهـا حتـى لا تستجيب لرغبتها العارمة فى أن تعيش "ملكة الـرقص" وتخـذل "حكمت هانم".

تبدأ مسابقة الحفل. يتقدم هشام نحو فاطمة ويطلبها إلـى ساحة الرقص. يتوقع الجميع أن يقدما الحجالـة أو أيـة رقـصة

بدوية. تعلو موسيقى الروك. يجذبها هشام بكلتا يديه. يلفها. يحملها إلى أعلى. يميلها يساراً ويميلها يميناً ثم يلفها لفة كاملة وسط صرخات الإعجاب. رقصات أخرى تقدم. سكتلندية وفلامنكو ودبكة. لا يتوقع أحد الفوز لطومى وهشام برقصتهما المتنافرة وزيهما .. لحظات وتعلن النتيجة .. الجائزة الأولى:

فاطمة وهشام !

للمرة الثانية تتبع فاطمة قلبها. تعرف جيداً ان الرقص ليس مجرد بدعة تجميلية نزين بها الحياة. إنه نظام متكامل من الحركات المعقدة والصعبة التى تتطلب تجديداً فى وظائف الجسد نفسه". لذا قضت معظم فترات الأسبوع الماضى فى تدريبات طويلة وشاقة مع هشام من أجل الوصول إلى اللحظة المثالية للتعبير ولتصير فى النهاية حاملة للقبك المحبب "ملكة الرقص"!

لكن تلك الجلسة المترفعة الصماء لحكمت هانم إلى جوار ناظم باشا منحتها أكثر من فرصة للتعمق ما كانت لتتاح لها لو أنهكت عقلها صراخاً ومرحاً ..

تنخرط فاطمة فى حديث يبدو جاداً مع زلفى ونضال وروان، رفيقاتها فى نادى أنصار الأقصى. يمتصها الموضوع تماماً حتى إنها لتنتقل معهم إلى حيث يتجمعون.

تلمح "مونى" ظهر هشام فى ركن قصى من الساحة يجالس صديقته الساكتة كريمة. ترتدى زيا بدوياً. فتاة بمواصفاتها ما كانت لتشارك فى هذا العبث وتتخلى عن زيها البسيط لتكتسى بتلك الملابس البدوية الزاعقة إلا إذا كانت قد تلقت أمراً عاطفياً لا يسعها حياله سوى أن تقول سمعاً وطاعة.

يجلس مهاب وندى فى حالة التحام كامل فى مواجهتها. يحضرها ذلك اليوم الذى اندهشت فيه من مشهد مماثل بين الفتاة الهندية والطالب المصرى حين تلقت التوبيخ والاتهام بالوقاحة لمجرد أن رفعت حاجبيها وحبست أنفاسها وتسمرت أمامهما.

هل فقدت القدرة على الاندهاش أم إنها اكتشفت أن هناك مواطن أخرى فى الحياة أجدر بدهشتنا أكثر من مشهد لاثنين يتبادلان التعبير عن العواطف بشكل مكثف قليلا .. أم أن التعددية فى العلاقات المحيطة بها شتت ذهنها ومنعتها الخوض بعمق فى أمر أوحد؟ مالم يطرق رأس مونى فى تلك اللحظة هو مشهدها الصامت هى شخصيا والذى يجمعها بآدم ويريحها التوحد مع حكمت هانم التى تجمعها علاقة رسمية بناظم باشا وإن كانت لا تخلو من كلفة .. يمرق مايكل من أمامهما وينحنى بالطريقة الفكاهية نفسها ..

– "الهانم متضايأة؟"

أى ريح أدخلتك فى مجالنا يا "مايكل"؟ لعبتنا الصماء وزماننا الفائت!

– الهانم تحب ترقص؟ يقول آدم

– أرقص إيه يا باشا .. لا فيه فالس ولا تانجو! ترد مونى.

تبدأ الكمنجات هادئة ثم ترتفع تدريجياً متوحدة مع باقى آلات الأوركسترا فى الأغنية الراقصة الجماعية Too Good to Be True أروع من أن يكون حقيقياً.

تتوحدين مع آدم فى زمن خاص بكما. تجلسين فى نقطة المركز بين أفراد شلة. يغمرك مهاب بحنوه وندى بحمايتها وشانتال بحكاياها وفاطمة بمقاسمتك التوأمة الروحية ونرمين أو

"لهالبيو" كما يسميها آدم .. بعذوبتها المستترة والتعويض النفسى عن غياب "طومى" حين تكون منشغلة فى منح طاقاتها لآخرين. هذا أروع من أن يكون حقيقيا.

وتلك الوريقات الفولسكاب البيضاء التى تنفردين بها بجوار سريرك بعد أن ينتصف الليل ويسرى الظلام فى أرجاء البيت إلا من ضوء أباجورتك الشاحب. تسكبين حروفك فوق سطورها. تبثينها غيظك أو فرحك. تعمرينها بشجونك لمرة وحيدة فتعود إليك أعدادا وفيرة من آلاف النسخ. ذرية تخلد إسمك. تملؤك افتخارا وتشعرك بالاكتمال. تسد ثغرات نفسك وفجوات روحك. تكتملين إلى أن تصيرى الأكمل فى المجلة. رئيسة التحرير .. هذا أروع من أن يكون حقيقيا ..

تبدأ المطربة فى الغناء.

أنت أروع من أن تكونى حقيقية
لا أستطيع أن أرفع عينى من عليك
كنت مثل الجنة صعبة المنال
كم أريد أن أحتضنك لكى أصدق
فأنت أروع من أن تكونى حقيقية!

يصادقك بيت الكرتيلية فيعرفك على باقى عشيرته. المشاهير منهم مثل جامع السلطان حسن ووكالة الغورى والمغمورين الذين يبرزون كشواهد نافرة وسط مدينة الموتى بطريق صلاح سالم "مقام برقوق وقورقوماش وإينال". تتعرفين عليهم واحدا واحدا وترددين أسماءهم فيلوحون لك كأصدقاء قدامى جمعتكم أيام سعيدة بينما تمرقين من أمامهم كسهم طائش فى سيارة مهاب فى رحلتكم اليومية إلى الجامعة.

تنحنين تبجيلاً وإجلالاً بصفة يومية أمام جرأة مراد بك بينما يتخطى أسوار القلعة الشاهقة بحصانه العربى الأصيل فرارا من مذبحة رهيبة. فيرفع يده فى رفعة رادا للسلام. وعندما يعرج بكم مهاب إلى شارع محمد على تتجاوزينه قليلا لكى تشحذى الوجدان استعدادا لملاقاة صور من تاريخ الوطن داخل قصر عابدين. تلزمين الصمت كى لا يقطع "عرابى" خطبته العصماء عن عباد الله الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارا وتمسكين أنفاسك انبهارا بمواكب الخديو إسماعيل وهو يجوب حى عابدين وشوارع القاهرة التى أسسها على طراز أفخم العواصم الأوروبية. هذا أجمل من أن يكون حقيقيا.

ترتفع الموسيقى. يشدها مهاب إلى ساحة الرقص وفى يده ندى. تدخل معهما هى وآدم فى دائرة. تفك شانتال يديهما لتتوسطهما وتنغلق الدائرة. تتحول الساحة إلى دوائر راقصة. تدخل طومى ونرمين فى اللعبة المستديرة. يعلو صراخهم. يأتى هشام من ركنه البعيد. يفك كفى طومى ونرمين ليشبك أصابعه فى أصابعهما وتدور الدائرة بقوة بعد أن تنغلق تماما باكتمالهم. يرفعون ساقا وينزلونها بإيقاع دقيق ثم يرفعون الساق الأخرى وينزلونها أثناء الدوران.

يحضرها القول الشائع بأن كل شىء مكتمل إلى زوال. أى حكيم متشائم اهتدى إلى تلك الفكرة!

ترفع رأسها إلى السماء ليمتلئ صدرها بالنسمات الليلية .. تضرب بساقيها فى الهواء وهى تدور وتدور على نغمات أغنية "أروع من أن يكون حقيقيا ".

"أمل حياتى"

جميل أن يكون لما تلقيناه فى قاعات الدرس وقع نافع على دقائق حياتنا. عبثا أن نهجر المواد التى منحتنا الامتياز والجدارة إلى مواد أفلتنا بالكاد من السقوط عند حافة هاويتها لنجعل قوانينها نبراسا لنا.

من علم الاقتصاد – المادة الوحيدة التى غادرتها "مونى" تجر أذيال أفقر تقدير : "مقبول" خرجت بعبرة وحيدة: فلسفة الاقتصادى "آدم سميث" فى توزيع الثروات على الشعوب: "أعظم سعادة لأكبر عدد".

أمام طاولتها المضاءة بالفلورسنت، تعمل مقصها فى المقالات وتغير جمعها وترتيبها وفق ما يجذب أكبر عدد من العيون القارئة.

اليوم الأكثر توتراً.. السبت .. يوم الذهاب إلى المطبعة. يلتف حولها أعضاء دائرتها يحتسون النسكافيه فى تراخ ويمضغون الأحاديث المسلية فيحدثون تشويشاً فى تركيزها. أما طومى فغارقة إما فى نضالها السلمى أو فى هدم معبد على رأس والدها أو تقديم قربان لوالدتها.

تنظر "مونى" إليهم بذهن شارد قليلاً.. طالما أحقق سعادتى العظمى لحظة توحدى مع وريقاتى البيضاء وساعة أن

يضاء وجهى أيام السبت وطالما أنهم معى جالسون جالسون، فلم لا أحقق تلك السعادة لأكبر عدد؟

فى الاجتماع التالى لمجلة القافلة كانت مونى تشرح أصول العمل بالمجلة لهيئة التحرير.. عدد المواضيع المطلوبة، جودة المحتوى ودقته، قدسية مواعيد تسليمها. إلى المنضدة نفسها كان يجلس الصحفيون الجدد .. "ندى عبيد"، "مهاب اسكندر"، "نرمين سالم"، "شانتال عبد العزيز" وآدم سليم".. "أعظم سعادة لأكبر عدد".

فى منتصف الاجتماع تصل المشرفة الجديدة على المجلة د. لمياء مراد. تتصبب عرقاً وتعتذر عن التأخير. كغريب تائه فى بلد بعيد تزوغ عيناها فى الاتجاهات كلها كمن يفتش عن ضالة أو كمن نسى وجدانه فى مكان آخر. فى نهاية الاجتماع تلملم أوراقها وتجفف ما تبقى من خبات عرقها.

– "منار! عايزاكى فى مكتبى. نعرف نتكلم أحسن بخصوص المجلة!" توجه حديثها إلى مونى وتصعد إلى مكتبها.

بهدوء تجذب شانتال مونى من ذراعها. ستبثها إحدى إخبارياتها . النشرة اليوم خاصة ومثيرة وعائلية جدا. محورها كريمة التى يشاهد هشام بصحبتها. كريمة لا تؤثر العزلة من منطلق تعال كما يظنون وإن كان مبعثها طبقيا فى الأساس. كريمة إبنة لأحد العاملين فى وظيفة متواضعة بالجامعة، ووفقا لقوانين الإدارة تتمتع بالمجانية الكاملة. قرار رؤوف يحمل فى طياته منتهى القسوة. سم فى عسل.

حسبما ورد فى نشرة شانتال، لم يعرف هشام بهذا السر بعد لكنه يرتبك أمام توترها المفاجئ عقب لحظات صفاء كامل،

عصبية تشملها عند إثارة حديث طريف عن سيرّ العائلات. ورفض مصحوب ببكاء حين يقدم لها هدية ذات قيمة مادية مرتفعة.. سلسلة ذهبية، خاتم، إينسيال - ثم عاطفة فياضة وعيون مغرورقة بدموعات العشق حين يقدم لها زهرة أو بطاقة ملونة أو قدحا رخيصا عليه كلمات منثورة.

- "وإنتى عرفتى منين؟"

- إنت مالك بأة .. ده أنا أجيب التايهة!

الشق غير اللطيف والذى يمس مونى بشكل مباشر هو أن هشام أوهم كريمته تلك، حينما إرتابت فى تصرفاته مع طومى، أن طومى هى التى تسعى وراءه!

- "وطومى عرفت؟"

- متهيأ لى الكلام وصل لها!

تريد يا هشام أعظم سعادة لذاتك فقط، أو ربما لأكبر عدد كما قال "آدم سميث"، فنثرت وردانك الندية على وجنات الإثنتين. دغدغت خيالاتهما ببطاقاتك الملونة ولامست شفاههما بكلماتك المنثورة على أقداحهما الرخيصة المهداه منك. واحدة فرحت بها عن استغناء والأخرى تقبلتها تصنعا للاستغناء. تقافزت على الحبلين متخذا من أقنعة التنكر حيلة بريئة. ألبستهما زيا بدويا فى الحفل التنكرى ورحت كشيخ قبيلة تطوف بين الخيام فتجالس هذه تارة وتراقص الأخرى تارة. هل سيغفران لك تكرار نفسك فى دورين؟!

ربما تغفر المرأة خيانة ما، لكن ما يشق الجرح ويبقيه نازفاً هو أن يمارس حبيبها الطقوس نفسها على الجبهتين. يردد الكلمات ذاتها. يغوص فى عمق عينى الأخرى مع نغمات أغنية

كانت لهما. يشترى بطاقات حتى وإن كانت مختلفة لكن من المحل ذاته. يتخذ من أماكن التلاقى المحببة مع الأولى، مواعيد للقاء الثانية فقط لارتياحه الشخصى للمكان أو لأنه لا يريد أن يجهد ذهنه المترف بعناء التفكير فى ملتقى جديد. هل سيؤدى بك اتباع قلبك يا "طومى" إلى قطيعة كبرى معى؟

❖

غلالة رقيقة من قطرات عرق أو تنفس غير منتظم أو زيغ بصرى طفيف قد يضرب بحاجز نفسى هائل بيننا وبين الآخر، إلى أن يجف عرقه وتهدأ أنفاسه وتستقر عيونه فى عيوننا.

ورائحة كافيين متصاعدة من فنجانين صغيرين للقهوة وخيوط دخانية لتبغ مشتعل تتراقص حتى تصعد إلى نقطة التلاشى فتأخذ خيالاتنا مع صعودها، قد تقلص المسافة النفسية بين نفس الشخصين.

من غرفة مكتب "د. لمياء مراد" المشرفة الجديدة على "القافلة" وأستاذة تاريخ الصحافة، إتخذت "مونى" مقرا للاسترخاء اليومى وتبادل الشجون مع صاحبة المكان مستمتعة بخدر عبق البن المحمص والنيكوتين الممزوج بنكهة النعناع مع صديقتها الأستاذة.

ربع المدة فحسب ستخصص للسبب الأصلى للزيارة. مناقشة موضوعات المجلة. ستمسك د. لمياء بقلمها الأحمر وتضغط بسنه خطوطا ودوائر تحت وحول الكلمات. قد تضرب خطاً مائلاً بطول نصف صفحة وتستبدل كلماتها بسطرين من حروف حمراء قانية.

المدة الأكبر المتبقية ستخصص لمسببات غلالة العرق والزيغ البصرى والأنفاس المضطربة.

مع تفتح برعم حياتها الزوجية إرتأت "لمياء مراد"، الفتاة الرقيقة أن تروى الزهرة مع شريكها وتدعم روابطهما وفق المتاح. منحة دراسية للحصول على دكتوراه أكسفورد جاءتها على طبق ذهبى. لم تشأ أن تنعم منفرده بالترعرع. اقتطع والدها من رصيده البنكى ومنح زوج الإبنة ما يتطلبه الحصول على دكتوراه الهندسة فى الجامعة نفسها. "أعظم سعادة لأكبر عدد".

قليلون من يقدرون على محو ما رسخ بوجدانهم ويستبدلونه بفكر مكتسب حديثا حتى وإن دل ظاهرهم على عكس ذلك.

لم يطق أستاذ الهندسة المعمارية من أكسفورد أن يرد على الهاتف فيكون المتصل سكرتير تحرير يستدعى زوجته فوراً لتغطية مؤتمر صحفى أو لقاء قمة، ليحتل إسمها فى الصباح الصفحات الأولى من الجريدة الرسمية. كما لم يستطع أن يتغلب على مشهد الحاجة والدته وهى تهلل لدخول الحاج البيت وتسبقه ركضا إلى غرفته، فتخلع عنه سترته وحذاءه وتناوله الجلباب المكوى وقبل أن يلامس طرفه أرضية الغرفة، تكون قد دخلت عليه بما لذ من خضروات مسبكة ودواجن محمرة وأرغفة طرية تلتهب سخونة فتغبش زجاج نظارته.

لم يستطع الدكتور أن يستبدل مشاهد الأبيض والأسود بأخرى ملونة تظهر فيها زوجته وهى تنهض من فراشها بعد الفجر بقليل لتضمن مظهراً رائعاً للبيت وصينية فطور كونتيننتال تحتوى جبنا ومربى وعسلاً أبيض وبيضا مسلوقا وعصير برتقال

معدا للتو، حتى ينطلق إلى عمله بصحة موفورة وبال هادئ قبل أن تطير هى الأخرى إلى مؤتمراتها وأحاديثها.

كما عجز عن أن يضع أمام عينيه مشهداً ملوناً آخر لحفلات الزيف الاجتماعي التى يهوى إقامتها وحضورها لتخليص أعماله وتكون مفخرته الأولى هى زوجته الأستاذة الجامعية والصحفية الشهيرة فيحصل على لقب رجل عصرى تقدمى بالإضافة إلى الـ "د" التى تسبق إسمه واقتناها بما فقده والدها من مدخرات.

وقد يتجاهل مشاهد ثالثة ورابعة لها وهى تمسك بكتب الصف الخامس الابتدائى وتلقن إبنهما الوحيد عبرا من التاريخ وقواعد اللغة الفرنسية والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة. أو حين تحط تلك الكتب لتستبدلها بأحدث الدوريات الأجنبية فى الهندسة المعمارية وتقوم بعمل عرض وتلخيص بالعربية لمحتوياتها ليقوم هو فى اليوم التالى بتلقينها لطلبته أو بالإدلاء بجوهرها كاكتشافات خاصة به فى البرامج التليفزيونية وأحاديث الصحافة التى توفرها علاقاتها له.

وكما كان والده يرسم تكشيرة "سى السيد" الشهيرة على ملامح وجهه بعدما تناوله والدته الفوطة لينشف يديه بعد أن يفرغ من طعام الغداء، كان دكتور الهندسة يتبنى أسلوبا ملائما للعصر لإثبات جدراته داخل البيت... . سياسة تضئيل الآخر - تلاشى حتى أظهر. إجابتك هذه تدل على تفكير منقوص وإجابتك الأخرى فيها تجاوز لحدودك.

صمتك دليل على قلة حيلتك. طيبتك الوفيرة ليست صفة أصيلة بل تتصنيعها لتنالى التعاطف. تبدين معطاءة لا لأنك تبذلين بل لأنك وضعت فى موقع صاحبة اليد العليا. أنت فاشلة إذن أنا ناجح. أنت محدودة الذكاء إذن أنا ذكى. وبما أننى الأجدر والأكفأ فأنا أفضل من أن أكون لك وحدك!

❖

أثناء عملية الترتيب الشهرية التى تقوم بها الأم لدولاب هشام، يصدمها تكدس الرف الأعلى من الضلفة الجانبية بتلك المحتويات:

نسختان من قدح فخارى باللون نفسه - الأول عليه شارة برج الأسد والثانى برج الحمل.

نسختان طبق الأصل من قدح آخر مكتوب عليه باللون الأحمر! Be Mine! "كونى لى". صف من الكروت الملونة.. إثنان بالأحمر وإثنان بالأخضر وإثنان بالأصفر مكتوب عليها بخط هشام "هل تقبلين أن تكونى نصفى العذب فى الحفل التنكرى؟ مرتان بالعربية ومرتان بالإنجليزية ومرتان بالفرنسية. كل بطاقة مشبوكة ببقايا ورود ذابلة، عندما حركتها الأم قليلاً إنفصلت عنها أوراقها الجافة وتساقطت أسفل قدميها، فجرفتها بالمكنسة وسكبتها فى سلة القمامة.

❖

لم يكن ما باعد بينها وبين فاطمة فى الشهر الماضى هو ما بدر من هشام، بل إنشغال طومى خارج الجامعة معظم الوقت بالتنسيق لعرض فنى مشترك بين أنصار الأقصى من داخل

الجامعة ومناصرى القضية من الجامعات الأخرى وشباب الأحزاب. وكمرشحة لمنصب نائب رئيس النادى كان عليها إثبات جدارة غير مسبوقة لنيل منصب لم تحصل عليه طالبة مصرية فلابد للقيادات أن تكون فلسطينية خالصة.

"عمر ما كان هشام الولد اللى يملأ دماغى بجد . هو كان بس ظريف ومسللينى". جملة وجهتها فاطمة لـ "مونى" جلبت من أعماق صدرها نفسا مكتوما أراحها من إحساس بذنب لم تقترفه ورعب من فقد توأمتها الروحية.

"أنا اليومين دول دماغى فى حد تانى خالص. واحد ولا الخيال. ثورى ومثقف وفنان. تتصورى كل ما أفكر فيه ما اتخيلهوش بإسمه الحقيقى. مش قادرة أقول عليه غير أمل حياتى". تستطرد طومى.

تنهيدة أخرى لفظتها "مونى" محملة ببواقى شك وفرحة غامرة لأجل طومى.

❖

من شطحاتهم المميزة تلك النزهات المكوكية التى يهبطون فيها على أكثر من مكان فى الساعة الواحدة فيصبح رصيد المشاهد والحكايا مرتفعا فى مدة وجيزة. اليوم الغداء فى بيت ندى عبيد والشاى عند مهاب ثم مشروب سريع فى بيت "نرمين" المجاور للفندق الذى سيتناولون فيه البيتزا.

ندى إبنة وحيدة لأبوين يستقبلانهم ببشر وترحاب ويقفان على تدليلهم جميعا والإفراط فى منحهم المتع والتسلية.

ينفض مؤقتاً الاشتباك الجسدى مع مهاب حفظاً لماء وجه الوالدين، إلا أن النظرات والكلمات تصوب بصورة أشد تعبيراً من التلامس.

مونى: "هى مامت "ندى" وباباها مش بيقولوا حاجة على موضوع مهاب؟"

شانتال المحللة السياسية والمعلقة على الأنباء تبسط ما تعقد . تمارس ندى عقاباً متواصلاً وغير معلن على الأبوين. تقوم بتدليل نفسها على طريقتها. قضى الوالدان معظم أيام طفولتها فى بعثة فى الخارج تاركين أمر تربيتها للجدة العجوز. وبدلاً من أن تقضى ندى نهاراتها فى ربوع الحدائق وتنثر الماء على وجوه مثيلاتها فى حمامات السباحة، كانت تفتح عينيها رعباً وهى تنصت لأوجاع الجدة فى الليالى الطويلة. تساعدها على تجرع الدواء فتلقنها الجدة وصاياها الشرعية ليلة بعد أخرى. تتمدد ندى بجوارها فى رعب أصيل من أن تفتح عينيها فى الصباح لتجد نفسها بجوار جثة. إلا أن عالم الصباح كان يمتلئ بالهدهدة والتربيت المتواصل على كتفيها وشعرها والدعاء لها فى الصلوات فكان كنسمه ملطفة وسط روائح العقاقير وأجواء المرض وكآبة بيوت العجائز.

وحين عاد الوالدان، كانت ندى قد صارت شابة صغيرة هى الأخرى تقدم لنفسها ببراعة كل الأدوار التى تتطلبها حياة زاخرة بالشخوص، فتقمصت حماية الأب واهتمام الأم وحنو الجدات الذى يلازمك بحساب الزمن لشهور أو سنوات محدودة. وبحساب الساعات التى تقضيها "ندى"، فى صحبة الأصدقاء يكون حنوها واهتمامها وحمايتها دقائق ولحظات خاطفة كنموذج مصغر للحظات الرعاية المختصرة التى نالتها فى مراحل عمرها المبكرة.

أيام قليلة ويعلو نفير الأبواق ودق الدفوف معلنا بداية زفة شانتال إلى حب حياتها فى حفل خطوبتها الأسطورى.

الأولاد انتهوا من شراء البذل السوداء والبيبونات البيضاء. والفتيات يتكدسن فى غرفة "مونى" بعدما تبرعت بخياطتها الخاصة لتحوك لهن فساتين فتيات الشرف من الأورجانزا الموف المزين بشرائط الحرير الوردية. وبعد رحيل الخياطة تتجمع الشلة بأكملها فى غرفة "مونى" بعد أن كست أرضيتها بالموكيت الأزرق الداكن ليحتويهم بحنان بدلاً من غرفة "سنو وايت" التى هجرتها طومى إلى المدينة الجامعية.

❖

أمام المنضدة الضوئية تقصقص "مونى" ما وصلها من موضوعات موقعة بأسماء شانتال ومهاب وندى ونرمين.

آدم ليس لديه فائض من صبر ليلتصق بمقعده فى الاجتماعات المطولة بالمجلة ما بين المحاضرات، أو لأن يضحى بنزهة فى فندق فاخر مع مايكل ونادر ليغطى أحداث أمسية شعرية أو ندوة تستضيف عضوا بمجلس الأمن وتحتدم بشدة حين يحاسبه الطلبة على موقفه المتخاذل من القضايا الدولية. فيسقط إسم "آدم سليم" من البرواز الذى يضم أسماء المحررين فى الصفحة الأولى.

❖

حالة تباعد غير مألوفة بين ندى ومهاب يجلسان متقابلين على منضدة بالدهليز المواجه لمقر المجلة. تدور بينهما همهمات خفيضة ومتصلة ستعرف "مونى" لاحقا أنها بخصوص غضب

"ندى" من وقوف مهاب جنباً إلى جنب مع عساكر مرور ورجال بجلابيب وأطفال شوارع أمام عربة الفول المدمس الرابضة أمام باب الجامعة لكى يرضى النزعة الفولكلورية المفرطة لدى مونى ويحضر لها السندوتشات الملفوفة فى ورق الجرائد أو يدخل المجلة حاملاً أكياس الأرز المخلوط بالمكرونة والعدس ودوائر البصل المحمر والصلصة الحريفة من كشرى التحرير. مجرد أسباب تافهة تمثل حلقات فى سلسلة من التهامس العصبى يتلوه فض الالتصاق ثم عودة إلى تلامس أكثر حميمية.

الأيام تنفلت من بين أصابع ندى والفتى المطيع فيما يخص مسألة المقدسات لا يلين.

❖

على الموكيت الأزرق بغرفة "مونى" يلتف الجميع حول شانتال محاولين أن يلتقطوا كلمات مفهومة من بين الجمل الهستيرية التى تجرى على لسانها وهى تسرد الوقائع الغرائبية لإلغاء حفل الخطوبة وظهور كلمة "النهاية" على حكاية حبها الكبير.

للخطيب شقيقة متزوجة من ابن النجمة التليفزيونية الشهيرة، قام بدعوتها إلى حفل الخطوبة بصفتها حماة شقيقته ووالدة صديقه الأقرب. ولوالد شانتال علاقات بقيادات على أعلى مستوى أعد الحفل خصيصاً على شرفهم.

العقدة فى المنشار: أمر أصدره الوالد العسكرى بإلغاء الدعوى للنجمة وإن تطلب الأمر عدم دعوة شقيقة العريس وزوجها.

يتحرج الخطيب من الإتيان بفعل كهذا تجاه شقيقته التى رافقته فى رحلة اليتم بعد وفاة والديهما وتوجيه الإهانة لزوجها صديق عمره.

"المرأة عفيفة ولا تقدم سوى الهادف من الأدوار" هذا ما أكده الجميع للوالد المتعنت. "بل ظهرت بالمايوه في أحد الأفلام القديمة وقبلها المطرب من وجنتيها فى فيلم آخر". أصر الوالد على تشدده.

محاولات للوصول إلى حل سعيد ووجهات نظر تقلبت على مدار أسابيع لم تفض إلى شيء. ولأن الجميع بعيدون عن مسرح الأحداث وليس من بين أماكن الالتقاء - بيت شانتال فيبدو أن الأمر يحتمل أكثر مما يبدو. ومما زاد الأمر تدهورا - موقف الحبيب - الذى لملم شبكته ببساطة وانصرف مأزوما لكرامته فقط. أما شانتال أو "بونبون" كيفما كان يناديها فيبدو أنها قد فقدت مذاقها بالنسبة له، مثلما نستحلب بعضا من حلاوة البونبون ثم ينتابنا الملل فى المنتصف فننتزعها من بين شفاهنا ونلقيها فى أقرب منفضة سجائر حتى وإن كان النصف المتبقى يتمتع بالحلاوة نفسها.

❖

تخور قوى "مونى" أمام استضعاف "شانتال". عقدتها القديمة فى الانجذاب للأضعف. تمتص أذن "مونى" الحكايا المشحونة بالشجون من "شانتال" على سماعة الهاتف أو فى جلساتهما الإضافية على المقابلات الأساسية للشلة. هل تشعر مونى بقوتها أمام ضعف الضعيف، أم أن ضعفها هى تجاهه يشعره بالقوة؟ معادلة معقدة خرجت بـ "شانتال" أكثر قوة وبـ

"موني" أكثر لينا تجاه تذمر شانتال وحنقها الدائم الذى بدأ يضيق به الآخرون.

❖

توزع "مونى" ما أسفرت عنه مجهودات الجميع طوال الأسبوع الماضى على صفحات المجلة. تفتش عن موضوع أو خبر جاذب يليق بالصفحات الفردية. فقط قصاصات تحمل نتائج مباريات قدم أو سلة مجردة من الإثارة.. سفر أستاذ .. عودة آخر .. إنشاء أسرة للطلبة الإندونيسيين.. خلو كامل من السخونة أو حتى قليل من الحرارة أو اللمحات الإنسانية.

من حبر بذل على صفحات كاملة تحمل بين سطورها عناء الليالى الساهرة وفناجين القهوة وشد عضلات الساقين من أثر السعى فى أروقة الجامعة وخارجها، صعدت مونى السلم الصحفى درجة تلو الأخرى إلى أن وصلت لقمته.

من مقالات التنديد بزيادة مصروفات الجامعة التى ملأت بها صفحات المجلة، إنتفض الطلاب فى إضراب عن حضور المحاضرات ليومين كاملين .. حملات التحريض على مقاطعة الكافيتريا التى أدت إلى خفض الأسعار - منع التدخين فى الفصول. حوارات جريئة مع رجال فكر وصحافة صنعوا الحضارة المعاصرة ، رواد مسرح، ونجوم ونجمات شابات.. تشويق ومتعة وأمثلة عليا جديرة بالاحتذاء بها. أين هذا كله مما أتوا به إليها؟ حتى الخبر القصير الذى يمنون به عليها يسقط منه سهوا "من صانعه؟" أو "متى" أو "كيف" أو "لماذا"؟.. بديهيات درسها الجميع فى حصص الصحافة. وقد يأتى الخبر بعد حدوثه خاليا من التفاصيل - بدلا من التنويه عنه إن كان اجتماعا أو ندوة

قبل انعقادها بيومين على الأقل..بديهية أخرى تلقوها جميعاً فى المادة نفسها..

أمام توتر الأمور بين ندى ومهاب وانشغال نرمين فى أبحاثها فى قسم الكمبيوتر بمبنى العلوم، وتردى الحالة العاطفية لـ "شانتال" سكتت الكلمات على لسان "مونى" وإن كانت قد لمحت بها بدبلوماسية تليق بوضعها كصديقة حميمة والذى يتضارب ومـوقعها كرئيسة عمل.

❖

فى طريقهم إلى سيارة مهاب تصطدم أقدام "مونى" وشانتال وندى ومهاب بأطراف أعداد المجلة المفتوحة على مصراعيها مثل قتلى فى مجزرة لم ترفع جثثهم من على الطريق بعد.

بداخل برواز المقال الافتتاحى الممهور باسم "منار وهبى" تنطبع خطوط طينية على شكل حذاء قياس ٤٦.

قياسات أخرى وأشكال مختلفة لأحذية حريمى ورجالى وكاوتشوك ترتسم فوق باقى الأعداد المتناثرة على أرضية الفناء بانتهاء اليوم الدراسى.

أى انشقاق لصدر "مونى" وأى ضخ للحزن فى قلبها..

هل سيطاوعك قلبك فى هجر رفيقة منتصف الليل؟ ورقتك الناصعة التى تضىء حلكة لياليك؟ من يتحمل صرخاتك الصامتة؟ ضغطات قلمك؟ إيداؤك للرأى ثم محوه بخطوط قاسية وتبديله برأى آخر؟ هل ما تبثينه الأوراق يستحق أن يحفظ

مطبوعاً في وريقات بالقطع الصغير بين دفتى كتاب؟ أم مقدر لك أن تداسى بقسوة الأقدام فداء لوريقاتك الليلية؟

"أعظم سعادة لأكبر عدد"! لا عجب من أنك حصلت على تقدير "مقبول" فى مادة الاقتصاد، لأنك لو استوعبت مقولة "آدم سميث" لفهمت أنها كانت تأييدا لوجهة نظر "ماكيافيللى" حين قال إن المصلحة الشخصية والرغبة فى الثروة هما الحافز وراء كل نشاط إنسانى. فالخباز والجزار والخضرى لا يقدمون لنا طعام الغداء والعشاء لأنهم يعطفون علينا أو لأنهم يسعون لنيل ثواب الآخرة - وإن كانت هناك يد مقدسة تدفع الإنسان للعمل من أجل مصلحته الشخصية لينتهى الأمر بتعميم الخير على الجميع.

مصلحتك الشخصية كانت فى توحدك مع وريقاتك ونشوتك عند مشاهدة اسمك مدموغا بالمئات.. أما ندى ونرمين ومهاب وآدم وشانتال لم يفعلوا سوى أن استجابوا لرغبتك البلهاء. فما يحقق لك أعظم سعادة ليس بالضرورة أن يمنحها لهم.

لم تكن سذاجتك فقط فى أنك طبقت ما درسته فى المادة الأصعب عليك بل فى هجرك للمادة التى نلت فيها الجدارة. أو لم تشهد صفحات التاريخ التى تقلبت فى أحضانها على طعن الصحابى الجليل عثمان بن عفان وترك جثته ثلاث ليال بلا دفن لمجرد أن نشد سعادة عظمى لأكبر عدد ، فرشق أقرباءه ومعارفه فى المناصب المحيطة به؟ تعلمين أن هذا قد حدث ليس لشخص عادى، بل لثالث الخلفاء الراشدين. صاحب العمل الثقافى الأقدس.. جامع تنزيل رب العالمين فى كتاب محفوظ!

❖

فى الكنبة الخلفية للسيارة النيفا الخضراء تجاور "مونى" "شانتال"، بينما تضع "ندى" كفها فوق كف مهاب القابض على عجلة القيادة تارة والذى يتركها ليداعب خصلاتها تارة أخرى.

ينطلق مهاب بسرعة فجائية ومتواصلة برغم صعود الكبارى والخوض فى الطرق الوعرة بين المقابر وعمل المناورات بين سيارات صلاح سالم الصاروخية. أجمل ما يميز النيفا الخضراء هو ارتفاعها عن مستوى البشر وسرعتها الجنونية وشريط الـ Gipsy kings (ملوك الغجر) الذى يهدر كأمواج عنيفة طوال الطريق. هل ما يرضينا فى الأغنية الأسبانية هو أنها توحى لنا بعنفوان البحر فى انطلاقه الذى يداعب حواسك كلها.. عينيك وأذنيك وأنفك؟ فتتنفس تلك الرائحة المميزة التى تصاحب الصوت الهادر، تستنشقها بعمق وتغمض عينيك.. تترك العنان لخيالك وحينما تصل إلى ذروة الاستغراق، يلامس بشرتك رذاذ خفيف فتفتح عينيك على صوت ارتطامة جديدة لموجة غاضبة وعفية تصل إلى أعلى قمة ثم تنتهى راكعة وزاحفة نحوك على الرمال فتشعرك بالتعالى وزهو الانتصار وتحمل عنك عبء إخراج ما تكدس فى نفسك من ألم.. أم إنك حين تنفعل مع الغجر وهم ينشدون تعيش حالة من التوحد معهم.. ممارسات التمرد البينة على الزمان وثبات الأمكنة وحيادية الألوان. خبطات الأصابع على الأوتار. عنف يصدر نغماً متعدد الأبعاد متداخل الأصوات. صنجات تزركش الإيقاع وتصفيقات على أرتام منظمة وفوضوية فى آن، فيصحبونك معهم خارج الأطر والسياقات لتعيش فوضاهم الجميلة وتطلق تنهيدات وآهات ملحنة تجلو الصدأ عن قلبك. وحينما يتحد هذا كله مع مناورات "مهاب" فى القيادة وسرعته التى تتجاوز مقاييس العقل تتأكد لديك فكرة أن الإنسان قد ولد وبداخله ميل غريزى للموت جنباً إلى جنب مع حب الحياة.

الضحكات التى كانت تنطلق من الشبابيك الأربعة هى التعبير التقليدى الشائع عن بقايا رغبة تعلق بالحياة. فيدخلون فى سباق محموم لمحاكاة كلمات الأغنيات الأسبانية بألفاظ عربية لا تمت للأصل بصلة. فيؤكد مهاب أن المطرب يقول "كتر خيره.. كتر خيره" وتعارضه ندى "بل يقول .. شوفلك غيره .. شوفلك غيره!".

ويستمر الغناء وتواصل العجلات سحقها للطريق!

❖

كالتدخين والكولسترول والقيادة الطائشة .. نمارسها بحب برغم أنها قد تحمل فى طياتها نهايتنا. وكالذنوب والمحرمات والشهوات الزائلة – حذرتنا منها الأديان السماوية والفلسفات الخالدة ومع ذلك تعج بها الأركان وتمتلئ بمن اتبعوها زنازين السجون.

هكذا كان آدم.. كتاباً مفتوحاً من الحيرة والألم .. وضرباً من الإدمان أو كالتلذذ بالمحرمات.

فى البيجو ٣٠٤ الرمادية، تجاور "مونى" آدم فى المقعدين الأماميين، تكاد تتوسطهما "شانتال" من كنبتها الخلفية كطفل لا يرغب فى مفارقة والديه فيندس فى المنطقة الأخطر فى المساحة الفارغة بين المقعدين الأماميين، فإن اضطرت السيارة للوقوف المفاجئ ، لا يجد ما يدعمه من الأمام وينكفئ على وجهه.

الخلفية الموسيقية تتوافق والسرعة المعتدلة لحركة العجلات. دويتو غنائى بين هدى حداد ومطرب لا يعرفانه.

هدى حداد تصحبها مونى:

وحياة عشرتنا وتراب جيرتنا
حبيتك .. حبيتك .. حبيبى على طول
ع طول سهرنى.. بالليل وأنطرنى
وخلينا حبيبى مجهولة ومجهول

المطرب يصحبه آدم:

على طول .. على طول .. عالا.. طوول

مونى وآدم: لينا ولينا وما فى حدا يحمينا
بتضلك رايح جاية .. دختى ودوختينا
ومراية حيط مراية .. دختى ودوختينا

❖

تدوخ شانتال من النظر إليها ثم النظر إليه ثم لا تعرف أين يستقر بصرها حينما يتوحدان فى الـ "دويتو". تكاد تفقد صوابها حين يبدأ حوارهما التالى..

مونى: مش البنت اللى بتغنى ع المسرح دى إسمها "منار"؟

آدم: آه والولد اللى بيغنى معاها إسمه آدم

مونى: صوتهم يجنن

آدم: أكيد هياخدوا الجايزة الأولى..

أية جائزة التى يتحدثان عنها وأى هزل هذا الذى يسبب لهما كل هذه النشوه؟

تحاول شانتال أن تبحث لنفسها عن دور وسط هذا التوهم لكن الأدوار كلها قد وزعت بالفعل. فاللعبة الجديدة تقوم فيها مونى وآدم بالأدوار الرئيسية والفرعية وأيضاً دور المشاهدين. يرتقب كل طرف إرتجال الطرف الآخر فتكتسب اللعبة بعداً جديداً.

❖

فى محاضرة "تاريخ الصحافة العربية" تلتقط مونى ما تمليه د. لمياء وتنقشه بحماس وسرعة فى دفترها. سيّر مذهلة لرجال ظنتهم يناضلون فى قاعات برلمانية أو حول موائد مفاوضات أو فوق منابر خطابة فحسب.

جوانب أسقطتها كتب التاريخ المقررة حيث تتزاحم على العدد المتاح من الصفحات أخبار المعارك والمظاهرات وتواريخها، خلع حاكم وتنصيب آخر، لتستبعد أوجه التشابه بين الشيخ محمد عبده وفرنسيس بيكون، حرارة مقالات الأفغاني فى العروة الوثقى، دور أديب إسحق فى تطوير المقال وكيف أطلق عليه فيكتور هوجو لقب "نابغة الشرق"! إنها روح التاريخ. حكايات لرجال تنبض عروقهم بفورة الحياة وطلب الحرية.

حول فنجانى قهوة ورائحة التبغ الممتزجة بنكهة النعناع تجتمع "مونى " و د. لمياء. حبات العرق تتناثر على جبين الأستاذة وزيغ النظرات يتزايد مع الاضطراب الملحوظ فى التنفس.

بين أيديها المقال الإفتتاحى لـ "مونى". القلم الأحمر يطيح بالكلمات يميناً ويساراً. ينتزع بعضها ليشكل نزيفه كلمات

أخرى بلا روح، ببساطة لأنه لم يكن ينزف دماً بل حبراً قانياً بارداً.

المقال الذى كلف مونى ثلاث ليال ساهرة و ٥ فناجين قهوة و ٤ شرائط لفيروز، يخرج من تحت يدى د. لمياء كخرقة بالية لمسح الزجاج، كانت فى الماضى فستاناً صيفياً مبهجاً.

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تغتال فيها د. لمياء ما أفرزه عقل وقلب "مونى" فبقدر ما سبب لها هذا إحساساً بدونية لا تقل بشاعة عن مشهد الصحف المداسة بالأقدام الموحلة، بقدر ما كان يحملها فى البداية على تقدير د. لمياء وحسن الظن بها فإنها كما يقولون فى الغرب she doesn't mix business with pleasure أى لا تمزج العمل بالعلاقات الشخصية، فلم تؤثر جلسات الاسترخاء والفضفضة مع "مونى" على نزاهتها كأستاذة وكمشرفة على المجلة. إلا أنه بقدر ما كرهت د. لمياء رسوخ شبح "سى السيد" بداخل كيان زوجها وعدم ارتدائه لنظارة وردية تنقل له صورة زاهية لامرأة اليوم، بقدر ما وقعت هى فى الفخ نفسه. فما أخذته عن الغرب كانت تلك الدكتوراه وذلك الشعار السابق: "لا تمزج العمل بالمتعة!" أما عفريتها الصغير فكان عقلها "الرسمى" .. عقل الدولة. وظيفتها الأصلية فى الجريدة الرسمية. رضوخ قلمها لوطأة قائمة طويلة من المحرمات ورقابة الرقيب، ورقيب الرقيب وقهر الزوج. ثم أين هى من المادة التى تتوسط مقدمة الفصل لتلقنهم إياها كمناضل يعلوا منبراً للخطابة؟ أو ليست هى التى علمتهم أن كل من ملأوا صفحات التاريخ بأمجادهم لم يكونوا ليفعلوا هذا لولا أن وجدوا صفحات عريضة تفتح ذراعيها لهم فيلتحمون فى حضن طويل معها حتى تنطبع أجسادهم وقلوبهم وأفكارهم سطوراً عليها تشع حرية وكرامة. فلولا "العروة الوثقى" ما وصلت مبادئ الأفغانى ومحمد عبده التنويرية إلى البسطاء. وكذلك اللواء لـ "مصطفى كامل"، "الوقائع" لمحمد عبده،

"الأهرام" و "الطائف" لعبد الله النديم حتى إحسان عبد القدوس الذى ما أن يذكر إسمه حتى تنطبع فى الأخيلة أغلفة كتبه التى تشعل قلوب المراهقين بوجوه النساء المغريات وأجسادهن المسجاة على الشواطئ. ألم تكونى أنت يا د. لمياء التى منحتنى درجة امتياز عن البحث الذى استغرقنى لأسابيع فى نفض الأتربة عن المجلدات الضخمة بدار الكتب لتحليل مقالات إحسان ضد الانجليز والملك وتصويب نيران كلماته إلى صدورهم والخروج بنتيجة أن تلك الأجساد العارية المتمردة لم تكن سوى صرخة أخرى للتعبير عن الحرية؟!

❖

من المبنى الرئيسى تهرع فاطمة لحضور محاضرة بمبنى العلوم الاجتماعية. تغادر مونى غرفة د. لمياء للحاق بمحاضرة فى المبنى الرئيسى. يتقابلان فى منتصف الطريق أثناء عبورهما شارع محمد محمود كل فى اتجاهها. تلحظ "مونى" غياب نشوة الحماس التى تلازم قسمات "طومى" وتتسرب إلى كل أنحائها فتجعلها تتقافز كطائر لا يطيق أن تلازم قدماه الأرض. "فيه إيه؟" تسألها مونى.

تناولها طومى نسخة قديمة من مجلة القافلة. فى القسم الانجليزى صورة لـ "طومى" وهى تفوز بالجائزة الأولى فى الرقص فى الحفل التنكرى.

وفى القسم العربى ملخص لكتاب عن تأكيد الهوية الفلسطينية عرضته طومى تحت عنوان "أسطورة أرض الميعاد".

أثناء اجتماعها الثانى بهم كنائبة لرئيسة النادى وتحديدها لجدول الأعمال. تناثرت الهمهمات بأنحاء فناء النافورة ثم تعالت

إلى اعتراضات صريحة على كون "طومى" مصرية تتزعم نشاطاً فلسطينياً. وأخيراً لوح أحدهم بتلك النسخة من المجلة مصدراً النصف الانجليزى الذى يحتوى الصورة الراقصة: "كيف تتزعمنا تلك العابثة؟!!"

– فاطمة: شكلى كدة هبيع القضية! وإنتى مالك إنتى كمان؟

– مونى: شكلى برضه هبيع الصحافة!

بطول المجرى المتصل لنهر التاريخ لم يسائل أحدهم جمال الدين الأفغانى عن أصوله الأفغانية ولم يشكك أحد فى نوايا قاسم أمين لأصوله التركية وحينما يتكرر اسم ابن خلدون فى كتب الاجتماع لا يرجع أحد تأثر نظرياته ببيئته التونسية. كما لم يجهد أى عربى ذهنه بالتنقيب عن جذور صلاح الدين الكردية. فقط لقبوه بالناصر ورسخ فى قلوبهم وعقولهم كرمز عزيز للعروبة والحرية.

❖

نزهة أخيرة قبل الشتات الذى سيدب بين الجميع بعد أسبوع من الآن. بدء الامتحانات. بسط الكتب والمذكرات على المناضد المتجاورة بطوابق المكتبة الخمسة. لا جلبة. لا كلام أو حتى تهامس. فقط همهمة لثوان وتسيد صوت الصمت المثلج بفتحات المكيف المركزى ووقع قدم أو إثنتين يمران على الموكيت بجانبك فلا يشتتان التركيز.

"شانتال" تتوسط كنبة الخلف وحيدة للحصول على المتابعة الأفضل للعالم السحرى الذى يخلقه "آدم" و"مونى" فى رحلات المقعدين الأماميين بالبيجو ٣٠٤ الرمادية. الخلفية

الموسيقية "دويتو" "لباتريك دافى" و "ميرى ماتيو" يصدحان فى كاسيت السيارة.

آدم:

You are the night I'm the day
You are the star that shows the way

مونى:

You are the instrument I play
You are the words I long to say

رأس شانتال يتجه يميناً ثم يتجه يساراً مع كوبليهات الأغنية.

مونى: مش دول الولد والبنت اللى كانوا بيغنوا "لينا" المرة اللى فاتت؟

آدم: لأ دول أجانب!

❖

تتجاور العربات بموقف سيارات فندق "ماريوت" بالزمالك. النيفا الخضراء تغادرها ندى ومهاب. البيجو الرمادية تغادرها "مونى" و "آدم" و "شانتال" . الـ ١٢٧ الحمراء تنزل منها "طومى " و "ترمين".

ما أن يواجههم الفندق / القصر حتى يشعروا ببسطوة التاريخ. زمن الفخامة والثراء. عصر الخديوى إسماعيل. افتتاح قناة السويس. الأمبراطورة أوجينى وأوبرا عايدة. هل كان هذا

المكان صالحاً لسكنى البشر من أمثالنا أم أنه فقط جدير بأن يكون مقراً للأحلام؟

البلاطات الرخامية فى صالون أوجينى مرايا تعكس أجساد السائرين فوقها والخطوات تمر فى تؤدة حتى لا تجرح نقاءها.

فى مواجهة السلم الشاهق يقف الجميع وكأنهم على مشارف طقس ما. السلم جسد لصقر هائل يفرد جناحيه وكأنما يدعوك لامتطائه لينقلك إلى حيث السعادة الموعودة فى قاعات الاحتفالات على جانبيه.

آدم: تحبى حفل الاستقبال يكون هنا يا هانم؟

مونى: اللى تشوفه معاليك يا باشا!

شانتال خلفهما تحاول الدخول ولو بدور ثانوى فى اللعبة، وما أن تشرع فى ارتجال جملة ملائمة للـ location حتى يكون الديكور قد تبدل.

فى الطابق الأرضى من المكان نفسه يقع مطعم "روى روجرز". نقلة زمانية من أعرق الحضارات إلى أحدثها. تستقبلهم قبعات الكاوبوى على رؤوس العاملين بالمكان. أرضيات من الحجر البدائى. مناضد روستيك من الخشب الداكن مغطاة بمفارش عليها مربعات صغيرة. أوان وأدوات طهى من النحاس الأحمر مدلاة على الحوائط، تجاورها أحزمة الثوم والبصل .. و"إلفيس بريسلى" يهدر فى الخلفية على موسيقى الروك الصاخبة.

يقودهم الكاوبوى إلى منضدة خالية ثم يشير إلى بوفيه السلطات المفتوح الذى عليهم أن يتولوا أمر إحضارها لأنفسهم.

الجميع يتفقون على الطلب نفسه.. شوربة بصل وهامبرجر بالجبن والصلصة.

مهاب وندى فى مؤخرة القاعة عند بوفيه السلطات. ندى تنتقى لمهاب من مربعات الخضروات المتبلة وتضعها له فى طبقه بينما ينشغلان فى نقاش يبدأ هادئا ثم يتأزم تدريجيا.

شانتال تبث طومى "ونرمين" إحدى نشراتها فتتلقى الفتاتان الإخبارية بدهشة مصاحبة باستياء. النشرة تتضمن أخبارا غير سارة.. ترجمة صوتية لما يدور الآن بين ندى ومهاب فى آخر القاعة. "ندى" أصدرت أوامرها لمهاب بألا يأتى لنرمين بطلباتها الساذجة من كشك شارع الشيخ ريحان .. الشيكولاتة البيضاء وأكياس السودانى المكسرة. نظرات نرمين له لا تريحها. وألا يهرع لتجهيز كل ما تكلفه به "مونى" من موضوعات. "مونى" من وجهة نظرها ليست أهلا للقيادة. الوضع الأنسب لها هو أن تمكث فى دار زوجية تستقبل الزائرين وتنجب الأطفال. فاطمة بالنسبة لـ "ندى" محطة توقف عندها هشام ليتسلى قليلا وتقسم وتجزم إنها شاهدته يتبادل التلامس معها فى الحفل التنكرى.

تعود ندى بصحبة مهاب والأطباق المكتظة بصنوف وألوان السلاطات. تحدث المقاعد الخشبية الثقيلة أزيزا عاليا عندما تقوم شانتال وطومى ونرمين لملء أطباقهم من البوفيه البعيد.

آدم يجلس فى مواجهة "مونى" على وجهه إثارة من يحمل مفاجأة مفرحة: " أعلم ولعك بالقديم، لذا جئتك بقصاصة عتيقة من الصفحة الأخيرة من جريدة الأهرام، بها مقال عن خالى "مراد" الذى لم أره". يقول آدم بينما يخرج صفحة الجريدة

المطوية لعشرات السنوات.. مقال بعرض النصف الأسفل من الصفحة تحت عنوان "الزواج المختلط .. وأجيال بلا هوية". تحليل اجتماعى ونفسى لأضرار الزواج من أجنبيات مرفقاً ببراهين من الحياة تؤيد مناهضة الكاتب لزواج التهجين .. من أقوى البراهين الشاب "مراد درويش" الذى رماه اليهود بالرصاص فى معتقلاتهم بعد أن حصلوا منه على كل المعلومات السرية الخاصة بكتيبته بعد أن انهار أمام أول صفعة على وجهه الأشقر الجميل. "مراد درويش" .. دماء معكرة بخلطات زرقاء باردة من بلاد جليد شمالية جعلت ولاءه مبعثراً بين الشمال والجنوب، فهدرت دماء رفاقه الطاهرة على أرض سيناء بعد أن قدمها هدية للعدو حتى لا تحتقن دماء وجهه فخسر الدم والروح والشرف".

تضع "مونى" كلتا يديها على فمها لتكتم شهقة من الأعماق ولتمنع التواءات أمعائها من طرد ما فى جوفها. تهم بالإسراع نحو الحمام. يصل الكاوبوى بسلاطين شوربة البصل وأطباق البرجر بالصلصة.

- "مالك؟" تصطدم بها شانتال.

- "أصل ريحة البصل والتوابل زاعقة قوى".

أمام الحوض تفرغ "مونى" كل ما احتوته أمعاؤها لتترك بداخلها هذا الإحساس الهائل بالخواء ومرارة العصارة الصفراء على اللسان والحلقوم.

مسكين أنت يا هاملت. تعانى من عقدة أوديبية. تتعلق إلى حد الهوس بأمك وتتمنى لا شعوريا أن تتخلص من أبيك الذى كان يوسعك ضربا. وحين ظهر زوج الأم اعتبرته غريما لوالدك وخائنا له. لكن لأنك ترغب فى الانتقام من والدك استمرأت تلك الخيانة - وتساهلت فيما بعد مع أية خيانة فلم تتوان فى نقل أخبار

الفصل للوكيلة ولم تجد فى قصة خالك الخائن سوى طرافة الاحتفاظ بقصاصة صفراء من جريدة ولم يربكك إنه قد مرر لك بعضا من جيناته. ليتك ما لعبت دور هاملت فى الحفل المدرسى منذ سنوات أربعة. فسرواله اللاصق إلتحم بجلدك وامتزجت معالمه الداخلية بمعالمك.

بأطراف المنديل الورقى تمسح ما سال من كحل عينيها. تفاجئها شانتال: "إيه يا بنتى أكلك برد"

– "مش هقدر.. معدتى قلبت."

على نغمات الساكس فى أحضان الأبهة الفرنسية مرة أخرى تتجول طومى ونرمين على النوافذ الزجاجية لمحال المجوهرات ببهو الاستقبال. ندى ومهاب يتلاحمان ويتباعدان على أريكة اللوبى. آدم يحادث "مايكل" أو" نادر" على الهاتف ويتفق معه على اللقاء فى البهو.

من أريكة مستديرة تتخذ "مونى" وشانتال مكانيهما لتذيع شانتال نشرتها الأخيرة: "أعرف أنك الصديقة الأقرب لآدم. لذا وجب أن أصارحك بأننى أشعر بانجذاب غريب نحوه، خاصة حينما تبدآن فى التماهى مع شخصياتكما المتخيلة. تنتابنى رغبة عنيفة فى أن أشارككما اللعب. وحينما يتوحد مع نفسه فى ركن قصى فى فناء الجامعة، أتمنى لو أركض نحوه وأربت على رأسه. أرجوك ألا تسخرى من هذا التشبيه لكننى أشعر أنه عبد الحليم حافظ فى أفلام الأبيض والأسود، لقد صارحته بكل ما يعتمل فى صدرى وقبل دعوتى إلى العشاء بضع مرات". نهاية النشرة.

هل يمكن أن يكرر التاريخ ذاته بهذه الدقة؟ سها الشناوى أيام المدرسة ترغب فى آدم حين يراقصك فتتمنى أن يأخذها من يدها هى ويحركها على نغمات الموسيقى، "وشانتال" تنجذب إليه فى لحظات انفصاله عن الواقع. ترسم له بطولات من الصمت والضعف. السبب نفسه الذى حرك تعاطفك تجاهه وتجاه "شانتال" أيضا لحظة أن هجرها الحبيب الناضج القادر التى بدلا من أن تطرده من خيالها تقمصت دوره لتمد يد الاحتواء لضعف آدم .. هاملت .. سيدنى كارتون .. عبد الحليم حافظ.

ملعون أنت يا أوديب.. لازمت آدم منذ أن بدأ يعايش مشاهد الكراهية المنزلية وجعلته يستعذب الخيانات، فلولاك ما قبل دعوات العشاء والنزهات السرية برفقة شانتال.

فى أية ركن من روحك ستزوين ذلك الصندوق العتيق المكتوب عليه "آدم" .. شقيقك المشتهى؟ خزانة لعباتك الذى كنت تظنين نفسك مستودع حكاياته وقبو أسراره .. كل أسراره؟ وعلام تحديدا ستوصدينه؟ على تواريخ أواخر طفولتك؟ موعدك مع بداية شبابك؟ رنين ضحكاتك؟ دنياكما المسحورة؟ عذاباتك المكتومة؟ حيرتك وتوترك .. أم على الإحساس الذى ستودعينه عليه .. غثيانك؟!

❖

فى موقف السيارات خارج الفندق تقفز ندى إلى النيفا الخضراء بجوار مهاب. تدخل "مونى" بنصف جسدها إلى الكنبة الخلفية بسيارة طومى. تصيح "شانتال": "مش راجعة معانا ولا إيه؟"

– لأ عندى مشوار فى الزمالك مع طومى ونرمين.

فى تلك الأثناء يكون "مايكل" قد وصل وفق الموعد المحدد مع آدم. يغلق باب السيارة الأمامى بعد أن يتخذ مقعده المجاور لآدم وتنطلق بهما البيجو الرمادية. تتوسطهما شانتال وتحرك رأسها يميناً ويساراً وهى تتابعهما مشدوهة من مقعدها الخلفى.

❖

فى غرفة "طومى" ببيت الطالبات بالزمالك تنفث فاطمة ونرمين غضباً لم يسمح لهما الزمان أو المكان الذى احتواهما منذ دقائق بأن يطلقاه فى وجه ندى عبيد .. ذلك الوجه النحيف الذى تتبدل عليه أقنعة الحنو المؤقت بنفس يسر وسلاسة القفز والنزول من عربة مهاب.

تتمدد "مونى" على فراش فاطمة رافعة عينيها إلى سقف الغرفة. تتابع على فراغه بدايات ونهايات The way we were، العيش والملح، آه يا واد يا ولعة، أيامنا الحلوة وأجمل من أن يكون حقيقياً. تحوك فى صدرها كتلة من شجن حين تتراءى لها بدايات "أمل حياتى". فصل بدأ وانتصف ولا تتخيل إن كان حقاً قد انتهى.

النهايات التى نعجز نحن عن أن نحددها، تهديها إلينا الأقدار أو يمنحها لنا آخرون يتبعون قلوبهم فترشدهم وترشدنا إلى نقطة نهاية السطر الأخير.

لفاطمة أيضاً قصة بدأت وانتصفت ولا تدرى "مونى" إن كانت قد اكتملت أو تركت نهايتها مفتوحة. ذلك البطل الخارق الذى أطلقت عليه طومى إسم "أمل حياتى" لم تعد سيرته تحتل أية أحاديث بين الفتاتين، ربما لندرة الأحاديث أصلاً بينهما .. فاطمة

كانت منشغلة فى صنع حياة جديدة تجمعها به خارج الجامعة و "مونى" كانت غارقة حتى أعلى رأسها فى شخوص لعباتها الجديدة.

تسألها "مونى" مباشرة: "أخبار أمل حياتك إيه؟

من درج مكتبها ومدفن أفكارها تخرج طومى ورقتين صغيرتين يختزلان ما حدث طوال الشهور الماضية. بالانتهاء من قراءتهما يمكن قلب صفحة فصل "أمل حياتى" والدخول فى فصول أخرى مجهولة. أعلى الورقتين عنوان من كلمتين تتدفق بعدهما سطور مصيرية.

أمل حياتى (*)

"كانت تتحدث عنه فتقول أمل حياتى، صدفة جمعتها به فى إحدى الندوات الثقافية. جذبتها شخصيته واهتمامه بقضايا إنسانية. إنبهرت بلباقته مع بساطته وفوق هذا وذاك فهو يتسم بالوسامة والرجولة. تحدثت إليه عابرا. فى هذا اليوم قالت لنفسها هذا أمل حياتى. وكما يحدث فى سيناريوهات الأفلام العربية الرخيصة حدث فى الواقع. فبصفتها صحفية بإحدى المجلات أعطيت إسما لتجرى معه حديثاً بعد ندوة الأربعاء. وإذا بها تفاجأ به جالساً بجانبها بل وإنه الشخص نفسه الذى عليها أن تجرى الحديث معه.

أى قدر هذا الذى يسوقها إليه بل يسوقه إليها. وأى قدر يجمعهما بالمكان نفسه ليفرقهما. لم تنكر دقات

قلبها. لم تكن تعرف أنه آخر يوم لهـا سـتراه فيـه. تحدثا كثيراً ليبهرها أكثر. فهو كل ما تتمناه أن يكونه من إنسان وأخ وزوج وصـديق وفنـان. وكالعـادة انصرف عنها قائلا.. إلى اللقاء قريباً.

بحثَت عنه فى كل مكان. ذهبت إلى كـل معـرض وندوة علها تجده عن طريق الـصدفة. علمـت مـن صديق إنه فى مهمة عمل خارج البلاد ولكنهـا مـا زالت تفكر فيه. وطدتِ علاقتها بأصدقائه بالرغم من اختلافهم عنها اجتماعياً. أخذها الحماس لتغفـل عـن نظراتهم. ومرت الأيام والأسابيع والشهور وإذا بهـا تجده أمامها. كما هو بوسامته ورجولته وشخـصيته التى تحتويها فى هالته.

ومع مجموعة من الأصدقاء خرجا سوياً. رأته محاطاً بشخص غريب لم ترتح له. وتلاه آخر وآخر. تذكرت نظرات أصدقائه ثم نفضتها عنها.

وعلى الغداء دعيت فى منزله مع بعض الأصـدقاء. صورة كبيرة لأمه واجهتها فى المدخل. شعرت بعدم الارتياح بالرغم من التفاف الجميع حولها. نظرت له من بعيد. دارت فى أرجاء المنـزل. وعلـى ورقـة صغيرة دونت عليها المواعيد قرأت: فلان .. الساعة الخامسة يوم الأحد. فلان .. الساعة الخامـسة يـوم الثلاثاء، فلان .. الساعة السابعة يوم الخميس. لمـاذا فلان بالذات؟

دارت بعينيها فى الحجرة. وقع بصرها على لوحـة على الحائط. قلوب صغيرة حمـراء تنـاثرت علـى

الصفحة البيضاء. إقتربت لتتحقق من الشكل. للحظات وقفت وعيناها على اللوحة. لحظات ظنت أنها فقدت القدرة على النطق والقدرة على التمييز. شعرت بالاختناق. دارت الأرض بها. بقيمها ومبادئها. أغرقت الدموع عينيها.

أخذت حقيبتها وفرت هاربة. إنصرفت لينصرف معها وعنها الحلم لتتلاشى معها الهالة المقدسة التى أضاءتها حول أكبر وهم أطلقت عليه "أمل حياتى" .. فما احتوت القلوب الصغيرة إلا على إسمين.. إسمه واسم .. فلان!![*]

فاطمة رشيد

---

[*] قصة لم تنشر لـ عائشة سليم.

"البيضاء"

أنين كامن فى أعماق النفس يطمسه صخب الصباحات ثم يجلو مع سكون الليل. يبدأ واهنا متقطعا ثم تلحق الهنة بذيل الأخرى. تفيض عن ضيق الصدر. تنهطل دموعا. سيولا من حزن. دائرة ندية على الوسادة.

شهرزاد الصمت يجرفها الحنين. تعالى أيتها الحكايا. الليالى بلا جوهر والنهارات مجردة من الروح. برودة وصقيع برغم أشعة الشمس. إننى أرتعش. ترتجف أوصالى. أحتضن نفسى. أين شهريار. أين كل الرواة؟ لقد حلت الليلة الثانية بعد الألف. إنصرف الرواة وغاب شهريار ولم يبق سوى مسرور الذى استل سيفه وأغمده فى صلب الحدوتة.

ولى زمن اللعبات المروية ولكى تظل شهرزاد باقية على قيد الصمت فلابد من بديل .. بدائل.

يرتفع هرم الروايات المتراصة على مكتب "مونى". بدائل المنشد والراوى. شخوص الحكايات المكتوبة. تذوب فيهم. يتخللون خلاياها. يصنعون معنى لليقظة كمحاولة متفائلة للبعث.. لملء فراغات الزمن ورتق ثقوب الروح. مع آخر أيام الإجازة الصيفية كانت تغلق الصفحة الأخيرة من رواية "سانتى" أو "البيضاء" ليوسف إدريس.

جملتان إختتم بهما إدريس رائعته التى دونها بين عامى ٥٦-٥٨، أطاحا بعقلها. لكنهما فيما بعد سيحملان عن كاهلها حل

أعتى المعضلات ويدعمان نفسها بالراحة والسلام. لذا وضعت الكتاب فى مأمن. تشده كل حين وتطمئن عليهما ثم تسحب عليهما الغلاف. الجملتان كما وردتا فى الصفحة الأخيرة كانتا متتابعتين هكذا...

"الزمن القاتل

نهاية الأشياء"

تدور الأحداث حول يحيى المناضل الذى يذوب عشقاً فى فتاة يونانية تؤمن بعدالة قضيته وتتمازج القضيتان. نضاله ضد الاستعمار ومعاناته فى قصة الحب المستحيلة. فالحبيبة زوجة لرجل من بلدها.

فى الصفحة قبل الأخيرة من الرواية يقول الكاتب يوسف إدريس: "... وإننى رغم هذا كله لم أكف عن حبها ولن أكف وإنى قطعاً وبالتأكيد هالك، وقد بدأت أتناول الحبوب المهدئة وأنام بالمنومات وأستيقظ بالمنبهات وعقلى كله أراه رأى العين ينفصل شيئاً فشيئاً عن واقع الحياة ويتصاعد متصوفاً فى عبادتها، وكأنها تجردت هى الأخرى ووصلت إلى معنى الله".

كان ذلك المقطع يصلح نهاية درامية متصاعدة تصل بنا إلى ذروة المشاعر فى رواية عاطفية من ٢٥٤ صفحة بخط صغير مكدس، يتركك فى حالة قناعة بما آلت إليه الأمور وإعجاب لا يخلو من إنبهار بقدرات الكاتب. إلا أنه ذلك العبقرى يوسف إدريس الذى لا يكتفى بإبهارك بل لا يرضيه سوى أن يتركك فى حالة من الدهشة فيفاجئنا بالصفحة الأخيرة. التى تبدأ هكذا:

خاتمة

"بعد أسابيع قليلة فوجئت فى الثانية من صباح ذات يـــوم بطرق خفيف متلصص على بابى. من أول طرقـــة أدركـــت أن ساعة السجن قد حانت.

وفى السجن بدأت حياة جديدة.

... وحين أفرج عنى بعد عامين.

كانت "سانتى" قد أصبحت صورة وكلمات، وكانت أيامى المشحونة معها قد بردت وتقلصت واستكانت فى زاوية من نفسى ربما لتعود للوجود بشكل آخر.

ولو أن أحداً قد لوح لى أن سانتى ممكن أن تتحول ذات يوم إلى ذكرى، مجرد ذكرى لخنقته احتجاجا وغضبا.

ولكن احداً لم يقلها، حتى أنا لم أقلها لنفسى، إنما بلا قول أو ضجيج تكفل الزمن بكل شئ وفى صمت وبلا مؤثرات.

الزمن القاتل

نهاية الأشياء.

- تمت -

"صحصح ياللى نايم"

أبداً لم تكونى شهرزاد. كفى جورا على التاريخ بصباحاتك الزاخرة بروايات تمتصينها فى صمت. فشهرزاد لم تكن أُذنا، بل هى الحكى والليل والعشق. لذا سنجردك من الإسم وننزع عنك الصفة والوصف.

كونى كما ينبغى أن تكونى. فتشى فى مغاراتك المهجورة عن أخرى تتوحدين معها، طالما أنك لا تحصلين على السعادة إلا بحلول روحٍ أخرى فى جسدك. أعيدى تقليب أوراق أيامك فقد تجدين أرواحا تبحث عن وسيط يجعلها تكتمل روحا وجسدا.. وباكتمالها تكتملين.

لديك مشاهد تركتها دون أن تتميها لانخراطك الكامل فى الحكايا. مشهد شيسكا وهى تحتضن "رامى". ذلك الطفل المعاق الذى نالك الضجر من عبثه بسلسلتك وفررت على عجل بذهن مشتت فى تفاصيل حدوتة ما. لفى ذراعيك حول "رامى".. أى "رامى". دعيه يعبثْ بسلسلتك أو بخصلات شعرك فقد تكون تلك الثوان زخرا جميلا يكمل ما انتقص لديه. ولديك فتاتان تحملهما الرغبة المجنونة فى الإمساك بعجلة الزمن على الدخول فى لعبات كثيرة وناقصة.. مونى" و "داليا" يغنيان "يا عشاق النبى" ثم يغادرانها إلى خطوات راقصة فى "عجبا لغزال قتال عجبا". ولديك ديدمونة حبيبة عطيل التى هجرتها بعد ان جذبتك داليا خارجها لتنشدى وتتلوى على الإيقاع معها.

لست خارجة عن السياق فالكل يتشبثون باللعبات ويتمرغون فى أحضان الوهم ..."داليا" واللعبات الناقصة، "وسيم كاظم" الحصان الراكض، "شيسكا" و "ريكى"، "سها الشناوى" ونظيرتها "شانتال"، هشام والتقافز على الحبال الذائبة، "طومى" و "ترمين" ولعبة التشابه والقرابة الزائفة، "ندى عبيد" واعتصارها للمستحيل..

هم أيضاً الآن يمارسون أحدث طقوس الوهم. يمضون الفائض من الوقت فى التقليعة الأكثر شيوعا بفناء مبنى العلوم الاجتماعية. كل إثنين يجلسان فى مقابل بعضهما البعض. تتوسطهما منضدة عليها لوح كرتونى باسم "ويجا" عليه حروف مطبوعة وقطعة بلاستيكية، يضع اللاعبان أصابعهما عليها ويبدآن فى إملاء أسئلة عليها فى أذهانهم فقط فتتزحزح فى عشوائية فوق الحروف لتكون الكلمات. والكلمات هى الإجابة. والأسئلة جميعها تخص الغيب. لعبة وافدة تدل على عجز تام عن التواصل مع اللحظات الآنية. محاولات لتمزيق الواقع والعيش فى المشتهى. تشبه طفولى بجلسات تحضير الأرواح التى لا تحتمل أجسادهم المرهفة الخوض فيها ربما لخوف من الظلام أو من نفس شريرة قد تحل بهم أو ربما من الكرة الزجاجية التى تقرأ ما لا يطيقون سماعه، فيستبدلونها بذلك اللوح الكارتونى فى وضح الشمس وأنس الرفاق وتحرك رغباتهم اللاواعية أصابعهم باتجاه الإجابات التى تبعث الطمأنينة فى نفوسهم.

ولديك مشهد أخير بعد شهور أربعة لابد أن ينجز بفرح حقيقى لكى يكون مطابقا لنظيره فى أفلام هوليوود. حفل التخرج. قاعة إيوارت التذكارية. السير فى الممشى بين المقاعد على الموسيقى الأوركسترالية لفيردى. أوبرا عايدة. تسلم الشهادة الملفوفة بشريط حريرى أحمر ومطوية على حروف لاتينية بحبر من ذهب. إسمك الثلاثى وثواب السنوات الأربعة سيسلمها لك

رئيس الجامعة، السفير السابق، بشعره الكتانى وبشرته الحمـــراء وصحته الموفورة مادا الشهادة بيد وباليد الأخرى يشد على يدك. سيضحك من القلب حين ترتج القاعة تصفيقا وصفيرا لـــك وهـــو يقول Congratulations. أما نائب رئـــيس الجامعـــة. ابـــن النيـــل. النصف الأسمر، سيشد على يديك أيضا وبحنان أبوى سيقبلك من وجنتيك. طقس خارج عن النص غير متفق عليه فـــى البروفـــة. لكنه يشهد على أنك تركت أثرا فى هذا المكان مثلما طبع آثـــاره على روحك. وحينما تعودين إلى مقعدك ويستقر الجميع ســـيلقى الرئيس بضع كلمات لاتينية مثـــل قـــس بيـــارك مراسيـــم زواج، وحسبما اتفق حين ينطق كلمة "Thereto"، ستنقلون جميعا شـــرابة القبعة السوداء من ناحية اليسار إلى ناحية اليمين. علـــى عكـــس مراسم الزواج حين ينقل العروسان الدبلة من اليد اليمنى إلى اليـــد اليسرى كدليل على الزباط المقدس. أما أنتم فستتحللون من الرباط وتغادرون الغرفة المعقمة إلى الحياة الحقيقية مهندسين وصحفيين، رجال أعمال واقتصاد خبراء كمبيوتر وسياسيين. لكنكم فى تلـــك اللحظة تحديدا ستتخلون عن مهابة الروب الأسود الـــذى يكـــسو أجسادكم كأعضاء هيئـــة محلفـــين. وســـتلقون بالقبعـــات عاليـــا وتصرخون من عمق قلوبكم وتتقافزون فى أمـــاكنكم محتـــضنين ومقبلين بعضكم البعض، لتسكتكم خبطات ثلاث من الرئيس ويبدأ نشيد الجامعة مهيبا جليلا. سترددونه مثلما فعل كل من ســـبقوكم ومن سيأتون بعدكم.. لحن الوداع ..

College days & mem'ry
Games, defeat or vict'ry
One and all emotions call
And bind our hearts in loyalty together
Shoulder let us stand to shoulder
Pledge our love as life grows older
Courage ever making bolder
We of AUC

لكن كيف ستبلغين الدرجات القصوى من الفرح وأنت مشوشة بكلمات الصخب؟ صوت هشام خارج غرفتك يتمتم بآيات مقدسة ويزجر والديه متهما إياهما بالشرود عن سبيل الله ويقرع الباب خلفه مرات خمسا فى اليوم الواحد بعدد ذهابه وعودته من المسجد. "شانتال" وهى آتية نحوك بمزيد من الإخباريات ومحاولة رتق ما انفتق فى نسيج صداقتكما.

آدم ونظرات الاستعطاف من ركنه المنزوى البعيد. "ندى عبيد" وحنان أمومى مفتعل ومؤقت. آن الأوان لكى ترفعى يدك فى وجه الحكايا المكرورة والأحداث المستهلكة. إدفعى بها بعيدا لتعيشى البهجة ولكى ترفعى اليد نفسها مودعة هذا المكان بعد شهور أربعة بضحكة عريضة تضئ وجهك وتجلب النور من قلبك كلما مر بخاطرك.

مازال لديها متسع من الزمن .. الشهور الأربعة والمواد الثلاث التى تعج باللعبات وتحفل بالمتعة .. "فن المسرح" - "مقدمة إلى الموسيقى" - وأخيراً "نقد الفيلم السينمائى".

كانت "مونى" قد اتبعت قلبها فى اختيار موادها وتوزيعها على الأعوام الأربعة .. فانتهت من المواد الإجبارية وعلوم التخصص أولا.. لتقطف فى الترم الأخير من بساتين المواد الاختيارية ما يروق لها..ولديها أيضاً بضع وريقات منغرسة فى لوح إعلانات مسرح "هوارد"

(١)

مطلوب مواهب شابة للانضمام إلى أسرة المسرح الإنجليزى فى مسرحية "قيصر وكليوبترا".

(٢)

تعلن جماعة المسرح العربى عن عمل اختبارات لمواهب للاشتراك فى مسرحية "آه يا بلد".

(٣)

إحياء الفن الشعبى بتكوين فريق جديد للفولكلور.

(٤)

عودة إلى النغم الأصيل بإنشاء أول فريق للكورال بالجامعة.

علبة صغيرة من القطيفة يمنحها لك الزمن بها فص ألماسى يلملم فى أشعته المخروطية ما انفرط من الأوقات الجميلة. هل ستتحمل عيناك السوداوان كل هذا البريق دفعة واحدة؟!

ليس كل ما يرغبه الطامح فى الفرح يدركه. ستتعارض توقيتات بروفات الفولكور والكورال، ستكون فى الساعة نفسها. لذا ستحرر طومى سيقانها ويديها وجسدها من سطوة الأسر. ستخضع تماما للإيقاع لتكشف عن تجليات الروح ومعاناتها. ستكون فى ساعات البروفات وليال العرض "الحجالة" و "بنت بحرى" وجارية الأندلس المتمايلة فى دلال على نغمات الموشح.

وفى توقيت بروفة مواز، ستكون "مونى" قد ارتدّت إلى أيام عشقها الأولى. تقف مستقيمة الجسد رافعة للرأس فى صف متساو ومتوحد مع الجماعة لتتغنى بالهارمونية الأصيلة للمحبوب سيد درويش. تتغزل فى ملاحة القلل القناوى وتنادى عزيز عينها

وتحث الصنايعية على أن يذهبوا على باب الله إحتذاء بالحلوة التى قامت تعجن فى البدرية.

بعد انتهاء محاضرة "فن المسرح" التى تجلس فيها إلى جوار "طومى"، تناولها "طومى" دعوة لحضور عرض أول من إخراج صديق من شباب الحزب. إن مس ما أخرجه قلوبهما، سترشحه لإخراج مسرحية بالجامعة ضمن بروتوكول التبادل الثقافى بين الجامعات.

"صحصح ياللى نايم".. إسم المسرحية التى يتدافع لحضورها مئات الطلبة والأساتذة ورجال فكر وسياسة.

إظلام تام لمسرح البالون وبقعة ضوء وحيدة مسلطة عليه فوق الخشبة. إنه الراوى.. شريف الراوى. زعيم شلة التزويغ. ثانية أدبى. أولى دوائر الغربة. الكريات البنية الدقيقة التى تذهب بالوعى.

الحنجرة الرخيمة نفسها والإصبع الذى كان يرفعه فى وجه المعلم فى الأوقات الوجيزة التى يقضيها بالفصل. يصوبه نحو الجمهور مستهلاً عرضه بقصيدة لـ بيرم التونسى:-

جالنا ضيف بارد وساقع وإبن جزمه
نام ومزع ف القماش والوقت أزمة
والضيافة بالكتير ما تكونش لازمة
غير تلات تيام ودي بالتلتمية
طقة الضيف في الفطور ميت ألف بيضة
غير متين طور غندور وموضة
بعت عفشي وبعت بالي

والطاحونة والحمار والبطانية
إسأل البنك العقاري وبنك روما
تعرف المبلغ وشيكات العزومة
والتلم مش طالع إلا بالحكومة
بس لو تنفع وبالقدرة القوية

تنتقل بقعة الضوء إلى ممثلين آخرين يدخلون من آخر القاعة. تتوالى الأحداث والحركات التعبيرية والنكات التي تلذع القلب ضحكا وحزنا.

مشاهد متتابعة وديكور يتلاشى في ثوان لتحل محله خلفية أخرى وفي كل مرة يظهر شريف الراوي بشخصية جديدة يلازمه إصبعه الذي يبث الصحوة في العقول الخاملة .. "إبن البلد" ، "الصحفي" ، "الخواجة". ثم أروع ما يكون في دور "البهلوان".

الآن تحدث عملية "ميكساج" في تلقائية وسلاسة. يتم تركيب الصوت على صور قديمة صامتة. "موني" الجالسة بعيداً وسط شلة الكانتين تراقب "شريف الراوي" وترهبه وهو يلوح بيديه ويبث جماعته التي تنفر منها أشياء لا تسمعها، ثم تأتيها أصداء التصفيق الحاد الذي يعقبها.

هل كانت لمة شلة الكانتين والخوض في متاهات آدم تساوي ما خسرته بتخليها عن مكان وسط مريدي "الراوي"؟

تدوي الأصوات من حولها إلا من صوت هذا الجني المسرحي الجدير بلقب "البلهوان" بعد كشف معناها في القاموس الفارسي. "بهلوان" بالفارسية تعني "البطل".. ممثل السلطة الشعبية

الخارجة على أي نظام وضعي! مائة وعشرون دقيقة تنقضي بأنفاس مشدودة وشحنة شعورية مكثفة. يبلغ الوعي ذروته بتصاعد لحن النهاية الملحمي. ينهار الحائط الرابع الوهمي بين الممثلين والجمهور ليشتبك الجميع في التصفيق وترديد أغنية النهاية..

فلوس بتورد م الكايرو تحاويل ع البنك
كتير ومين عارف يمكن ميت ألف فرنك
مبع الولد بيبعترها بين هنك ورنك
يحط للمشروب عشرة والجرسون سنك
ويعيش هنا زايط هايص وقرايبه ف ضنك
تقول إذا شفت الحالة يا خسارة المال
دي مصر عايزة الرجالة مش عايزة عيال
دي مصر عايزة الرجالة مش عايزة عيال

ربما لم يكن ما أفزعها من الراوي هو الكريات البنية التي تذهب بالوعي فحسب. بل تلك الحادثة التي شهدتها المدرسة أثناء الفسحة عندما نادى بحنجرته الجهورية تلك الفتاة الباهتة الخنوع "نهى الشامي"، وقبل أن تستوعب نهى ما نطق به، كانت رؤوس كل الواقفين تتجه نحو مصدر الصوت "نهى يا شامي.. تعالى أفرجك الدنيا الكبيرة !!" وفي كسر من الثانية كانت يدا "نهى" مشتبكتين في قبضتيه العفيتين . يدور بها في لفات سريعة وقوية ثم يطيح بها بعيداً لتنبطح الفتاة أرضاً وليحصل الراوي على أسبوع فصل!

بالرغم من أن "نهى الشامى" كانت رمزا للاستكانة غير المبررة وغياب الحرارة والحماس وكانت رجة الراوى لها، من وجهة نظره، إنتفاضة تمرد على السلبية والخنوع، إلا إنها من الناحية الذوقية كانت تمثل سلوكا فظا فجا. تماما كالحركات الثورية وانتفاضات التحرير التى تبدو من وجهة النظر الاجتماعية وبروتوكولات الدبلوماسية أنماطا سلوكية فوضوية وخارجة عن السياق الأخلاقى.

مع خفوت التصفيق وإضاءة المسرح بالكامل ينصرف الحاضرون بين دموع الحماسة وهمهمات الإعجاب . تنظر "مونى" و"طومى" لبعضهما البعض وتتفوهان بالكلمة نفسها "برتولد بريخت" ، فقد تلقيا صباح اليوم نفسه محاضرة عن مسرح "بريخت" الذى يتبناه أصحاب القضايا الكبرى لأنهم يرون فيه خير وسيلة لعرض قضاياهم الكبيرة على الجمهور الخانع المتململ.

تحل "موني" قبضتها عن النشرة المتضمنة لأسماء فريق العمل .. شريف الراوي قام بالتمثيل والإخراج والتلحين.

تامر شركس قام بكتابة النص وإعداد الأشعار.

"تامر شركس" الحمل الوديع الذي انتابته النوبة الصرعية والذي كان يأتي خصيصاً من الفصل المجاور لمرافقة شريف الراوي.

أهدرت شهوراً في التساؤل عما يمكن أن يجمع نقيضين كالراوي وشركس. القوة والضعف، التمرد والحنو وأضعت أياما في المقارنة بين إحساسك بالرعب من زئيره أثناء سريان الكهرباء في جسدهِ وتيبس أطرافه وبين شعورك حين منحك بسمة اعتذار رشقت سهما من الحنان في قلبك حين ارتطم كتفه بكتفك.

أحياناً ما نهدر أوقاتاً عزيزة في ترك التساؤلات تعبث برؤوسنا، بينما لا نجهد تلك الرؤوس في محاولة التفتيش عن الإجابات لنريح قلوبنا.. فتضيع سنون مديدة نكون قد حرمنا فيها أنفسنا من صحبة رقيقة أو متعة عميقة.. فطوبى لمن يتلذذون بعذوبة الأوقات التي يعيشونها وليـنعم من لا يدعون حلاوة ساعاتهم تفلت من بين أيديهم..

❖❖❖

كونشيرتو رقم (١)
للبيانو والأوركسترا

في فراشها الوثير، تتدثر "موني" بدفء صوفي بعد انتصاف الليل. من تحت وسادتها يأتيها صوت هزيل: "شهرزاد .. شهرزاد". ترهف السمع فتتكاثر الأصوات وأصداؤها بالوتيرة نفسها وكأنها قادمة من بئر عميق..

"شهرزاد ... شهرزاد... نحن الحكايا .. هل تسمعيننا ؟!".

خشخشة ورقةٍ بيضاء ترتطم بطرف أذنها ثم تلتصق بالحكايات. تصير شيئاً واحداً. تستطيل الورقة وتنفتح كضلفتين. تستوى كجثة فوق أرض خشنة. يتناثر فوقها إسم مألوف بالعشرات. بالمئات .. "منار وهبي". آثار طينية لحذاء قياس ٤٦ تخفي حروف الإسم. تئن الحكايا. تغادر الورقة الضخمة المسحوقة وتعود في هدوء إلى القرار المكين.

❖

الفصل يمتلئ عن آخره بعددٍ من الطلبة يفوق الأعداد المعتادة. ربما ثلاثين أو أربعين طالباً من راغبي الهزل ومريدي المواد التي لا تتطلب جهداً.

نوعية المادة وإسمها واسم الدكتوره تشي بسهولة خادعة. "مقدمة إلى الموسيقى". الأستاذة الزائرة كما تظهر تماماً في

برنامجها التليفزيوني. الوقار نفسه والصوت الهادئ الوخيم. القد القليل والعينان الزرقاوان ولثغة الراء المحببة. على منضدة مجاورة تضع جهاز بيك أب ضخماً وصفاً من الأسطوانات القديمة.

محاضرة للدور والطقطوقة والمقامات : نهاوند ورست وصبا. ومحاضرة للأوبرا والسيمفونية والكونشيرتو والسوناتا. "موني" دوماً في الصف الأول في مواجهة الدكتورة تبثها إحساساً بحسن المتابعة فتعكف على هز رأسها طوال الخمسة والأربعين دقيقة.. وتملأ وريقاتها بالربط بين حقائق تاريخ الموسيقى وتاريخ الروح الإنسانية.

تعلق الدكتورة بأنه من الواجب على دارس الموسيقى "أن يعلو ويتسامى فالطريق إلى أعلى زاخر بالمصاعب والعوائق. ولذلك ينبغي أن تتوفر للباحث الموسيقى سعة الاطلاع في نواح عديدة حتى يحل المشكلات المعقدة التي تصادفه أثناء تقدمه في طريقه البطيء الوعر".

يبدأ التململ في نهاية الفصل وتسري عدواه حتى بدايات الصفوف الأولى. و "موني" على الحال نفسه - تهز رأس المتابعة تبجيلاً للدكتورة الأستاذة التي يعصرها الندم محاضرة تلو الأخرى، على موافقتها على تدريس تلك المادة التي تجرب للمرة الأولى ضمن قسم العلوم الإنسانية.

محاضرة اليوم عن تحديد الفارق بين "السوبرانو" و"الميزوسوبرانو" وبين "الألضو" و "التينور" . وما أن تنطلق الحنجرة القوية لمغنية السوبرانو فى أرجاء الفصل مع لفات الأسطوانة ، حتى يستحيل المكان إلى كتلة هزلية ضاحكة. فتصير المحاضرة الثامنة هى المحاضرة الأخيرة .. تجمع العالمة

الموسيقية الجميلة أشياءها فى وقار لترسل نيابة عنها أستاذة بديلة تكمل الترم غير مبالية بالثرثرة وجلجلة الضحكات فى منتصف الفصل وأواخره.

❖

مثل ثرى عجوز يوزع تركته على بناته بالتساوى تنال كل من الفتاتين نصيبها من ثروة المسرح. "طومى" تؤدى دور "كليوباترة" فى مسرح "هوارد" – و"مونى" تتقمص دور "نفوسة " على خشبة "إيوارت".

البديع بحق فى تلك اللعبة الساحرة ليس حين تمتلىء القاعة عن آخرها بالمشاهدين أو حين تكون حركاتك فى دائرة الضوء ولا حين تتردد كلماتك متضخمة فى أرجاء القاعة بفعل مكبر الصوت ليلاً.

ما يمتصك حقاً و يلفك فى تلابيبه دون أن تدرى هو عالم ما وراء الخشبة .. الـ Backstage ، دنيا البروفات ، المسرح صباحاً وظهراً ، صفوف المقاعد الفارغة حتى آخر مقعد فى القاعة. إحساسك بارتفاع الحوائط التى تسمو بك عالياً وتأخذك فى حنان رحابتها، وقع خطواتك على خشبة المسرح .. دبيب يصدر عنه غبار خفيف يقترن فى الذهن بهذا العلو عن مستوى الأرض .. خشب السلالم المتحركة التى تروح وتجىء على أكتاف العاملين – خشب ديكور ملون يتخذ أوضاعا مختلفة يضيف بهجة إلى المكان وتنبعث منه روائح اللاصق اللاذعة. للخشب دائماً وظيفة حنون. يطفو خفيفا على الماء لينقذنا من غرق، ونشعل فيه النيران ليحمينا من برد.

غرفة الملابس - أقمشة زاعقة- بدل تاريخية قديمة بألوان محايدة أو باهتة. أزياء مدلاة بعناية على الحوامل، وأزياء مكدسة فى فوضى صناديق كرتون. ثم الرائحة التى لا تخطئها أنفك فتعرف أنك داخل مغارة الملابس. مزيج من روائح أتربة وبقايا عطور و"كمكمة"، لكنها المغارة المسحورة التى ما أن تعرض كنوزها عليك حتى تحتار حيرة الطماع "قاسم" شقيق "على بابا" فتقول "أريد هذه ! بل تلك .. بل هذه ! " ولا يحسم طمعك سوى متطلبات الدور.

ترتدى نفوسة الجلباب المزركش بالورود الفاقعة. منديل الرأس الأحمر والضفيرتين فى غرفة المرايا. تخط تحت شفتيها وشما أخضر اللون وتثقل الكحل حول عينيها. تغادر مرآة الوجه الصغيرة المحاطة باللمبات المضاءة إلى مرآة نهاية الدهليز المستطيلة . تحصل على رؤية كاملة لمنظرها. تنفرط ضحكا على نفوسة وتعشق امتزاجهما معا. تسمح لها نفوسة بأن تطلق مارداها الكامن بلا تكليف. تبدأ بالتصفيق على الطريقة الفلاحى مع تمايل نصفها الأسفل يمينا ويسارا فى حركات فكاهية. تصاحب رقصتها بأغنية العرض ..

الكفر الليلة عريس متغندر جاى يزوره وزير م البندر
خلى الكفر جديد ومنوّر يا حليلة يا بوريشة يا حليلة

تغادر غرفة المرايا إلى خشبة المسرح. الجميع ينتشرون ما بين منبطح أرضاً وجالس على كرسى مقلوب وممثل يمشى ذهاباً وإياباً وفى يديه النص ليحفظ سطوره. المخرج التنفيذى يرسم الحركة- مجموعة تؤدى مشهدا تحت إشراف المخرج "شريف الراوى" .. يستشيط غضبا بعد انتهاء المشهد. يزعق فى وجوههم. هو دائماً فى حالة فوران - غليان

من يريد الأفضل - والأفضل نادراً ما يتحقق - لذا يختتم كل مشهد بكلمة واحدة منه إما أن تكون بذيئة أو مجرد "كويس!".

تسبق "مونى" إقتحامها للمشهد بزغرودة "نفوسة" الممتدة. ترفع يديها مبتهلة بالدعاء .. "يحيا الوزير .. يحيا الوزير .. يا رب يترقى ويبقى مدير!".

تفرد ضفيرتيها على جانبى رأسها مثلما كانت تفعل "مونى" الصغيرة فى رقصة المجنونة وتكمل الأغنية التى بدأتها بالداخل ..

والكفر أهو واقف على رجله وسيدى العمدة دبح عجله
يا حليلة يا بوريشة يا حليلة يا حليلة يا بوريشة يا حلييللة

يضم الراوى قبضة يده ثم يشير بقوة نحوها .. " هو ده!"

أمام المرآة مرة أخرى تخلع ملابس نفوسة قطعة بعد أخرى. يعتريها أحساس ينقبض له صدرها بأنها تخلع يديها مع الأساور البلاستيكية الملونة وتخلع ساقها مع الخلخال الذهبى وتخلع عينيها وهى تزيح طبقات الكحل بقطعة المنديل الورقية. وما أن ترفع الكردان المذهب حتى يشتبك فيه قلبها ويتوسل إليها بشدة " لا تغادرينى نفوسة". تطلق تنهيدة من العمق تعيدها إلى مونى.

أمام المرآة يعاودها الصوت الهزيل لينعكس أصداء فى المرايا المتعددة " شهرزاد. نحن الحكايا. هل تسمعيننا؟" أنا حكاية البطل الذى أحب الممثلة. وأنا حكاية العازف الذى خانته المطربة مع مدير الفرقة. ونحن حواديت منافسة الفتيات على الأدوار الثانوية. لملمينا شهرزاد وأنفثى فينا من روحك. ضمينا على

قطعة من ورق . إن كنت تقذعين من الصفحات اليومية الضخمة، خبئينا على وريقات صغيرة. دثرينا بغلافين حتى لا تدوسنا الأقدام الموحلة أو ننتهى كقراطيس مبرقشة ببقع الزيت عند بائع للطعمية أو ككرات ورقية تزيح الوسخ من على الزجاج فى أيدى خادمة. لو أدفأتنا بالغلافين سوف نتراص على الأرفف ونمنحك الخلود والمكانة. حتى لو تراصصنا على قارعة الطريق بواسطة بائع بجلباب سينظر إلينا المارة بمهابة كقطع أثرية نادرة حتى وإن لم يلتقطونا بأيديهم أو أهملتنا عقولهم ، فسنظل نبعث الجلال فى نفوسهم.

❖

فى الدهليز الخلفى .. الشريان الذى يربط بين المسرحين "هوراد" و"إيورات" تتلاقى الفتاتان .. كليوباترة الملكة العاشقة التى خلدتها أساطير الدنيا .. ونفوسة الفلاحة المطحونة مع أهل البلد الغلابة فى كفر أبو ريشة. نكهة قوية لخلطات نفاذة هى التى تنتزع كلا منهما من بروفتها لتجتمعا حول طبق معدنى يمتلئ عن آخره بحبات الفول المدمس الغارقة فى الزيت المتلألئ تحيط به أرغفة الخبز البلدى التى تفوح بالطزاجة والسخونة .. والوجبة كانت فى الأصل غداء عم "عفيفى" فراش المسرح . عاشق الإبداع وحنان الأخشاب وغرف المرايا والطلبة الفنانين. لا يملك الرجل سوى التنازل لهما عما سيقوت به نفسه لباقى اليوم بوجه بشوش ونفس راضية وقلب يفيض مودة .. فداء للفن!

❖

فى طريق العودة إلى البيت تقبض بكلتا يديها على مقود سيارتها المازدا البيضاء. ساعة من الموسيقى الكلاسيكية يبثها البرنامج الموسيقى "كونشيرتو رقم (١) للبيانو والأوركسترا لـ

شوبان". مقطوعتها المفضلة. تطربها ثناياها الرقيقة وهمساتها الخافتة لكنها لا تعطلها عن تفهم وتكوين المسافات والسلالم الموسيقية".

من الكنبة الخلفية يداعبها الصوت الهزيل " نحن الحكايا - لملمينا. أسكبينا بلا ضجيج على الأوراق. إن ضقت ذرعا بالوريقات فاطبعينا حروفا منظومة على قلبك. ضمينا إلى روحك شهرزاد".

مع تصاعد الحركة الثالثة فى الكونشيرتو تشعر "مونى" بأشياء شبيهة بالحاء والراء والفاء تتجول فى صدرها. تنبض بانتظام مع دقات قلبها. تتحرك الأحرف بداخلها بسرعة تفوق نبضاتها.

النغم الأوركسترالى يعلو و يتوحد مع شجونها .. يدها تسبقها إلى حقيبة يدها. تعبث بداخلها بحثا عن شىء تجهله. توقف السيارة. تلتقط أصابعها القلم. تحتضنه بعد اشتياق. يغازل "شوبان" أحساسيسها .. ينسكب الحبر حروفا وسطورا .. "الفراشة التى لم تحترق" .. تفيض المشاعر وتغزو المساحات البيضاء. متتالية من الشجن. قصة قصيرة تقدمها فى نسخ ثلاثة للجنة رباعية من شعراء وأدباء. تعود إليها كأسا فضيا ضخما عليه التركيبة الإسمية التى تفتنها " منار وهبى". منحوتة بعمق على المعدن. الجائزة الأولى . مسابقة شباب الجامعات.

❖

"سكوت .. بروفة !" يصيح بها د. مرجان مدرب الكورال. يصدّر أذنه اليسرى لصوت منبعث من المسرح المجاور ككفيف يستعيض بحاسة السمع عن كل حواسه الأخرى. يرسل

عم عفيفى إلى فريق الفولكلور .. " قول لبتوع العتبة جزاز يتدربوا من غير الأحزمة اللى بتشخلل دى عشان نعرف نشتغل!".

يرفع كلتا يديه مانحا الفرقة الموسيقية إشارة البدء. وباليد اليمنى يشير لأعضاء الفريق بالغناء بعد المقدمة الموسيقية بثوان

يا غصن نقا مكللا بالذهب أفديك من الردى بأمى وأبى
إن كنت أسأت فى هواكم أدبى فالعصمة لا تكون إلا لنبى

الموشح ليس معضلاً ، لكن التنويعات التى اخترعها د. مرجان وتداخل الأصوات والنغمات المشتقة هى التى جعلت من أدائه مهمة صعبة. تتصاعد الأصوات من الحناجر ملتهبة بالمشاعر. يملأ اللحن أرجاء قاعة إيوارت على الوجه الأجمل.

والله لقد سمعت بالأسفار عن ساحرة تهيم بالأفكار
والله لقد سمعت من مبسمها طيب الغزل و رقة الأشعار

بانتهاء الموشح يتقافز الشباب الذين كانوا يقفون فى وقار منذ برهة يقبلون بعضهم البعض ويذهب آخرون لتقبيل الأرض والحوائط ابتهاجاً بأدائهم العالى. ومع تصفيقهم لأنفسهم يطلقون صيحة مشتركة "قشطة!!"

"زفت !!" يقذفها د. مرجان فى وجوههم ليخرس ضجيجهم. الأجمل يصير أروع وأسطع ووجه د. مرجان على حياديته لا يزال. يترقب الجميع قسمات وجهه فى قلق. وحين تنفرج شفتاه ببسمة جانبية يمرر عازف الكمان القوس على الأوتار فى سلام مربع. يحتضن مصطفى الطبلة وتأتى لمياء

بالصنجات. يصفق الجميع على واحدة ونص ثم يغزوهم الكمان بميوعة ودلال شادية..

مين قالك تسكن فى حارتنا تشغلنا وتقل راحتنا
يا تشوفلك حل فى حكايتنا يا تعزل وتسيب حتتنا
- سلام مربع -

❖

بحنان الأرو والزان والصندل تحتويها أرضيات أيوارت وهوارد والبالون وقاعة ألف ليلة بالنيل هيلتون. شعلة متوهجة تحت بقع الضوء الملونة، مرتفعة فوق مستوى البشر المتعلقة نظراتهم وأنفاسهم بهزل " نفوسة " وأحزانها .. شجن شادية الموشحات فى "شاغلى بالحسن بدر" ثم نثرها للبهجة والعبق المعطر فى "يا ورد على فل وياسمين".

وفى الصباحات التى تسبق العرض الأخير بقليل تتخذ مكانها المحبب. المقعد الأخير فى قاعة إيوارت لتمتد على مرمى بصرها صفوف من المقاعد الفارغة الممتلئة بذكرياتها. المقعد الذى توسطته مرتعبة من ألا يقبلها المكان وهى تؤدى اختبار "ميشيجان" .. مهر قبول الجامعة لها. مقعد شهد صرخاتها خلف حماسة "نوح" ومقعد ارتوى بدمعاتها خلف لوعة "منير" ومقعد أطربته آهاتها مع "إيمان البحر" و" فؤاد عبد المجيد". مقعد كاد يتصدع من تنديدها بسياسات دولية عوجاء، وهذا الذى يجاوره تماماً كاد يصفق معها إعجاباً بخطبة عصماء .. ثم كل تلك المقاعد التى تبدلت أمامها مشاهد سينما ليلة الخميس ودنيا البروفات الساحرة.

هل خطت حقاً نحو هذا المكـــان وفـــى قلبهـــا إحـــساس بالغربة؟ إنها الغربة الجميلة التى يمارسها المرء حين يخطو بقدم صغيرة وحثيثة خارج نفسه فيخترق أمكنة وأزمنة تبعده عن نفسه التى تبدو له ضئيلة أمام هذا الخضم من الأحداث والبشر - وحين يكتفى بقدر معين من المشاهدة يعود لاهفا إلى ذاته التى بدت لـــه صغيرة فى البداية لكنه يجدها قد كبرت وصارت عملاقـــة بمـــا حمله إليها من غربته الجميلة.

فى الصف الأخير من القاعة الفارغة وعلى مقعد مجاور تجلس طومى. تراجع دفاتر أيامها وتـــسجل أحاســـيس مـــشابهة. طومى واتباع القلب وتدوين الشجن. الرؤية غائمـــة مـــن خلـــف دمعات مونى المتكاثفة فى عينيها. دموع مثيلـــة تغـــرق عينـــى طومى. يعلمان أنهما يلعبان فى الضائع من الوقت. تقـــرأ عليهـــا طومى ما سطرته. حكاية لا تبدأ بالعنوان كالحكايا السابقة بل تبدأ بالسطر الآتى .. يليه العنوان ..

It's almost always the fear of being ourselves that takes us to the mirror خوفنا من أن نكون أنفسنا هو الذى يأخذنا إلى المرآة

" برســـــونا "[1]

أمسك يدها للإنحناءة الأخيرة. تعالت أيادى الجمهور بالتصفيق. سقطت الـــستارة معلنـــة نهايـــة عـــرض المسرحية. إتجهت إلى حجرتهـــا لتغييـــر ملابـــسها.

---

[1] قصة لم تنشر لعائشة سليم

خلعت الفستان الأسود الذى ارتدته فى آخر مشهد لتوديعه ووضعت الرداء الأزرق على يدها وبكل حذر بعد ارتدائها للحذاء لمست بأصابعها التاج المرصع بالثعبان لترفعه من على رأسها. تتوقف تتخيل نفسها بدونه. نظرة خاطفة للمرآة جعلتها تتساءل عن صاحبة هذه الصورة المنعكسة أمامها. أحقاً هى أنا؟ لقد عاشت شهوراً مع كليوباترة حتى إنها أصبحت لا تفرقها عن نفسها. الكل يناديها بإسم "كليو" حتى والدتها أهدتها سلسلة ذهبية تتدلى منها صورة كليوباترة. لقد أصبحت أنا الآن بالفعل كليوباترة. " أتعرفين أن لك طرازاً مميزاً ينم عن النبل، لم أعهده فى أحد من قبل؟". قالها لها يوما وهو يتأملها وهى تنفخ الدخان من سيجارتها. كان هذا اليوم بعد أول عرض للمسرحية حين أخذها عند أبى الهول ليتمرنا سوياً على إلقاء المقدمة. ضحكت وقالت "من؟".

– أنت يا كليوباترة من غيرك؟

– آه. أنك تقصدها هى !

– بل أنت!

أنهى الحديث وتوطدت الصداقة بينهما. يقدرها. يحترمها ويعتمد عليها. أصبحت تمثل القوة بالنسبة له. صارت الشعاع الذى يستمد منه أسلوبه. لا يمر اليوم دون الاتصال بها وهى سعيدة بموقفه منها. إعتادت وجوده فى حياتها.

أصبحت قوية كما يريدها. صارت مسئولة كما يريدها. أصبحت ملكة. أصبحت كليوباترة. تنظر إلى المرآة مرة أخرى قبل أن تخلع التاج من على رأسها. تخشى أن تفقد نفسها إذا فقدته فهو الآن جزء منها وبفقدانه تفقد نفسها وتفقده. وكان الحفل بعد العرض فى منزلها. أعدت المائدة سريعا ودعتهم إلى العشاء.

– توقعت أن تكونى طاهية ماهرة. هكذا تخيلتك كاملة من كل ناحية.

– لم أعد الطعام، بل أعدته الطاهية.

– كنت أحب أن أظل مخدوعاً. تلاقت نظراتهما.

وحين حانت لحظة الانصراف سالت دموعها. بكت لحظة فراقها عن أعضاء الفرقة. بكت فراق كليوباترة التى اعتادتها طيلة الأيام السابقة. تلاقت نظراتهما .

قلت لقاءاتهما ولكن ما زالا أصدقاء. تطورت الصداقة ليحكى كل عن مشاعره. يبث الآخر همومه ومشاكله. بدأت بنفسها. مشكلاتها العائلية والدراسية والعاطفية.

إستمع لها ولم يتكلم. أعلن عن ضرورة انصرافه. نظرت إليه كمن يرى شخصا للمرة الأولى. لم تتعرف عليه ولم يتعرف عليها. كان يهرب من شىء ما. تكررت المحاولة وتكرر الهروب. تكررت النظرات ولم تتعرف عليه ولم يتعرف عليها.

نظرت فى المرآة ووضعت التاج. لم تتعرف عليها. لم تتعرف على نفسها.

– لقد أحبك أنت .

– بل أحبك أنت !

– لقد أحب كليوباترة .

– بل أحبها من خلالك !

– أحب قوتها، جبروتها. إعتمد عليها .

– بل أحب كل هذا بتجسيدك لها. ما كان ليحب أى كليوباترا

– ما عاد يصفنى بالنبل والرفعة التى نعتنى بهما من قبل. أنا الآن عادية.– أنا الآن عادية. أنا الآن مثلكم. مثلهم. إنسانة ذات مشاعر عادية. لها هفواتها. نقاط ضعفها. مشكلاتها. وهو وضعنى فوق برج شامخ. أعلى من كل شىء وقد خذلته.

– ما زلت كليوباترة .

– لا لست هى. لست أنت. أنا. أنا .. من أنا ؟ لقد فقدت نفسى من خلالها. علقتنى بها ثم تركتنى فلم أعد أستطيع أن أكون أنا أو أن أكون هى. حتى بارتدائى تاجك المرصع بالثعبان. خذيه فأنا لا أريده. بل هو لا يريدنى.

نظرت فى المرآة إلى صورتها. إلى كليوباترا. تلاقت نظراتهما. لم تتعرف عليها. تجسدت لها صورته متكئا على كليوباترا. نظرت لها بحقد ونظرت له. تلاقت نظراتهما. لم تتعرف عليه ولم يتعرف عليها

فاطمة رشيد

بعد قليل سيشهد المكان بروفة أخيرة لحفل التخرج. المشهد الأخير حيث المغادرة أكيدة ونهائية. بروفة مغادرة الماضى بفرح حتى نحتضن المستقبل فى بهجة. قاعة إيوارت تعج بالطلبة والطالبات. زملاء وزميلات من كل بقاع الأرض. أساتذة عرب وأعاجم وأفرنج. كرة أرضية تموج بشحنة من الارتباطات والمشاعر وتتوحد على قلب فرحة واحدة.

تنتقل "مونى" إلى المكان المحدد لها فى طابور التخرج. ترمق الأخشاب المحيطة بها. تتنسمها. مع النفير المهيب لافتتاحية أوبرا عايدة يرتج قلبها. قلبها الذى اشتبك فى كردان نفوسة وتوسل إليها بألا تغادره. تمسح دمعة انفطرت من طرف عينها وتزيح "طومى" ما انهمر من دمعاتها. بذهن شارد يتدربان على الطقوس على الوجه الأكمل، إلى أن تفيقهما الخبطات الثلاث ليبدأ النشيد المهيب

We of AUC forever

Raise your voices now together

Time & place shall never sever

We Of AUC

برســونا

"Objects in mirrors look closer than they appear"

"تبدو الأشياء فى المرآة أقرب من مكانها الحقيقى"

عبارة مكتوبة بخط أبيض رفيع على الزجــاج الجــانبى لسيارتها الفارهة. كلما وقعت عليها عيناها ذكرتها بعبارة قرأتهــا فى قصة لزميلة منذ خمسة عشرة عاما .. تمر بعينيها مرارا فوق الجملة المرورية الفلسفية أثناء توقفها الإجبارى على بعــد أمتــار من جنازة السندريللا. تؤنس غربتها بالعبث بآلة الزمن الخاصــة بها. تخلق شخوصا وتضع عقدا وتفككها أو تتركها لتحقق لنفــسها ممارسة وجدانية وذهنية تجذبها لمشاهدة العرض رغم المعرفــة المسبقة بذات الحدوتة. تماما كالمتفرج الذى يذهب إلى العــرض الدرامى رغم تضمنه لحكاية معروفة سلفا.

الموسيقى التصويرية تمثــل عنــصراً أساســياً لتعميــق الاحساس بالمشهد. تضغط زر المذياع. سماعات الأمام والخلــف تلفها بصخب متشابه قاسمه المشترك إيقاع "المقسوم" والــصنجات وحناجر خشنة أو مائعة تشترك فى الضعف والقبح. فى الــصفحة الأولى من مذكرات "مقدمة إلى الموسيقى" حكمة فى سطر : "أى خلل يحل بجوانب الحياة ينضح على الموسيقى".

تذير المؤشر بحثا عن "شوبان" أو "شوبرت" فتأتيها دقات القدر الأربعة التى يبدأ بها بيتهوفن سيمفونيته الخامــسة واهنــة

مشوشة فتطلق تنهيدة من القرار تصلح خاتمة تراجيدية لإنهاء لعبتها. تعاود النظر فى مرآة الجانب ومرآة اللوح الأمامى بحثا عن حميدة زقاق المدق، نفوسة، ديدمونة، فيروز، فلا تجد سوى تلك الغريبة التى تحملق فيها مليا وتطحنها ببسمة كيدية تشدها بجذبة قوية إلى زمنها الراهن.

لم تعودى قطعة من هذا المكان وإن كان هو قد صار جزءاً منك. رحلة قصيرة بحسابات الساعات والدقائق لكنها بداخلك رحلة تاريخ الوطن وفلسفاته وجمالياته. من يلمحك قد يدرك أن بداخلك تراث أمة، كنوزا فرعونية لم ينقب عنها بعد. موشحات تصدح فى أقاصى الأندلس. طقاطيق وأدوارا. سوناتا حالمة للبيانو والأوركسترا ونفورا عميقا من كل ما هو ليس كذلك. لكنك بما لديك من موهبة فطرية فى معرفة أصول اللعبات ستتقنين سلوكيات الزمن الذى تعايشينه. ستتقمصين الدور المحدد لك وتصلين إلى درجة من المصداقية تخدعك أنت نفسك. لكنك لو اختلست نظرة إلى الداخل سيرعبك كم الأجزاء الناقصة، المتروكة فى هذا الزمن أو ذاك. إجتزأت منك الأزمان لتخرجى مبتسرة من الداخل وعلى أكمل ما يكون من الخارج لأنك ببساطة تنزفين داخليا بلا دماء أو خدوش ظاهرية.

سيصفق لك الجميع على أدائك لأدوارك الجديدة بمهارة وسينعتك بعضهم بأنك كالجبل فتتحسرين على أيام كنت فيها نهرا لعلمك بقسوة مصير الجبال التى كتب لها أن تظل على المشهد نفسه كل صباح. قليلون فقط هم من يستطيعون أن يفكوا شفرتك ويلحظوا مدى التشوه الذى لحق بك لأنهم ببساطة يراقبون داخلهم كثيرا ويتعرفون بسهولة على من يشبهونهم. سيتم هذا كل عام فى اجتماعكم السنوى فى المواقع الأصلية للأحداث. ستجمعكم المقاعد الوثيرة تحت نخلتك الباسقة فى فناء المبنى الرئيسى. ستعرضون فى عجالة ما طرأ عليكم وتجترون فى تلذذ ما قد سلف كمحاولة

أخيرة لرأب الذات. سيتقافز حولكم صغاركم بوجوه غير وجوههم .. قططا وفراشات وبهلوانات وقزمان. أقنعة ملونة اختاروها لتشكلها فرشاة فنان جالس في ركن قصي من المكان نفسه، ستجعل من الصعب عليكم أن تتعرفوا عليهم وتصرخون ضاحكين في وجوههم، سيغمرهم هذا بالفرحة والرضا مثلما كنتم تتلذذون بالتلفح بالأقنعة.

ستداهمكم الدقائق معلنة وجوب مغادرة المكان فيهرع كل منكم إلى أشيائه يحتضنها بعينيه ويمرر عليها أصابعه بمودة. ستختفي "نرمين" في مبنى العلوم تهدهد أجهزتها ومعاملها وتتعرف إلى ما استجد لتعانقه في اشتياق في العام المقبل. ستندس كليوباترة في غرفة الملابس تسحب نفسا عميقا معبقا بمزيج الروائح المعتقة. ستدب بقدمها على خشبة مسرح "هوارد" لتتأكد أن الأخشاب على حنانها لا تزال.

وفي المقعد الأخير من قاعة إيوارت ستجلسين وحيدة ومؤتنسة بمئات الصفوف من ظهور المقاعد ، والمشكاوات الشرقية الصفراء ومقرنصات الحوائط والأرض التي تجلسين فوق أعلى نقطة فيها لتميل بك تدريجيا فتأخذك إلى رحابة المسرح الحبيب .. ستارته المفتوحة دوما. البيانو الأسود اللامع وحكمة ذهبية منقوشة أعلاه

"Let knowledge grow from more to more but more of reverence in us dwell."

سيحتويك المقعد بحنان الأخشاب وتستمتعان بتلامسكما. سيتوسل إليك بألا تغادريه مثلما فعل كردان نفوسة من قبل لكنك ستمرقين إلى الكواليس المزدحمة بالأحبال والألواح الخشبية. الغرفة الزرقاء. الدهليز الرابط بين مسرحي هوارد وإيوارت

لتجدى نفسك فى مواجهة "طومى" التى أتت للسبب نفسه .. التلصص على بقايا الماضى .. غرفة المرايا .. بسمة عم عفيفى .. سيدهشكما الرجل بصلابة ذاكرته رغم الوهن الذى حل بجسده. سينحنى إجلالا لفاطمة وهو يقول : "نورتينا يا ست كولوباطرة ! وسيغمر "مونى" بنظرة حانية وهو يداعبها قائلا : "إزيك يا بت يا نفوسة؟" ستجهشان بالبكاء بعدما يحتضنكما ويتحسر على أيامكما التى لم يشهد مثيلا لها وحين يدعوكما لممارسة الطقس القديم .. مشاركته طبق الفول المهروس فى الزيت المتلألىء، ستضطران للانصراف أنتما وكل من يشبهونكما لأن وقت العرض قد انتهى.

ستنصرفين إلى "المول" ذى المقاهى المتعددة. ستأخذين موقعك الدائم فى مقعد من الحديد المشغول البارد وترفعين رأسك فى مواجهة الشاشات العملاقة التى تحاصر المقهى. ستتخلل حواراتك دندنة خفيفة بحثالة الألحان التى تقذفها عليك الأغنيات المصورة بطولة مطربى المينى باص وساقطات الغرب وعرايا الفيديو كليب. ثم تعلقين مستحسنة حلاوة النكهات الضبابية المستحدثة فى أدخنة النرجيلة.

ستقطرين عِرقا فى النادى أمام البخار المتصاعد من حمام السباحة انتظارا لانتهاء تدريب الصغار. ستتركين أذنيك مرتعا لثرثرة الأمهات حول تشدد الكابتن أو تسيبه وضرورة التكتل للإطاحة به. وقد تشاركين فى مناظرة عالية النبرة عن جرعة البيكنج بودر المناسبة للحصول على أعلى نسبة هشاشة للكعكة الاسفنجية. وقد تتركن الصغار فجأة فى حوزة الكابتن نفسه الذى كنتن تدبرن له المكائد منذ لحظات لتهرعن إلى معرض بآخر الفناء ضربت له خيمة خصيصا لعرض ما استجد من المستهلكات الصينية .. ورود وأطباق وملبوسات لا يحفزكن على شرائها سوى إنها .. رخيصة.

ستشهدين عصر "داليا" و " راندة" اللاتين ينجبان "رقية" و "عائشة". ستأخذين مكانك فورا فوق الأرجوحة حتى لا تطحنك التروس فتنادين أبناءك بإسمى "محبوبة" و" سفيان". وسيكون أميز ما فيك توزيعك لبسمات الفرحة وبعثرتك للبهجة المجانية بينما قلبك غائص فى أزمنة مفتقدة كلما خلا إليها همس لها " أنا معك" فيعتصرك الرعب حين ترتلين الآيات التى يتوعد الله فيها المنافقين بأنهم فى الدرك الأسفل من النار.

الآن تغيب "سندريللا". تبتلعها أعماق الأرض ويهال عليها التراب.

هل أسقطوها أم سقطت عفوا أم أسقطتها الغربة؟

تنظرين ثانية فى المرآة الأمامية فتطالعك الأخرى ببسمتها الكيدية. لا تتعرفين عليها ولا تتعرف عليك.

تتدحرج دمعة كثيفة على خدك .. لا حزنا عليك أو عليها .. بل جزعا منه ..

الزمن القاتل

نهاية الأشياء

– تمت –